المربي الأول ﷺ

تأملات تربوية في مواقف نبوية

د. محمد بن عبد الله الدويش

المربي الأول ﷺ

تأملات تربوية في مواقف نبوية

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدويش، محمد بن عبدالله بن إبراهيم
المربي الأول: (تأملات تربوية في مواقف نبوية)./ محمد بن عبدالله
بن إبراهيم الدويش- ط١-الرياض ١٤٤١هـ
٣٢٧ ص ؛١٧×٢٤سم
ردمك: ٢-٤٢-٨٢٩٠-٦٠٣-٩٧٨
١-الشمائل المحمدية ٢- الفضائل الإسلامية أ- العنوان
ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٤١/٥١٣٦

رقم الإيداع: ١٤٤١/٥١٣٦
ردمك: ٢-٤٢-٨٢٩٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

المربي الأول ﷺ

تأملات تربوية في مواقف نبوية

د. محمد بن عبد الله الدويش

دار الحضارة للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



مقدمة

الحمد لله؛ نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لله، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، أما بعد:

فحينما نريد إنتاج سلعة، أو نرغب في بناء مصنع، أو إنشاء مدينة من المدن؛ فإنَّنا نحتاج لجُهدٍ يتلاءم مع حجم هذه المهمة الكبيرة؛ سنحتاج إلى جُهدٍ في الإعداد والتخطيط، وجهدٍ آخر في التنفيذ والإشراف، وأخيرًا نحتاج إلى جهدٍ في تقويم العمل ومراجعته.

فإذا كان هذا في مجال حياة الناس المادية، فكيف بما هو أكبر من ذلك؟

كيف ببناء الإنسان وتربيته؟ هذا الإنسان الذي استطاع -بما منحه الله من قدرة وموهبة وعلم- أن يُنتج ما نراه في عالمنا المادي ما يبهر العقول ويأسرها، فضلاً عمّا هو فوق ذلك كله؛ حملُهُ لدين الله، وإقامتُه لعبوديته -عزّ وجل- التي خُلِقَ من أجلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

إنّ كثيرًا من الناس يستهينون بالتربية وبناء الإنسان، غير مدركين لما تتطلبه من جهد وعناء، وما تفتقر إليه من علوم وخبرات ومهارات.

التربية يمارسها كل أب وكلّ أم، وليس بالإمكان أن يكون كلُّ أب وأم متخصّصًا في التربية، بل ليس كلّ منهم قد تلقّى ما يكفيه من الإعداد والتأهيل للقيام بهذه المهمّة.

ولئن كانت كثيرٌ من أمور الناس وحياتهم فيما مضى تتم بعفوية وتجارب شخصية محدودة؛ فالواقع اليوم قد تغيّر.

لقد كان الناس فيما مضى يتولّون بناء بيوتهم بأيديهم، وربما التجأوا لمساعدة بنّاءٍ أخذ هذه الحرفة بالممارسة، وتعلّمها عن طريق المحاولة التي لا تخلو من الخطأ.

وعلى نفس المنوال كان التاجر فيما مضى يمارس العمل التجاري في شتَّى مراحله ومهامه بلا دراسة جدوى، ودون سابق تخطيط، بمنأىً عن الأنظمة المحاسبية والإدارية التي نراها في عالم اليوم.

وآنذاك كانت التربية تسير على النّسق نفسه؛ إذ تتم بطريقة عفوية، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال وتعقَّدت الحياة، والتربية ليست عنصرًا شاذًّا في ذلك.

كانت الأسرة فيما مضى تمثّل كلّ شيء في حياة أولادها، حتى مهنتهم يتوارثونها منها، أما اليوم، فقد تضاءل دور الأسرة والمدرسة والتعليم، مع انفجار تقنيّ ومعرفيّ هائل فتح الباب على مصراعيه أمام فتن الشبهات والشهوات.

تتعقد الحياة، فتتعقد معها التربية، ويتعاظم الجهد المناط بالمربين والمصلحين، ويبقى مع ذلك دين الله صالحًا لكل زمان ومكان، ولا يكلفنا الله إلا ما نطيق؛ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن:١٦)، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾(الطلاق:٧)، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

والطاقة والقدرة ليست قاصرةً على الجهد البدني وحده، فمما نطيقه: التعلم، وتطوير الخبرات، والارتقاء بالأداء.

ومن أهم مصادر التعلم: دراسة منهج مَن أرسله الله لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، من اصطفاه الله -عز وجل- لتعليم الناس الكتاب والحكمة وتزكيتهم وهدايتهم.

إنّ سيرة النبي ﷺ وأخباره قد حُفظت لنا، ووعتها مصنّفات أهل العلم في القديم والحديث؛ فهو ﷺ الرجل الوحيد الذي وُلِدَ تحت ضوء الشمس؛ فالمسلمون يعرفون من سيرته العطرة ﷺ وأخباره الكثير، بل ويحيطون بأدقّ التفاصيل التي قد يجهلون مثيلاتها عن آبائهم وأمهاتهم.

وإزاء هذه العناية والتوثيق الدقيق للحياة النبوية في مجالاتها المتعددة؛ فلا عذر لنا اليوم في التقصير في دراسة هذا الهَدْي المبارك، واستخراج كنوزه، وصياغة حياتنا في ضوئه.

إنّ الإفادة من الهَدْي النبوي في التربية تحتاج منّا إلى جهد في البحث عن المواقف التربوية من دواوين السنة والسيرة، وجهد في الجمع والتصنيف والتبويب، وفي التحليل والاستنباط والفهم، وجهد في التأسي والتطبيق وإنزاله على واقعنا، وهي جهود ثقيلة على كاهل المتمرسين في ميدان العلم والبحث؛ فكيف بحال فرد من الناس؟

كان للكاتب شرف تقديم حلقات إذاعية بعنوان (المربي الأول) بلغت أكثر من (٩٠) تسعين حلقة عبر إذاعة القرآن الكريم بالرياض، وكنتُ وقتها أرغبُ في نشرها مطبوعةً، إلا أنني شُغلت بتأليف كتاب (التربية النبوية)، وحين صدر الكتاب تردّدت في نشرها؛ تلافيًا للتكرار، وبعد طول تفكير واستشارة آثرتُ طباعتها ونشْرها؛ ففيها ما ليس في الكتاب.

وتتَّسم هذه الحلقات بما يلي:

- يتمحور كل موضوع حول موقف من المواقف النبوية، يصحبه -في الأغلب- إيراد شواهد أخرى، مع تعليقات متفاوتة تتناول الواقع التربوي.
- ارتبط كل موضوع بوقت الحلقة (١٠) عشر دقائق، وبعض الموضوعات عُرضت في حلقتين، وربما أكثر، فدمجتها كما هي تحت عنوان واحد.
- اكتفيتُ بمراجعة وتصويبات يسيرة، وأبقيت الحلقات كما هي في الأصل، مع تعديل يسير يتطلبه تحول المادة من مسموعة إلى مقروءة.
- يختلف هذا الإصدار عن سابقه (التربية النبوية)؛ بأن الأول رُتِّبَ موضوعيًّا، وحرصت فيه على جمع الشواهد المتعلقة بكل موضوع في محل واحد، أما هذا فهو مرتبط بالمواقف؛ كل موضوع يتمحور حول موقف واحد كما سبق، ولا يسلم من تكرار غير مقصود.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، ويجعلنا للمتقين إمامًا.

محمد بن عبدالله الدويش

dweesh@dweesh.com

١٤-٠٣-١٤٤١هـ

ما وجدت معلمًا أحسن تعليمًا منه

موقف يلخِّص عظمة التعليم النبوي يحكيه لنا معاوية بن الحكم السلمي ﷺ، فيقول: بينا أنا أصلّي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلتُ: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أُمّياه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله، ما كهرني[1] ولا ضربني ولا شتمني.

قال: «إنّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» (أخرجه مسلم: ٥٣٧).

إنّ المواقف العملية تمثّل المحك الأساس في الحكم على الناس، وهي التي تقيس أخلاقهم وتعاملهم، ومدى قدرتهم على تحويل أفكارهم وآرائهم إلى أعمال وحقائق.

نستطيع أن نحبّر المقال، وأن نردّد الحديث تلو الحديث عن معالي الأخلاق؛ كالحلم والصبر على المتعلمين، وتحمُّل أخطائهم، والعناية بضعيفهم، لكنَّ النجاح الحقيقيّ أن نطبّق ذلك على واقعنا.

إنّ الإفادة من هذا الموقف النبوي الذي يتجلّى فيه حُسْن تعليم النبي ﷺ ليست قاصرةً على أولئك الذين يكون التعليم والتدريس مهنتهم، فكلنا نمارس التعليم: إننا نعلّم أولادنا؛ نعلّمهم في أمور الدنيا، ونعلّمهم في أمور الدين، نعلمهم في

(١) قال السندي: «ولا كهرني: أي ما انتهرني، ولا أغلظ لي في القول، أو: ولا استقبلني بوجه عبوس من كلام الناس، أي: ما يجري في مخاطباتهم ومحاوراتهم». ا.هـ (حاشية السندي على سنن النسائيّ ٣/ ١٧).

المنزل وخارج المنزل، نعلمهم حين نعاقبهم وحين نُثيبهم وحين نكافئهم، نعلّمهم في مواقف الجد ومواقف الترفيه واللعب.

الإمام في مسجده يعلّم الناس؛ من خلال ما يقرأه عليهم، ومن خلال معالجته لمشكلاتهم وأخطائهم، ومن خلال مشاركته إياهم في مجالسهم.

والداعية أيضًا يعلّم الناس في دعوته، في خطبته، في محاضرته، في موعظته، في إجابته على أسئلتهم، في نصحه لهم، في إنكاره للمنكرات والمخالفات التي يقعون فيها.

وهذا يدعونا جميعًا إلى أن نقف وقفة المتمعن في المنهج النبوي في التعليم؛ فهو يعنينا ولو لم نتقلد وظيفة المعلم الرسمية.

يبدو في هذا الموقف اللمسة الحانية والعطوف، والرفق واللين من المربي الأول، ولا غرو فهو القائل ﷺ:«إن الله يحب الرفق في الأمر كله» (رواه البخاري ٦٠٢٤، ومسلم ٢١٦٥).

قال النووي: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخُلُق الذي شهد الله -تعالى- له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأُمّته، وشفقته عليهم، وفيه التخلّق بخُلُقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحُسْن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه» (شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٠).

إنّ المتعلم ليس آلة صمّاء تنتظر الأمر والتوجيه؛ إنه إنسان له مشاعره وأحاسيسه، وحتى يحقّق التعليم أهدافه، فإنّ المتعلّم بحاجة إلى خطاب يراعي مشاعره، ويأخذ بقلبه قبل أن يخاطب عقله فحسب.

إنّ المعلم حينما يسلك مسلك الرفق والأناة؛ فإنّ النتائج المتوقّعة والمرجوّة ستكون أكبر وأفضل -بإذن الله-، وهنا يخبرنا المربي الأول ﷺ عن ذلك بقوله: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه» (رواه البخاري ٢٥٩٣).

تأمل في موقف المعلم الأول ﷺ مع معاوية بن الحكم ﷺ، وكيف يعطي الله -عز وجل- على الرفق ما لا يعطي على العنف.

يحكي لنا صاحب الموقف -معاوية بن الحكم؛ ﷺ- فيقول: قلت يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهان، قال: «فلا تأتهم». قال: ومنّا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم». قال: قلت: ومنا رجال يخطون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك» (أخرجه مسلم ٥٣٧).

لقد لمس معاوية ﷺ منه ﷺ الرفق والأناة، فانطلق يحاوره، ويسأله عن بعض ما كان يعيشه في الجاهلية.

إنّ المتعلم يواجه مشكلات عدَّة، وتنغلق عليه كثير من المسائل والموضوعات، فيحتاج للسؤال والاستيضاح، ويحتاج لمن يستمع له، ومن هنا فالبيئة المريحة نفسيًّا شرط مهم لتعلُّمه.

وحين يتّسم المعلّم بالرفق في التعليم؛ فإنّه يُحَوّل هذا السلوك إلى سمة لدى المتعلم، ويمتد أثر هذه السمة إلى سلوكه الشخصي.

ها هو معاوية ﷺ وقد ندَّت منه إساءة وخطيئة، ها هو يشعر بالندم على ذلك، وهذا الشعور إنما كان نتيجة لتربية المعلم والمربي الأول ﷺ.

ففي سياق الحديث نفسه يقول معاوية ﷺ: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صَكَكْتُهَا صَكَّةً فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله؛ أفلا أعتقها؟ قال :«ائتني بها»؛ فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

لغة حديثنا مع أبنائنا، ونمط خطابنا، ورنّة أصواتنا لها أثرها في صياغة شخصياتهم المستقبلية.

إنّ من الناس مَن تسيطر عليه القضية محل النقاش والتعليم على حساب شخصية من يعلّمه، فيثور ويصرخ، وحين يسأل المتعلّم يعنّفه ويلومه واصفًا إياه بالغباء والبلادة، إنّ هؤلاء من أبعد الناس عن هدْي المربي الأول ﷺ.

والآباء والأمهات الذين يصرخون في وجوه أولادهم معنِّفين حين يسقط منهم إناء، أو يريدون إحسانًا فلا يُوفَّقُون، أو توكل لهم مهمة فلا ينجحون. إنّ هؤلاء الآباء والأمهات لا يُعلّمون، إنّما يزيدون الفجوة بينهم وبين أولادهم، ويرفعون مستوى القلق لديهم.

وحين يعيش الأولاد في مثل هذه الأجواء فلن يمتلكوا الصحة النفسية الجيدة التي تؤهّلهم للتعامل المتزن السليم مع مشكلات حياتهم ومواقفهم، وسيترك ذلك أثره على أدائهم للمهام والأعمال التي توكل إليهم؛ فلا يؤدّونها بانطلاق وحيوية، إنّما يؤدونها تحت هاجس القلق والخوف من الفشل.

يمكن أن ترى مَن جُلُّ حديثه مع أبنائه وطلابه عن حُسن الخلق والرفق والسكينة، لكن شخصيته وتعامله يهدمان كل هذه المعاني الجميلة التي يردّدها بلسانه وإن كان صادقًا يريد الخير.

وفي مقابل ذلك قد تجد من هو محدود التعليم، ضعيف الثقافة، لا يحسن الحديث، لكن سجيته وتعامله يصنعان في نفوس أولاده ما لا يصنعه الحديث الأخّاذ، واللغة البليغة.

وحُسن التعليم أبعد من مجرد الرفق واللين؛ وإن كان هو البارز في هذا الموقف.

إنّ حسن التعليم يقتضي أن يبحث المعلم عن أقرب الطرق التي توصّل ما يريد إلى من يخاطبه؛ فالأمر لا تكفي فيه كلمة يلقيها كيفما اتفق.

إنّه يتطلب اختيار الوقت المناسب، والمكان المناسب، والأسلوب المناسب، واللغة المناسبة، وحين لا نحسن التعليم فلا ينبغي أن نتوقع الاستجابة، بل يجب أن نتوقع مع ذلك آثارًا سلبية على تكوين شخصية أولادنا وطلابنا.

وحين نرى قصورًا في تحقق الأهداف التي نطمح إليها لدى المتربين، فلا يسوغ أن يقتصر لومنا على تقصيرهم وإهمالهم، فلنفترض أننا لم نحسن التعليم والتوجيه.

إنّ مهمتنا في التعليم والتوجيه لا تنتهي عند مجرد أن نتفوّه بأمرٍ أو نهي أو توجيه؛ إننا مُطالَبون بحسن التعليم والتربية والتوجيه.

أيَنقُصُ الرُّطَبُ إذا يَبِسَ؟

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عن شراء التمر بالرطب، فقال رسول الله ﷺ: «أيَنقُصُ الرُّطَبُ إذا يَبِسَ؟» قالوا: نعم. فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك. (رواه أبو داود ٣٣٥٩، والترمذي ١٢٢٥، والنسائي ٤٥٤٥، وابن ماجه ٢٢٦٤).

لقد كان ﷺ عالمًا أن الرُّطَب ينقص إذا يبس، فهو يعيش في قلب جزيرة العرب؛ بلاد التمر والرطب، وذلك أمر لا يخفى على أقل الناس، فضلاً عنه ﷺ، ومع ذلك فقد سألهم هذا السؤال: هل يَنقُصُ الرُّطَبُ إذا يَبِسَ؟

لقد سألهم ﷺ لينبّه أصحابه وتابعيه، إلى أنّ علة النهي عن بيع الرطب بالتمر هي نَقْصه عند يبسه، وحين يحصل النقص يفتقد شرطًا مهمًا من شروط بيع التمر بالتمر، ألا وهو التساوي.

إنّ كلام النبي ﷺ وحيٌ وتشريعٌ، لذا فهو حين يُسأل ليس بحاجة لأن يذكر في إجابته الأدلة والحجج للناس، فلو قال ﷺ: لا يجوز؛ لكان هذا تشريعًا وقاعدةً يُرجَع إليها.

إنها تربية لنا وتعليم يتجاوز مجرد حُكْم بيع الرطب بالتمر؛ ليرسم لنا معالم في التربية والتعليم، ولهذا الموقف التربوي دلالات عدَّة، منها:

أولاً: أهمية اعتناء المعلم والواعظ والداعية بالدليل فيما يقول للناس، وحتى لو كان المستمعون من العامة؛ ففي ذكر الدليل لهم ربط بالكتاب والسنة، وتربية لهم على تعظيم النصوص وأمر الله -عز وجل-، ولئن صعب على العامة فهم دقائق

الأدلة وتفاصيلها فمعظم أمور الشرع الكلية التي يعنيهم ويهمهم علمها أدلتها ظاهرة جلية في الكتاب والسنة.

ثانيًا: أهمية الاعتناء بوسائل إقناع الناس، وهي تختلف من فئة لأخرى، ومن موضوع لآخر، ومن مجتمع لآخر، وكم رأينا أفكارًا وآراء شاذّة استطاع أصحابها أن يروّجوها ويسوّقوها على الناس، وهي لا تملك الحدّ الأدنى من الجاذبية، لكنهم نجحوا في ذلك؛ لأنّهم استطاعوا توظيف وسائل الإقناع والتأثير.

إنّنا كثيرًا ما ننسى أنّ الناس يفكّرون بطريقة تخالف ما نفكّر فيه، وأن ما هو بدهي لدينا قد يكون بحاجة للاستدلال حين نخاطب به غيرنا رغبةً في إقناعهم.

إننا حين نربي أطفالنا وطلابنا على أن نقدّم لهم أفكارنا بصورة تقنعهم قد نحتاج لجهد أكبر، وقد يسبب لنا ذلك عبئًا، لكنَّ الثمرة فيها بعد ستكون -بإذن الله- ناجحة، وسيشكل هذا خطوةً في بناء شخصياتهم ليكونوا قادرين على التمسك بمواقفهم الصحيحة ومواجهة المؤثرات.

والتأثير والإقناع لم يعد اليوم قاصرًا على مجرد الاستعداد الفطري، أو على مواهب تولد مع الإنسان وتوجد معه، بل هو مما يمكن إتقانه وتعلُّمه، فيجدر بالمربي معلّمًا كان أو أبًا أن يسعى لاكتساب جانب من مهارات التأثير والإقناع ووسائل ذلك؛ من خلال القراءة والاطلاع، أو الالتحاق ببعض البرامج التدريبية، وما ننفقه في سبيل الارتقاء بأدائنا التربوي هو استثمار سنجني نتائجه -بإذن الله-.

ويزداد هذا الأمر أهميةً مع الجيل الجديد، الذي يفكّر بعقلية مختلفة عن جيل آبائه ومعلّميه، ويتعرض لاختراق ثقافي وفكري وقيمي هائل، فكثير مما كان بدهيًّا لدى جيلنا صار اليوم بحاجة إلى إقناع وتبرير وحجة لدى الجيل الجديد.

ثالثًا: تجاوز الاكتفاء بتلقين المعرفة تلقينًا مباشرًا، إلى استثارة تفكير الناس ودفعهم للتحليل والمناقشة والاستنباط.

إنّ ظروف التأليف والتدريس في العصور المتأخرة أدت إلى ترسيخ أسلوب نمطي يركز على النقل المجرد للمعرفة دون بناء المهارات العلمية لدى المتعلم، وربما أدّى فُشو هذا اللون إلى أن يستقر لدى بعض الناس أن هذا هو منهج التعليم النبوي، والأمر ليس كذلك.

إنّ هذا الموقف النبوي ليس هو الموقف الوحيد في سنة النبي ﷺ حتى يمكن أن يفسّره البعض بأنه جاء لعوارض قاصرة على ذلك الموقف.

عن أبي هريرة ﷺ: أن أعرابيًّا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إنّ امرأتي ولدت غلامًا أسود، وإنّي أنكرته، فقال له النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمْرٌ. قال: «فهل فيها من أورَق؟» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «فأنّى هو؟» قال: لعله يا رسول الله يكون نزعه عِرْق له؟ فقال له النبي ﷺ: «وهذا لعله يكون نزَعه عِرْق له» (رواه البخاري ٥٣٠٥، ومسلم ١٥٠٠، واللفظ له).

وعن أبي ذر ﷺ: أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم! قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إنّ بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضْع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» (رواه مسلم ١٠٠٦).

إنّ هذا يتطلّب منا الاعتناء بالارتقاء بتعليمنا، وألا يكون قاصرًا على مجرد إلقاء المعرفة على المتعلم وكأنه آلة صماء.

رابعًا: في هذا الموقف أثر التعليم الناضج على جوانب شخصية الإنسان الأخرى؛ فالتعليم لا يقتصر نفعه على مجرد ما تلقاه المتعلم، إنما يمتد ليؤثر في بقية جوانب شخصيته.

إنك لو قارنت بين شخصين متفقين في كل الخصائص إلا أن الأول متعلم والثاني ليس كذلك، ستجد بينهما بونًا شاسعًا في إدارة مواقف الحياة ومشكلاتها، حتى تلك المواقف التي ترد عليهما أول مرَّة، ومصدر ذلك أن تعلّم هذا الإنسان أفاده وانتقل إلى مواقف جديدة.

إن بناء عقلية المرء وقدراته أمرٌ تراكمي، وما يتعلمه الإنسان في مجالٍ ما يمتد تأثيره إلى تكوينه العقلي والنفسي، ويترك أثره على بقية جوانب شخصيته.

وحين يستقر لدينا أثر التعليم على شخصية الإنسان؛ فالأمر لا يعني مجرد المؤهل الذي يحمله الإنسان، بل يعني نوع التعليم ومستواه.

وهذا يتطلب منا الشعور بأهمية التعليم، وخطورة الدور الذي يتصدى له المعلمون، ويتطلب أن يشعر كل معلم ومعلمة -أيًّا كان مجال تعليمهم، وأيًّا كان اختصاصهم- أنّ مهمتهم وتأثيرهم ليست قاصرةً على مجرد المجال والتخصُّص الذي يُدرِّسون فيه.

إننا بحاجة للارتقاء بتعليمنا وتجويده، وهذا سيترك أثره على بناء الأفراد ليس في مجال اختصاصهم فحسب، بل في جوانب شخصياتهم، وبحاجة أن يشعر المعلمون والمعلمات أنّ هذا جزء من الرسالة الدعوية التي يؤدّونها، وأنها ليست قاصرة على مجرد الوعظ والنصح، وإن كانا مُهمين.

فأقبل عليَّ وترك خطبته

عن أبي رفاعة ﷺ، قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه!، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليَّ، فأُتي بكرسي حسبت قوائمه حديدًا، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلّمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها. (رواه مسلم ٨٧٦).

في هذا الموقف النبوي تبرز لنا عدة عِبَر وعظات، ومنها:

أولاً: تواضع المربي وبساطته، وهو أمر يتأكد في حقه؛ فالفارق بين المربي وطلابه علمًا وسنًّا وخبرة قد يقود المربي إلى نوع من التعالي غير المقصود، إنما منشأه حفظ الشخصية والوقار، وحين يتواضع الداعية والمربي لغيره فإنه يُعلّمهم حُسن الخلق والتواضع بعلمه قبل قوله.

ثانيًا: اهتمام المعلم بالمتعلم والداعية بالمتلقّي، وحرصه على إيصال الخير والفائدة له، فالطالب قد يحتاج لمزيد من الاهتمام من معلّمه في توضيح غامض أو إزالة لبس أو إشكال.

إنّ هذا الاهتمام ينمّي لدى المعلم الرغبة في التعليم والإفادة، كما أنه يترك أثرًا إيجابيًّا على المتعلم فيشعر أنه محطّ اهتمام ومحور اعتناء معلّمه، ويدرك أهميته ومنزلته، وهذا سيقوده إلى التفاعل أكثر مع الموقف التعليمي.

كما أنّه يُشْعره بأهمية المادة العلمية، ويرى أن اقتطاع المعلم جزءًا من وقته لبيانها وعلاج صعوبة التعلم لديه، يُعد دليلاً على أهمية ما يتعلم.

كما أن الاهتمام بالمتعلم يعوّده على أن يهتم هو بالآخرين مستقبلاً، ويتوقع منه أن ينتقل أثر هذا الموقف إلى مواقف أخرى في حياته.

إنّ هذا الاهتمام يمكن أن نرى تطبيقه في الصف الدراسي، ويمكن أن نراه في حلقة تحفيظ القرآن الكريم، ويمكن أن نراه بين الأب وأولاده، والأم وأولادها.

إننا نواجه أسئلة عديدة من أطفالنا، ونواجه مواقف يصرّون فيها على التعلم والمعرفة، وبغض النظر عن اختلاف اهتمامنا مع اهتماماتهم، وعن تصورنا لمدى هامشية تلك المواقف، فالواجب أن نتعامل معها على أنها فرصة للتعلم وبناء شخصياتهم.

ثالثًا: اهتمام المعلم بالجوانب الأخرى المتعلقة بالمتعلم، ومن ذلك:

- اهتمامه بمشكلاته الشخصية، والحرص على الاستماع إليه، والسعي لمساعدته فيها، وقد تكون تلك المشكلات متصلة بالتعلُّم، وقد تكون متصلة بعلاقاته مع الآخرين، أو في حياته المادية أو الدينية.
- اهتمامه بظروف المتعلم الأسرية، وما يتصل بها، فقد ينتمي المتعلم لأسرة فقيرة ومحتاجة، أو لأسرة تعاني من سوء التوافق الاجتماعي والخلل في الاستقرار، ومن هنا يأتي دور المعلم ليقدّم له الأفكار والوسائل التي تُعينه على التعامل مع هذه المواقف، وربما كان وسيطًا بين هذه الأسرة وأهل الخير المحسنين.
- سؤاله عنه إذا غاب أو افتقده، وقد كان هذا السلوك لدى المربين الأولين من سلف الأمة، وكانوا يرونه جزءًا من مهمة المعلم ومسؤوليته.

يقول الحافظ ابن جماعة -رحمه الله-: «وإذا غاب بعض الطلبة أو ملازمي الحلقة زائدًا عن العادة؛ سأل عنه، وعن أحواله، وعن من يتعلق به، فإن لم يخبر عنه بشيء

أرسل إليه، أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل، فإن كان مريضًا عادَه، وإن كان في غَمّ خفَّض عليه، وإن كان مسافرًا تفقَّد أهله ومَن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرَّض لحوائجهم، ووصله بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تودَّد له ودعا له». ا.هـ (تذكرة السامع والمتكلم، ص ٦١ - ٦٣).

وكلام الحافظ ابن جماعة -رحمه الله تعالى- لا يعني الالتزام بالصورة والمثال المحدَّد الذي ربما لا تتفق بعض تفاصيله مع الأعراف وظروف المعلمين، لكنَّ العبرة بالمقصد؛ ألا وهو الاهتمام بمثل هذه الحالات.

وقد كان النبي الكريم، وهو المربي الأول ﷺ يعتني بذلك، فحين يفتقد أحد أصحابه يسأل عنه، فعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ (الحجرات: ٢).. إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيس ﷺ في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ ﷺ؛ فقال: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت؟ اشتكى؟» قال سعد: إنّه لجاري وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ؛ فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار! فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة» (رواه البخاري ٣٦١٣، ومسلم ٢٢٧٣، واللفظ له).

ومن صُوَر اهتمامه ﷺ بالمتعلمين: أن يوصي أصحابه بإعانته على التعلُّم؛ فعن أبي هريرة ﷺ: أن خزاعة قتلوا رجلا من بني ليث - عام فتح مكة - بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك النبي ﷺ، فركب راحلته فخطب، فقال: «إن الله حبس عن مكة القتل، أو الفيل» - قال أبو عبد الله كذا، قال أبو نعيم واجعلوه على الشك

الفيل أو القتل وغيره يقول الفيل - وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولم تحل لأحد بعدي، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يختلى شوكها، ولا يعضد شجرها، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد، فمن قتل فهو بخير النظرين: إما أن يعقل، وإما أن يقاد أهل القتيل ". فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: «اكتبوا لأبي فلان». فقال رجل من قريش: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا؟ فقال النبي ﷺ: «إلا الإذخر إلا الإذخر» قال أبو عبد الله: يقال: يقاد بالقاف فقيل لأبي عبد الله أي شيء كتب له؟ قال: كتب له هذه الخطبة .(رواه البخاري ١١٢، ومسلم ١٣٥٥).

ومن صُوَر اهتمامه ﷺ بالمتعلم: أنه حين يحتاج للانصراف عنه فإنه لا ينساه أو يغفل؛ فعن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدّث القوم؛ جاءه أعرابي، فقال: «متى الساعة؟»، فمضى رسول الله ﷺ يحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: «أين أراه السائل عن الساعة؟»، قال: ها أنا يا رسول الله. قال: «فإذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (رواه البخاري ٥٩).

ففي هذا الموقف لم يقطع النبي ﷺ تفاعل أصحابه مع حديثه، لكنَّه لم يهمل السائل وينساه، والمتعامل مع هدي النبي ﷺ ينبغي أن يتَّسع أُفُقه ليستوعب كل هذه المواقف ويربط بينها، لا أن يقف عند نموذج واحد يعمِّمه على كل الأحوال.

ومِن صُوَر اهتمامه ﷺ بالمتعلمين: اعتذاره حين يحتاج الأمر لذلك؛ فعن جابر

ﷺ أنه قال: إن رسول الله ﷺ بعثني لحاجة، ثم أدركته وهو يسير، -قال قتيبة: يصلي- فسلَّمْت عليه، فأشار إليَّ، فلما فرغ دعاني فقال: «إِنَّكَ سَلَّمْتَ آنِفًا وأَنا أُصَلِّي، وهو مُوَجِّهٌ حِينَئِذٍ قِبَلَ المَشْرِقِ» (رواه البخاري ١٠٧٩، ومسلم ٥٤٠).

وعن المهاجر بن قنفذ: أنه أتى النبي ﷺ وهو يبول فسلَّم عليه، فلم يردَّ عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه، فقال: «إني كرهت أن أذكر الله -عز وجل- إلا على طُهْر، أو قال على طهارة». (رواه أحمد ١٨٥٥٥، وأبو داود ١٧، وابن ماجه ٣٥٠).

هذه بعض صور اهتمامه ﷺ واعتنائه بالمتعلمين.

واعتناء المعلم والوالد بأولاده له أثر بارز على تكوينهم؛ فهو يُعزِّز لديه ثقته بنفسه، ويشعره بقيمته، وهو مطلب مُهِمّ في بناء شخصيته؛ كما سيأتي ذلك في موقف نبوي آخر.

كما أنه يعلّمه حُسن التعامل مع الآخرين وتوقيرهم، وينمّي لديه اللغة الإيجابية في التواصل معهم.

ومن دروس موقفه ﷺ مع الأعرابي الذي أتاه وهو يخطب: مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، وهو أمرٌ يحتاجه مَن يتصل بالناس أيًّا كان هدف اتصاله بهم؛ تعليمًا أو دعوة أو تربية وتوجيهًا.

إنّ الناس يختلفون ويتفاوتون فيما بينهم، يتفاوتون في قدراتهم وطبائعهم واستعدادهم، ويتفاوتون في تديّنهم وصلاحهم، وما يحبون وما لا يحبون، واختياراتهم وتفضيلاتهم.

قال معاوية ﷺ لصعصعة بن صوحان: «صِفْ لي الناس، فقال: خلق الناس

أخيافًا: فطائفة للعبادة، وطائفة للتجارة، وطائفة خطباء، وطائفة للبأس والنجدة، ورجرجة فيما بين ذلك؛ يكدّرون الماء، ويُغلون السعر، ويضيّقون الطريق».

قال أبو علي القالي في أماليه: «الرجرجة: شرار الناس ورذالهم؛ وأصل الرجرجة: الماء الذي قد خالطه لعاب، وجمعه رجارج» (الأمالي١/ ١٢٢).

ووصف ﷺ حال أصحابه -رضوان الله عليهم- بقوله: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبَيّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة».

(رواه أحمد ١٢٤٩٣، ١٣٥٧٨، والترمذي ٣٧٩٠، ٣٧٩١، وابن ماجه ١٥٥).

وحين سئل علي ﷺ عن أصحاب محمد ﷺ؛ وصفَهم بما يبيّن تفاوتهم؛ فعن أبي البختري قال: «أتينا عليًّا فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ، قال: عن أيهم تسألوني؟ قالوا: عبد الله بن مسعود؟

قال: علم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى به علمًا.

قلنا: أبي موسى؟

قال: صُبِغَ في العلم صبغة ثم خرج منه.

قلنا: حذيفة؟

قال: أعلم أصحاب محمد ﷺ بالمنافقين.

قالوا: سلمان؟

قال: أدرك العلم الأول والعلم الآخر؛ بحر لا يُدْرَكُ قَعْره، وهو منّا أهل البيت.

قالوا: أبي ذر؟

قال: وعَى علمًا عجَز عنه.

فسئل عن نفسه، فقال: كُنْتُ إِذَا سُئِلَتُ أَعْطَيْتُ، وَإِذَا سَكَتُّ ابْتُدِيتَ» (سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٨).

وها هو – سيف الله- خالد بن الوليد ﷺ يروي عنه قيس ابن أبي حازم أنّه قال: «لقد منعني كثيرًا من القراءة الجهادُ في سبيل الله» (رواه أبو يعلى في مسنده ٧١٨٨، وابن أبي شية في مصنفه ١٩٤٢٠. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٥٠: رجاله رجال الصحيح).

وقد كان السلف -رحمهم الله- يتفاوتون فيما بينهم، قال ابن المبارك: «رأيت أعبد الناس عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، وأورع الناس الفضيل بن عياض، وأعلم الناس سفيان الثوري، وأفقه الناس أبو حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله».

وقال أبو عبيد: «انتهى العلم إلى أربعة: أبو بكر ابن أبي شيبة أسردهم له، وأحمد بن حنبل أفقههم فيه، وعلي بن المديني أعلمهم به، ويحيى بن معين أكتبهم له» (سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢٤).

وبناءً على هذا التفاوت والتباين ينبغي على الآباء والأمهات توجيه أولادهم للمجالات التي تلائمهم؛ فإن من الآباء والأمهات مَن يجعل الخيار الأول والأخير أمام أولادهم هو تفوقهم في ميادين دراسية معينة، وربما كانت لا تتلاءم معهم، فتنقطع أنفاسهم دون إدراكها ولا ينتفعون، ويحرمونهم من الاتجاه لما يحسنون، وقد نبَّه الحافظ ابن القيم مَن يربي ولده لهذا المعنى فقال: «ومما ينبغي أن يتعمد حال الصبي، وما هو مستعدٌّ له من الأعمال، ومهيّأ له منها، فيعلم أنه مخلوقٌ له، فلا

يحمله على غيره، ما كان مأذونًا فيه شرعًا، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعدٌ له لم يفلح، وفاته ما هو مهيَّأ له» (تحفة المودود ٢٤٣).

والمعلم يحتاج هذا المعنى في حجرة الدراسة وفي حلقته؛ فالطلاب يختلفون في إدراكهم وذكائهم، فما يكفي زيدًا لا يكفي عمرًا، وقد نبَّه السلف على ذلك. قال النووي: «وينبغي أن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصًا على هدايتهم، ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة، ويخاطب كل واحدٍ على قدر درجته، وبحسب فهمه وهمته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهمًا محققًا، ويوضح العبارة لغيره ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار، ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له».ا. هـ، (المجموع شرح المهذب ١/ ٣١).

وكان السلف ربما خصّوا بعض الطلاب بالتعليم والتحديث دون غيره.

قال أبو عاصم: «ربما رأيت سفيان يجذب الرجل من وسط الحلقة فيحدّثه بعشرين حديثًا والناس قعود. قالوا: لعلّه كان ضعيفًا؟ قال: لا» (أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ٧٨٥).

ويتطلب الأمر: تنويع أساليب التعليم ووسائله؛ فإن تنويع الأساليب والوسائل يقود إلى أن يهيئ بيئة مناسبة وملائمة لمعظم الطلاب لأن يتعلموا بشكل صحيح؛ فالنمط الواحد والأسلوب الواحد لا يتلاءم إلا مع فئة واحدة من المتعلمين.

وحينما ينوّع المعلم والداعية والمربي أساليبه ووسائله ستتسع مجالات ودائرة الاستيعاب التي تستوعب معظم هذه الفروق.

ومن صور الاختلاف بين المتعلمين، والتي تُوجِب تنويع أساليب التعلُّم: الذكاءات المتعددة، لقد انتهت اليوم فرضية تقسيم الناس إلى غبيّ وذكيّ؛ فالذكاء يتعدّد، فمن الناس من يكون ذكاؤه في المجال اللغوي، ومنهم من يكون ذكاؤه في المجال البصري، ومنهم من يكون ذكاؤه في مجالٍ ما، ومنهم من يكون ذكاؤه في آخر.

وحينئذٍ فاكتشاف المعلم للمجال البارز لدى المتعلم يقوده إلى التركيز على هذا المجال والاعتناء بتوظيفه في التعلم.

كما أن تنويع الوسائل والأساليب -كما أشرنا قبل قليل- يقود في النهاية إلى أن تستوعب مثل هذه المجالات.

وتفاوُت المتعلمين ليس قاصرًا على التفاوت في الجوانب العقلية، والقدرات الذهنية وما يتصل بها؛ فهم يتفاوتون فيما اكتسبوه من عادات ذات أثر على التعلُّم؛ ويتفاوتون في الجدية، والجَلَد على التحصيل، والمثابرة، ونحو ذلك.



اقدروا قدر الجارية

عن عائشة ﵂ قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السنّ الحريصة على اللهو. (أخرجه البخاري ٥٢٣٦، ومسلم ٨٩٢).

وقد دلّت إحدى روايات الحديث على أنه ﷺ هو الذي عرض عليها ذلك، قال الحافظ ابن حجر: «وفي رواية النسائي من طريق أبي سلمة عنها: دخل الحبشة يلعبون، فقال لي النبي ﷺ: يا حميراء، أتحبين أن تنظري إليهم؟ فقلت: نعم. إسناده صحيح، ولم أرَ في حديث صحيح ذكر الحميراء إلا في هذا» (فتح الباري ٢/ ٤٤٤).

ويطيل النبي ﷺ انتظارها حتى تمل من ذلك: «وفي رواية يزيد بن رومان عند النسائي: أما شبعتِ؟ أما شبعتِ؟ قالت: فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده» (فتح الباري ٢/ ٤٤٤).

وقد كان من أهداف عائشة ﵂ من وراء ذلك أن تبرز مكانتها منه ﷺ، ففي رواية للنسائي: «من رواية أبي سلمة عنها قلت: يا رسول الله؛ لا تعجل، فقام لي، ثم قال: حسبك. قلت: لا تعجل. قالت: وما بي حبُّ النظر إليهم، ولكن أحببتُ أن يبلغ النساءَ مقامه لي، ومكاني منه» (فتح الباري ٢/ ٤٤٥).

اللعب حاجة مهمة للطفل، وعائشة ﵂، تعبّر عن ذلك في قولها: «فاقدروا قدر الجارية حديثة السن الحريصة على اللهو» (البخاري ٥٢٣٦، ومسلم ٨٩٢).

إن الحاجات مطالب فطرية للإنسان في كافة مراحل عمره، وهي تلحّ في تلبيتها

وإشباعها، وحين لا يحصل الإشباع الكافي يعيش الإنسان، وتنمو معه مظاهر القلق والاضطراب، ويؤثر ذلك في النمو المتوازن للشخصية.

إنّ اللعب يحقّق وظائف تربوية عديدة، فهو كما سبق تلبية لحاجة فطرية للطفل.

وهو أيضًا وسيلة للترفيه وإذهاب الملل عن الطفل؛ فقدرة الطفل محدودة على التركيز والمتابعة في الأمور الجادة، وهذا الأمر ينبغي رعايته في تعليم الطفل في المدرسة أو حلقة القرآن الكريم، أو في متابعته في التحصيل الدراسي في المنزل.

والجو السائد في مدارس المرحلة الابتدائية بحاجة إلى مراجعة؛ فالمطالبة الصارمة للطفل بالانضباط في الصفّ، ومحاسبته على كل صغيرة وكبيرة يتنافى مع طبيعة الطفل؛ فهو بحاجة إلى أن تُتاح له فرص التحرّك واللعب، وأوقات الراحة بين الدروس قد لا تكون كافية لكثير من الأطفال.

ومن وظائف اللعب المهمّة: تعليم الطفل القِيَم الجماعية والتعامل مع الآخرين، فعن عائشة ﵂ قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يَتَقَمَّعْنَ منه، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ، فيلعبن معي. (رواه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠).

وفي رواية مسلم: فكنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رسول الله ﷺ.

قال السيوطي: « (ينقمعن): أي يختبئن حياءً منه وهيبةً. (يُسَرِّبُهُنَّ): بتشديد الراء: أي يرسلهن» (الديباج على مسلم ٥/ ٤٠٥).

وهذا الأمر يتأتى في الألعاب الجماعية، وفيها يتعلم الطفل كثيرًا من القيم، فيتعلم التنازل عن حقوقه ومصالحه الشخصية في مقابل مصالح المجموعة، ويتعلّم أن النجاح لا يتحقق إلا بجهد المجموعة كلها، وأنه ليس نجاحًا للفرد

وحده، ويتعلّم كيف يدير الخلاف مع زملائه، وكيف يتكيف مع آراء المجموعة التي قد لا تتفق مع رأيه، وهكذا.

وفي الألعاب الجماعية تدريبٌ للطفل على التكيف مع أنماط عديدة من الناس، وتدريب له على التقويم ومعرفة خصال الناس وطبائعهم.

وهذه القيم الجماعية إنما تتم حين يمارس اللعب في جوّ جماعيّ، وحين يوظّف لتحقيق هذه الأهداف، وإلّا فإن كثيرًا من اللعب الجماعية التي يقيمها أطفالنا لا تحقّق مثل هذه الأهداف، بل كثير منها ربما يقود إلى خلاف ذلك، وما نراه في كرة القدم خير شاهد على تخلّف هذه الوظيفة للعب الجماعي.

إنّ دروس التربية الرياضية التي يتلقاها التلاميذ في المدرسة ينبغي أن تُعنَى بهذه الأهداف، وأن تُوظَّف لتحقيقها أكثر من أن تكون مجرد تغيير للجوّ الذي يعيشه الطالب وانتقال له من الصف إلى الملعب.

ومما يحقّقه لعب الطفل من الأهداف التربوية: أن يهيئ بيئة تربوية للطفل لتكوين صداقات حسنة وإيجابية؛ فالطفل يحتاج للأصدقاء والأصحاب الذين يعايشهم ويمرح معهم، وهو عامل مهم في بناء شخصيته وتكوينها، ومما نشاهده في كثير من مجتمعاتنا أن اللعب والترفيه يصبح في أحوال عديدة سببًا لتكوين صداقات غير منضبطة، وقد يكون بوابة لكثير من حالات الشطط والخلل.

إن سعي الآباء والأقارب لتكوين مجموعات للترويح من أولادهم قد يُمثّل وسيلة غير مباشرة لبناء الصداقات التي يختارونها لهم؛ فالصداقة لا تُفرض فرضًا.

ومما يحقّقه لعب الطفل من الأهداف التربوية المهمة: تعليمه الاعتماد على نفسه وحلّ مشكلاته، وهذا يتحقّق في كثير من الألعاب التي يمارسها الطفل بصورة فردية، وتتطلب حلّ كثير من المشكلات التي تواجهه فيها.

ومما يحققه اللعب من الأهداف التربوية: تنمية قدرات الطفل العقلية والارتقاء بمهارات التفكير لديه؛ كالتخيّل، والإدراك، والتخطيط، وحلّ المشكلات، والتصنيف، والترتيب، وسائر العمليات العقلية.

ومن أهداف اللعب: التنمية الجسدية؛ «فهو يشبع حاجة أساسية لديه في الحركة والنشاط، ويساعد في إتقان الحركات وبناء المهارات وتنمية التآزر الحسي والحركي؛ فالحركات المتنوعة التي تصاحب اللعب تجعل النمو متزنًا وطبيعيًّا، فضلاً عما يكسبه الجسم من رشاقة ومرونة وتدريب للحواس، وتصريف للطاقة الزائدة عند الطفل» (حصة الصغير/ ص ٢٤).

واللعب وسيلة لاكتشاف جوانب كثيرة من شخصية الطفل وقدراته ومهاراته، وبخاصة في أوائل الطفولة؛ حيث يصعب اكتشاف جوانب شخصية الطفل من خلال الحديث معه أو حديثه عن نفسه؛ فهو في اللعب يتعامل بعفوية، وتبدو فيه شخصيته بصورة تلقائية.

فالصفات القيادية، والثقة بالنفس، والجرأة، والقدرات الجماعية، وغير ذلك من الصفات، تبدو للوالدين من خلال مشاهدة أطفالهم وهم يمارسون اللعب.

واللعب يتيح فرصة لمشاركة الأطفال اهتمامهم والتعايش معهم؛ فكثير من الآباء والأمهات يشعرون بجفوة مع أولادهم، ويجدون صعوبة في كسر هذه الجفوة لإصرارهم على تجاوزها من خلال التواصل اللفظي فقط، وهو أمرٌ لا يلائم كثيرًا من مستويات السن المختلفة، ومن هنا يمثل اللعب مدخلاً مهمًّا للتواصل مع الأولاد، ولهذا يجدر بالآباء والأمهات أن يعطوا أولادهم وقتًا، وأن يجعلوا من اللعب معهم فرصة لبناء جسور التواصل كما كان ﷺ يفعل مع أم المؤمنين ﵂.

لِمَا رأيت من حرصك على الحديث

عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث؛ أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، أو نفسه» (رواه البخاري ٦٢٠١).

في هذا الموقف النبوي استخدم ﷺ الثناء لمن يستحقه، وهذا المنهج النبوي ليس قاصرًا على هذا الموقف وحده؛ فسيرته ﷺ مليئة بالنماذج العديدة من مواقف الثناء على أصحابه. بل إنّ مواقف الثناء والتحفيز ربما فاقت مواقف العقوبة واللوم.

في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أوردناه آنفًا جاء ثناؤه ﷺ على فرد من الأفراد، وفي مواقف أخرى نجد ثناءه ﷺ على قبيلة أو جماعة.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم» (أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠).

ومن صور ثنائه ﷺ على القبائل والجماعات: ثناؤه على المهاجرين، وثناؤه على الأنصار، وثناؤه على أسلم، وعلى غفار، وعلى أهل اليمن.

والسُّنَّة مليئة بهذا النوع في بيان مناقب القبائل والأمصار.

وكما تنوّع الثناء منه ﷺ بحسب مَن يوجّه له -فردًا أو جماعة-؛ فقد تنّوع كذلك

بحسب موضوع الثناء، فهو ﷺ لا يُثني عبثًا، إنما يثني على أمرٍ يستحق الثناء.

ومن مواضع الثناء النبوي: الثناء على الصفة والخصلة الحميدة، سواء أكانت صفة جُبِلَ عليها صاحبُها، أو تعلَّمها واكتسبها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ للأشج؛ أشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله؛ الحلم والأناة» (رواه مسلم ١٧).

وفي رواية أبي داود تفصيل أكبر لهذا الموقف؛ فقد روى في سننه عن أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها زارع، -وكان في وفد عبد القيس- قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبِّل يد النبي ﷺ ورجله، قال: وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ، ثم أتى النبي ﷺ، فقال له: «إن فيك خَلَّتَيْنِ يحبهما الله؛ الحلم والأناة». قال: يا رسول الله، أنا أتخلّق بهما، أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما». قال: الحمد لله الذي جبلني على خَلَّتَيْنِ يحبهما الله ورسوله. (سنن أبي داود ٥٢٢٥).

وكما كان ﷺ يثني على الصفات والسمات؛ فقد كان يثني على الأعمال والمواقف التي يحسن فيها أصحابها، والنماذج على ذلك من سيرته ﷺ عديدة، ومنها:

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك. قال المغيرة: فتبرز رسول الله ﷺ قبل الغائط، فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة، وغسل يديه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يُخْرِج جُبّته عن ذراعيه فضاق كُمَّا جُبّته، فأدخل يديه في الجُبَّة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين، ثم توضأ على خُفَّيْه، ثم أقبل.

قال المغيرة: فأقبلت معه، حتى نجد الناس قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف، فصلى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين، فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلّم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته، فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم، ثم قال: «أحسنتم»، أو قال: «قد أصبتم». يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها. (رواه مسلم ٢٧٤).

وتتكرّر عبارة: (أحسنتم)، و(أصبتم) منه ﷺ في موقفٍ آخر؛ فعن أبي بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء. قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: «ما زلتم ها هنا؟» قلنا: يا رسول الله؛ صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء. قال: «أحسنتم»، أو: «أصبتم».

قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعَدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعَدون». (رواه مسلم ٢٥٣١).

ومن نماذج الثناء على الأعمال والمواقف: ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا الأعرابي والأعجمي، فقال: «اقرءوا فكل حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح؛ يتعجلونه ولا يتأجلونه» (رواه أبو داود ٨٣٠).

إنّ الثناء على الصفة، سواء أكانت جبليّة أم مكتسَبة، هذا الثناء يبرز للناس قيمتها ومنزلتها، فهو ثناء ممن وصفه ربه -تبارك وتعالى- بأنه على خُلُق عظيم.

وامتلاكه ﷺ للخُلق العظيم، كما يشمل نطاق الممارسة والتحلّي، فهو يشمل أيضًا التوجيه والمعرفة.

وهو تحفيز لمن تخلَّق بهذه الصفة، واتَّسم بتلك السمة، ليعتني بها، ويحرص عليها؛ فكثير من الناس يملكون صفات حسنة، لكنهم لا يقدرون منزلتها وقيمتها، وحينها تذبل وتذوب.

وحين يدرك المرء قيمة ما يتصف به من صفة حميدة فسيدعوه ذلك إلى أن يسعى لتنميتها وتقويتها؛ فالصفات بحاجة للتنمية والرعاية، وإلا ذبلت كما تذبل الوردة التي يأسر الناسَ جمالها، فما تلبث أن تعود هشيماً.

وللثواب كما يقول علماء النفس وظيفتان:

الأولى: إخبارية، وهي التي تجعل المتعلم يعرف أن استجابته في الاتجاه الصحيح.

والثانية: دافعية، وهي التي تدفعه لتكرار هذا السلوك.

ومثل ذلك الثناء على الأعمال والمواقف، فهو دلالة على مشروعيتها، وعلى فضلها، وهو دعوة لمن اتصف بها لأن يثبت عليها ويُعنَى بها، ودعوة للآخرين لأن يتأسوا به في ذلك؛ فقد قال ﷺ: «مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمِلَ بها بعده كُتب له مثلُ أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعُمِلَ بها بعده كُتب عليه مثلُ وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء» (رواه مسلم ١٠١٧).

إذًا فالأثر التربوي للثناء -سواء أكان ثناء على صفة أو كان ثناء على موقف وعمل- يتجاوز ذلك الشخص الذي قام بهذا العمل، أو تحلى بتلك الصفات، يتجاوزه إلى أولئك الذين يعيشون قريبًا منه، فيرون في هذا الثناء تصحيحًا لمثل هذا الموقف، ويرون فيه تحفيزًا لهم على أن يتأسوا به، ويقتدوا به، وحينها فالمعلم الذي يمارس الثناء في جوّ الصف الدراسي يحفّز عددًا من الطلاب يبلغ مجموع ذلك الصف، لا ذلك الشخص الذي وُجّهت له كلمات الثناء وحده.

إنّ الثناء أسلوب تربوي يُستخدم في إطار تحقيق وظيفته، ومن ثَمّ فلا بد أن يُضبط استخدامه بما يجعله محقّقًا لهذه الوظيفة؛ فالاستخدام المفرط قد يقود إلى نتائج معاكسة لما يريده المربي.



حتى يحقق الثناء أهدافه

إنّ الثناء أسلوب ووسيلة تربوية، والوسيلة لا تُرَاد لذاتها، إنما لما يُرجَى من ورائها من نتائج، ومن هنا كان لزامًا على المربي وهو يتعامل مع الوسيلة التربوية -أيًّا كانت- أن يراعي أمرين مهمّين:

الأول: مدى إسهامها في تحقيق الهدف المرجو من ورائها، فإذا تخلّفت الغاية ولم تتحقق فلا معنى لتكرار هذه الوسيلة.

والأمر الثاني: ألا يترتب عليها أثر سلبيّ يربو على المصلحة المرجوة من ورائها، فإن نتج عنها مثل هذا الأثر فلا ينبغي استخدامها، بل لا بدّ من البحث عن وسيلة أخرى.

إنّ المربي الأول ﷺ -وهو خير المربين وأجلّهم- كان يرعى هذا الجانب، فكيف كان تعامله ﷺ مع الثناء محققًا لهذين الضابطين؟

مع كثرة اعتنائه ﷺ بالثناء كأسلوب تربوي إلا أنه كان ينهى أصحابه عن أن يتجاوز هذا الثناء قدره وحقه، وقد تنوعت أدلة السنة النبوية الموضّحة لذلك.

وقد دلَّ على هذا الأمر القولُ والتوجيه المباشر؛ فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والتمادح؛ فإنه الذبح» (رواه ابن ماجه ٣٧٤٣).

وحين يحصل الثناء في مجلسه ﷺ متجاوزًا للحد الشرعي فإنه لا يقرّ صاحبه؛ فعن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال:

«ويلك؛ قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك» -مرارًا-، ثم قال: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسبُ فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكّي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه» (رواه البخاري ٢٦٦٢، ومسلم ٣٠٠٠).

وكان ﷺ يمتنع عن تقديم الثناء لمن يستحقه إذا خشي أن يؤدي ذلك لمفسدة أكبر، فقد قال ﷺ: «الناس تبعٌ لقريش في هذا الأمر؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والله؛ لولا أن تَبْطَرَ قريشٌ لأخبرتها ما لخيارها عند الله -عز وجل-» (رواه أحمد ٢٧٥٧٩).

إنّ هذا الذي المنهج التربوي الذي أرساه النبي ﷺ في هذه القضية يتطلّب الاعتدال في الثناء والبعد عن المبالغة، وهو ينافي ما يفعله البعض من المبالغة في الثناء على الشيوخ أو السلاطين بما يتجاوز الواقع، أو القدر المقبول عند عقلاء الناس.

وهو أيضًا يتطلّب الكفّ عن الثناء حين يُخافُ على صاحبه العجب والغرور، والزهو بالنفس.

وحتى يؤدي الثناء الغاية منه ينبغي أن يكون ملائمًا للشخص المثنى عليه، ويزداد الأمر حساسية لدى الأطفال الذين تجاوزوا التاسعة أو المراهقين؛ فالمجتمع قد تعارف على ألفاظ وأساليب من الثناء توجه للأطفال وتترك أثرها الفاعل لديهم، لكنها حين تستخدم مع من هو أكبر سنًّا فإنها تترك أثرًا سلبيًّا، فهي توحي لمستقبِلها أنّه لا يزال طفلاً يُخاطبُ بلغة الأطفال.

ولا زلت أذكر كيف آلمتني كلمات قالها لي أحد أساتذتي مثنيًا جادًّا في ثنائه، فوقعت مني بخلاف ما أراد؛ إذ لم تكن معتادة لمن هم في سنّي؛ -رحمه الله ونوّر ضريحه وغفر له-.

ومما يؤدّي لتحقيق الثناء لأهدافه: أن يعتدل المربي فيه، فلا يبالغ في توجيه الثناء للمواقف العادية، ولا يكثر من توجيهه لكل مَن يسأل أو يجيب؛ فحينها سيشعر المتعلّمون أنها كلمة فارغة من مضمونها، فهي تقال لكل أحد، وحين يأتي موقف متميز يستحق التأييد والثناء يكون المعلم قد استوفى ما في جعبته.

إنّ الثناء ينبغي أن يكون متناسبًا مع الموقف؛ فالثناء اليسير على عمل متميز، أو الثناء العطر على موقف عادي مما يقلّل من تأثير الثناء على المتربين.

ومما ينبغي مراعاته في الثناء: ألا يؤدي إلى الحسد والتنافس غير الشريف بين الإخوة أو التلاميذ، وهذا يكثر في المراحل الأولى من العمر، فحين يتكرّر ثناء الأب أو الأم على الطفل بمحضر إخوانه يقودهم هذا إلى الشعور بالغيرة والحسد تجاه المُثنَى عليه، وقد يسعون للوقيعة به أو إيذائه.

لذا أوصى النبي ﷺ بالعدل بين الأولاد، وأكّد على ذلك، وسمّى خلافه جورًا؛ لما فيه من إيغار الصدور، وشحن النفوس؛ فعن النعمان بن بشير ﷺ: أنّ أمه عَمْرَة بنت رواحة سألت أباه بعض الموهبة من ماله لابنها، فالتوى بها سنة، ثم بدا له. فقالت: لا أرضى حتى تُشْهِد رسول الله ﷺ على ما وهبتَ لابني. فأخذ أبي بيدي، وأنا يومئذ غلام، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ إنّ أم هذا بنت رواحة أعجبها أن أُشهدك على الذي وهبت لابنها. فقال رسول الله ﷺ: «يا بشير، ألك ولدٌ سوى هذا؟» قال: نعم. فقال: «أكلّهم وهبتَ له مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فلا تُشهدني إذًا، فإني لا أشهد على جور» (رواه البخاري ٢٥٦٧، ومسلم ١٦٢٣ واللفظ له).

ومما يعين الآباء والأمهات على تجاوز هذه المشكلة: استيعاب التنوع في شخصيات أولادهم، وتعدّد مجالات التميز بينهم؛ فأسامة متفوق في الدراسة،

لكنَّ معاذًا متفوق في مهاراته الاجتماعية، وسميّة متميزة في حفظ القرآن الكريم وتحصيلها الدراسي، لكنّ أسماءَ متميزةٌ في القيام بشؤون المنزل. إنّ الوعي بهذا الاختلاف في القدرات ومجالات التميز يتيح للآباء والأمهات فرصة الثناء على كلّ منهم بما يلائمه ويناسبه، فيشعر الجميع أنهم محطّ اهتمام والديهم.

إنّ الثناء على مواقف الإصابة فطرة في النفوس، يحتاجها الكبار كالصغار، لكننا حين نقارن بين اعتناء المربي الأول ﷺ بالثناء على مَن يستحق ذلك من أصحابه، وبين واقعنا، نرى بونًا شاسعًا.

فنحن نجيد أن نقول للمسيء: أسأت، وللمخطئ: أخطأت، يسمعها منا الكبار والصغار أضعاف ما يسمعون عبارة «أصبتَ وأحسنتَ»، ولو سُمِعَتْ عبارات التصويب والثناء فربما كانت باردة باهتة لا تحقّق المقصود والمراد.

وأولئك الذين يعيشون على مجرد النقد والتأنيب واللوم حين يخطئون وتغيب عن أسماعهم عبارات الثناء والتأييد والتشجيع والتحفيز، أولئك تنمو نفوسهم نموًّا غير متوازن، لا يتناسب مع طبيعة الإيجابية والمبادرة المنتظرة من أمثالهم.

إنّ عبارة الثناء لا توصل الرسالة المرادة منها بمجرد الألفاظ والحروف؛ فالابتسامة التي تصاحبها، ونظرات الإعجاب والإكبار، وحرارة المصافحة، وجرس الكلمة، وطريقة إخراجها، كل ذلك له أثره ووقعه البالغ على مَن يتلقاها، فهي حاجة نفسية أكثر من أن تكون كلمات مجردة. ومن هنا: فأثر الثناء إنّما يُقاس من خلال مجموع أثر هذا الموقف، بما فيه من كلمات، وجرس، ومشاعر، وألفاظ، أكثر من أن يقتصر على مجرد أصل هذه الكلمة وحروفها.

يسّرا ولا تعسّرا

عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده -وهو أبو موسى الأشعري، ﷺ- أن النبي ﷺ بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، فقال: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا» (أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣).

أوصى النبي ﷺ هذين الرجلين، وهما سيذهبان داعيين ومعلّمين ومحدّثين للناس، بهذه الوصية ﷺ التي كان كثيرًا ما يُوصي بها ﷺ؛ ففي حديث أنس ﷺ في الصحيحين أنه ﷺ قال: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا».

وقد كان التيسير شأنه ﷺ، ولا غرو فهو لا يأمر الناس إلا بما يتّصف به ﷺ.

عن عائشة ﷺ أنها قالت: ما خُيّر ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تُنتهك حرمات الله، فينتقم لله عز وجل. (أخرجه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧٣٤).

وحين عاش أصحابه من بعده، ورأوا الناس، تذكروا تيسيره ﷺ، وما كانوا يلقونه معه.

عن الأزرق بن قيس قال: كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس، فصلّى وخلى فرسه، فانطلق الفرس، فترك صلاته وتبعها حتى أدركها فأخذها، ثم جاء فقضى صلاته، وفينا رجل له رأي -أي: من الخوارج- فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ؛ ترك صلاته من أجل فرس! فأقبل

فقال: ما عنّفني أحدٌ منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي متراخٍ، فلو صليتُ وتركته لم آتِ أهلي إلى الليل. وذكر أنه قد صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره. (رواه البخاري ٦١٢٧).

وحين يرى ﷺ من أصحابه أنهم شقوا على غيرهم يأخذ بأيديهم ﷺ ويعلّمهم منهج اليسر. فعن أبي هريرة ﷺ: أن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، وأهريقوا على بوله ذَنُوبًا من ماء، أو سَجْلاً من ماء؛ فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين» (رواه البخاري ٦١٢٨).

وهذا الحديث يعطينا دلالة على أنّ التيسير يتجاوز كونه مبدأ من مبادئ التربية، ويتجاوز كونه أسلوبًا يمارس حين يقتضيه المقام، إلى أن يكون هو القاعدة وهو الأصل، ولهذا قال ﷺ: «فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسّرين».

فالحزم والعقوبة مع المتربي منهج سائغ تربويًا، لكنه استثناء وليس قاعدة، والقاعدة هي التيسير.

وهذا التيسير يمتد أثره إلى الأجيال التي لم تَحْظَ بشرف صحبته ﷺ؛ فها هو ﷺ يدعو لمن يسر على الناس أن ييسر الله أمره؛ فعن عبدالرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة ﷺ أسألها عن شيء، فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئًا، إن كان ليموت للرجل منا البعيرُ فيعطيه البعيرَ، والعبدُ فيعطيه العبدَ، ويحتاج إلى النفقةِ، فيعطيه النفقةَ، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك

ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول في بيتي هذا: «اللهم مَن ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم؛ فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق به» (رواه مسلم ١٨٢٨).

إنّ هذه التوجيهات التي سقناها فيها بيان أنّ القاعدة والأصل هو التيسير في حياة المسلم.

ومن هنا فإنّ المربي وهو يتعامل مع الناس ويربيهم على المنهج الشرعي يجب أن يكون من أجدر الناس بمراعاة هذا الأصل، أن يكون ميسّرًا، سمته التيسير فيما يتطلعه في تلامذته وأبنائه، فالكثير من المربين -نظرًا لطموحه وعلوّ همته- يطلب من أولاده وتلامذته قدرًا من التميّز، ويرسم لهم أهدافًا فوق طاقتهم.

وحين يكون اليسر شعارًا للمربي؛ فإنّ هذا سيترك أثره على تعامله مع أخطائهم وهفواتهم.

إننا نتعامل مع بشر، لا يفارقهم القصور مهما بلغوا من التميز والإتقان، فهم يخطئون، وينسون، ويقصرون، ويفرّطون، ويهملون، وهكذا شأن الناس.

وحينئذٍ فالمربي بحاجة إلى أن يأخذ بمنهج اليسر الذي بُعثنا به -كما أخبر النبي ﷺ-، وأن يأخذ بهذا المنهج في تعامله مع أخطاء تلامذته وهفواتهم.

وحينما أخلَّ بعض أصحاب النبي ﷺ بهذا المنهج؛ فأغلظوا على ذلك الرجل الذي أخطأ وبال في المسجد ردّهم النبي ﷺ إلى المنهج السديد في ذلك.

والتيسير أيضًا ينبغي أن يسود في أساليب التعليم والتوجيه، فيُختار ما فيه

اليسر والتسهيل على الناس، ويُبتعد عن التعنيف والإغلاظ.

كما يبدو أثر التيسير في أساليب التقويم، وقياس أثر التربية.

جديرٌ بالمربي أن يكون التيسير سمةً له في أعماله وهديه وأقواله، ومواقفه كلها، فهذا مما يقود إلى تأسي طلابه به، وتحلّيهم بالتيسير.

إننا نصنع النفوس من خلال إدارتنا لتعليمنا، ومن خلال تعاملنا مع الناس أكثر من كلمات نردّدها على أسماعهم، وحين يكون اليسر شعارًا لنا سوف نخرّج جيلاً يتحقق فيه هذا المعنى، وهذه الوصية النبوية.



لا أدري

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: مرضت فجاءني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي عليَّ، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صبَّ وَضوءه عليَّ فأفقتُ، فقلت: يا رسول الله! كيف أقضي في مالي؟ كيف أصنع في مالي؟ قال: فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث. (رواه البخاري ٥٣٢٧، ومسلم ١٦١٦).

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ﷺ: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ أيّ البلدان شرّ؟ قال: فقال: «لا أدري»، فلما أتاه جبريل -عليه السلام- قال: «يا جبريل أيّ البلدان شرّ؟» قال: لا أدري حتى أسأل ربي -عز وجل-. فانطلق جبريل -عليه السلام-، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم جاء فقال: يا محمد؛ إنك سألتني: أيّ البلدان شرّ؟ فقلت: لا أدري؟ وإني سألت ربي -عز وجل-: «أيّ البلدان شرّ؟ فقال: أسواقها» (رواه أحمد ١٦٣٠٢).

هناك مواقف عديدة يَرِد إلينا فيها السؤال من طلابنا أو أبنائنا، أو ممن يستمعون لمواعظنا، أو ممن نقدّم لهم نصيحةً وتوجيهًا، وحين نُسأل عمّا نعرفه تمام المعرفة فلا إشكال، وحين نُسأل عما لا نملك عنه أدنى علم فقد لا نجد أمامنا خيارًا إلا أن نقول: لا ندري.

أما حين يُسأل أحدنا عن مسألة مشكلة فها هنا المحك، هل يجيب بمجرد رأيه؟ أم يتجرأ ويقول: لا أدري؟

إنّ جملة: «لا أدري» أبعد من أن تكون كلمتين، إنها تعني دلالات عدة، هذه

الدلالات تترك أثرها على المتربي حين يسمعها.

إنها تعني التواضع العلمي، وأن يعتاد هو ألا يشمخ حين يرى نفسه قد حصَّل ما لم يحصّله غيره.

وهي أيضًا تعني تربية المتعلم على أن ينطلق في آرائه من موضوعية وتجرّد، وألّا يكون مصدر قراراته الرأي الشخصي المجرّد؛ فهو حين يطرق سمعه: «لا أدري» يستقر لديه أن الكلمة التي يقولها لا بد أن تكون واضحة ودقيقة، وأن القضايا العلمية لا بد أن تستند إلى أُسُس علمية، لا لمجرد انطباع أو استئناس.

وهي أيضًا تعني الورع والشعور بمسؤولية الكلمة؛ فكما يتورّع الإنسان عن غيبة الآخرين والسخرية بهم فيجب أن يتورع عن القول في مسائل العلم فيما لا يعلم.

إن هذه الجملة تُنشّئ المتعلم على أن للعلم البشري طاقةً وقدرةً محدودة، ومن ثم يلجأ إلى من لا تخفى عليه خافية، ويضع أقوال الناس وآراءهم في موضعها الصحيح، دون استخفاف وازدراء، ودون أن تصبح مصدرًا للتلقي.

إن الجرأة على القول بلا علم مسلك خطير، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٣).

يقول ابن القيم: «وقد حرَّم الله -سبحانه- القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ

بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٣)؛ فرتَّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنّى بما هو أشد تحريمًا منه، وهو الإثم والظلم، ثم ثلّث بما هو أعظم تحريمًا منهما، وهو الشرك به -سبحانه-، ثم ربّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعمّ القول عليه -سبحانه- بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه». ا.هـ. (إعلام الموقعين ١ / ٤٨).

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقال سحنون بن سعيد: «أجسرُ الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه» (إعلام الموقعين ١/ ٤١).

وقد تركت هذه التربية النبوية أثرها على أهل العلم من سلف الأمة؛ فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار، وما منهم من أحد يحدّث بحديث إلا وَدّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا يُسأل عن فتيا إلا وَدّ أنّ أخاه كفاه الفتيا». (رواه الدارمي ١٣٥).

وقد عقد الإمام ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) بابًا بعنوان: (ما يلزم العالم إذا سُئل عما لا يدريه من وجوه العلم).

وروى -رحمه الله تعالى- بسنده عن عبد الرحمن بن مهدي قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، جئتك من مسيرة ستة أشهر، حمّلني أهلُ بلدي مسألةً أسألك عنها. قال: فسل. قال: فسأله الرجل عن المسألة. فقال: لا أُحْسِنها!. قال: فبُهِتَ الرجل، كأنه قد جاء إلى مَن يعلم كل شيء!.

قال: أيّ شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم: قال مالك: لا أُحْسِن» (جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٥٣).

وقال مالك -رحمه الله-: «ينبغي للعالم أن يَأْلَف فيما أشكل عليه قولَ لا أدري؛ فإنه عسى أن يُهيأ له خير». قال ابن وهب: وكنت أسمعه كثيرًا ما يقول: لا أدري. وقال في موضع آخر: «لو كتبنا عن مالك لا أدري لملأنا الألواح» (جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٥٣- ٥٤).

وقال الإمام النووي: «وإذا سئل عن شيء لا يعرفه أو عرض في الدرس ما لا يعرفه فليقل: لا أعرفه ولا أتحقّقه، ولا يستنكف من ذلك، فمِن عِلْم العالم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم، أو الله أعلم. فقد قال ابن مسعود ﷺ: «يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (رواه البخاري ٤٧٧٤، ٤٨٠٩).

وقالوا: ينبغي للعالم أن يورّث لأصحابه «لا أدري»؛ ومعناه يكثر منها.

ومما يمنع الإنسان من قول «لا أدري» خوفه من أن يسقط من أعين تلامذته؛ لذا أكد سلف الأمة على هذا المعنى، فقد أوصى ابن جماعة المعلّم بقول «لا أدري» قائلاً:

«واعلم أن قول المسؤول: لا أدري، لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عِظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته وحسن تثبّته، وقد رُوِّينا معنى ذلك عن جماعة من السلف، وإنما يأنف من قول «لا أدري» من ضعفت ديانته، وقلّت معرفته؛ لأنه يخاف من سقوطه من

أعين الحاضرين، وهذه جهالة ورِقّة دين، وربما يشهر خطؤه بين الناس فيقع فيما فرَّ منه، ويتصف عندهم بما احترز عنه.

وقد أدَّب الله -تعالى- العلماء بقصة موسى مع الخضر حين لم يردَّ موسى -عليه السلام- العلم إلى الله -تعالى- لما سُئل: هل أحد في الأرض أعلم منك» (تذكرة السامع والمتكلم، ص ٤٢-٤٣).

وقال النووي -رحمه الله-: «وليعلم أن معتقد المحققين أن قول العالم «لا أدري» لا يضع منزلته، بل هو دليل على عظم محله وتقواه، وكمال معرفته؛ لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة، بل يستدل بقوله «لا أدري» على تقواه، وأنه لا يجازف في فتواه. وإنما يمتنع مِن «لا أدري» مَنْ قلَّ علمه، وقصرت معرفته، وضعفت تقواه؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين، وهو جهالة منه، فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه، يبوء بالإثم العظيم، ولا يرفعه ذلك عما عرف له من القصور، بل يُستدل به على قصوره؛ لأنا إذا رأينا المحققين يقولون في كثير من الأوقات «لا أدري»، وهذا القاصر لا يقولها أبدًا علمنا أنهم يتورعون لعلمهم وتقواهم، وأنه يجازف لجهله وقلة دينه، فوقع فيما فرَّ عنه، واتصف بما احترز منه، لفساد نيته، وسوء طويته، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ: «المتشبِّع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» (المجموع شرح المهذب ١/ ٣٤).



الحوار في المنهج النبوي

الحوار محور لحديث الصغير والكبير، يتداوله الناس في الميدان التعليمي، والميدان السياسي، في مجال العلم ومباحثه، والفكر وسجالاته.

فأين موقع الحوار في سيرة النبي ﷺ وشخصيته؟

حينما نتأمل سيرة النبي ﷺ نجد أن مواقف الحوار لا تكاد تخطئنا في أيّ مجال وأي ميدان؛ فقد كان النبي ﷺ يمارس الحوار بصورة واسعة، ومن ذلك:

الحوار مع الأطفال، فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سُلَيْم، ولها ابن من أبي طلحة يُكْنَى أبا عُمَيْر، وكان يمازحه، فدخل عليه فرآه حزينًا، فقال: «مالي أرى أبا عُمَيْر حزينًا؟»؛ فقالوا: مات نُغَرُهُ الذي كان يلعب به، قال فجعل يقول: «أبا عُمَيْرِ ما فعل النُّغَيْرُ». (رواه البخاري ٦١٢٩، ومسلم ٢١٥٠، وهذا اللفظ لأحمد).

وكان النبي ﷺ يمارس الحوار مع الشباب؛ فعن أبي أمامة ﷺ قال: إنّ فتىً شابًّا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه. قالوا: مه مه! فقال: «ادنه» فدنا منه قريبًا. قال: فجلس. قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»

قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهمّ اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصّن فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء. (رواه أحمد ٢١٧٠٨).

وكان ﷺ يمارس هذا الموقف والحوار مع النساء أيضًا؛ فعن ابن عباس ﵄: أن زوج بريرة كان عبدًا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته. فقال النبي ﷺ لعباس: «يا عبّاس، ألا تعجب من حبّ مغيث بريرة، ومن بُغض بريرة مغيثًا؟» فقال النبي ﷺ :«لو راجعته؟» قالت: يا رسول الله؛ تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه. (رواه البخاري ٥٢٨٣).

وكان النبي ﷺ يمارس الحوار مع المتعلم؛ فعن أبي هريرة ﵁: أنّ رسول الله ﷺ جاءه أعرابي فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود! فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمْرٌ. قال: «هل فيها من أورق؟» قال: نعم. قال: «فأنّى كان ذلك؟» قال: أراه عرق نزعه. قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عِرْق». (رواه البخاري ٦٨٤٧، ومسلم ١٥٠٠).

وكان يمارسه مع خاصة أصحابه، وخير مثال على ذلك موقفه ﷺ مع الأنصار في غزوة حنين، وذلك بعد قسمته للغنائم؛ فقد أعطى ﷺ المؤلفة قلوبهم وترك الأنصار، فبلغه أنهم وجدوا في أنفسهم، فدعاهم ﷺ، وكان بينه وبينهم هذا الحوار الذي يرويه عبد الله بن زيد ﵁، قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟». كلما قال شيئًا قالوا:

الله ورسوله أَمَنّ، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال: كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ.

قال: «لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعَار والناس دِثَار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» (رواه البخاري ٤٣٣٠، ومسلم ١٠٦١).

كان وَقْع قسمة غنائم حنين شديدًا على الأنصار -رضوان الله عليهم- فدعاهم ﷺ ووجَّه لهم سؤالاً وانتظر منهم الإجابة، وذهب أبعد من ذلك، فحين لم يجيبوا لقَّنهم الإجابة كما في (مصنف ابن أبي شيبة ٣٦٩٩٧) قائلاً: «ولو شئتم لقلتم فصُدِّقتُم: ألم نجدك طريدًا فآويناك، ومكذَّبًا فصدقناك، وعائلاً فآسيناك، ومخذولا فنصرناك...».

وكان ﷺ يمارس الحوار مع العامة، فنقرأ في سيرة النبي ﷺ أنه كثيرًا ما كان يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»؛ فعن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يزيد أحدهما على صاحبه، قالا: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ، حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إنّ قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت ومانعوك، فقال: «أشيروا أيها الناس عليّ؛ أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله -عز وجل- قد قطع عينًا

من المشركين، وإلا تركناهم محروبين». قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت؛ لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجَّه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه، قال: «امضوا على اسم الله» (رواه البخاري ٤١٧٩).

وهذا الموقف أيضًا نراه في غزوة أُحُد، ونراه في غزوة بدر، ونراه في مواقف عديدة.

ولن تخطئك مقولة «أشيروا عليَّ»، أو ما يؤدي معناها لو بحثت في أيّ مصدر من مصادر السُّنة والسيرة النبوية.

كان ﷺ يمارس الحوار مع الناس في مواقف عامة، وفي قضايا مهمَّة، وفي قضايا حيوية من قضايا الأمة، وهو ﷺ بخصائصه وطبيعته الشخصية خير الناس رأيًا وأسدّهم وأقدرهم على الوصول إلى المواقف الصحيحة، حتى في أمور دنيا الناس؛ فإن الله -عز وجل- قد اصطفاه واختاره، وهو أكمل الناس عقلاً، وأسدهم رأيًا.

وكان النبي ﷺ يمارس الحوار وهو مسدّد بالوحي، والمسافة التي بين النبي ﷺ وبين الصحابة أكبر بكثير من المسافة اليوم بيننا وبين طلابنا، أو مَنْ يستمعون إلينا.

وبغضّ النظر عن بُعد المسافة أو قربها؛ فقد كان النبي ﷺ في كمال عقله ورجاحة رأيه، وهو المسدَّد بالوحي، كان يمارس هذا الحوار مع الناس، مع أصحابه، مع الصغير، مع الكبير، يمارسه ﷺ وهو على استعداد أن يسمع ما يخالف رأيه، يمارسه ﷺ وهو يتوقع من أصحابه أن يخالفوه، فإنّ تلك الأسئلة التي كان يطرحها ﷺ لم يكن ينتظر منهم أن يوافقوه عليها.

ونرى في مواقف عديدة من مواقف سيرته ﷺ أنهم كانوا يرون رأيًا غير رأيه ﷺ؛ فإذا كان النبي ﷺ يمارس هذا الحوار فمن دونه عقلاً وعلماً وحكمةً أحوج لذلك.

إنّ حديثنا عن الحوار حديث في مقام التربية ومقام البناء، وليس الحديث عن الحوار بين المختلفين، ولا الحوار في الميدان السياسي، أو الميدان الاجتماعي، إنما هو حديث عن الحوار باعتباره ممارسة تربوية، باعتباره ممارسة يمارسها المعلم مع طلابه، ويمارسها الواعظ الخطيب، والمحاضر الداعية، والأب مع أولاده، والأم مع أبنائها ومع بناتها.



انظروا إلى هذا المحرم

المواقف التربوية للمربي الأول ﷺ ليست قاصرة على تلك الحِلَق التي يعقدها لأصحابه في مسجده، أو الخُطَب التي يُلقيها على منبره، أو مواقف التعليم التي يعلّمهم فيها ما يجهلون أو يذكّرهم بما غفلوا عنه.

إنها مواقف متنوعة؛ في الحضر والإقامة، في السراء والضراء، في السِّلم والحرب، في المنشط والمكره؛ إذ التربية قضية حية يعايشها ﷺ مع أصحابه في مواقفه المتعددة.

خرج ﷺ مع أصحابه إلى الحج، وكان كعادته له صحبة خاصة مع أبي بكر ﷺ، فكان هذا الموقف الذي تحكيه لنا أسماء بنت أبي بكر ﷺ.

قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجّاجًا، حتى إذا كنا بالعَرْج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي، وكانت زمالة[1] رسول الله ﷺ وزمالة أبي بكر واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ قال: قد أضللته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تضلّه! فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسّم ويقول: «انظروا إلى هذا المُحْرِم وما يصنع!» (رواه أحمد ٢٦٣٧٦، وأبو داود ١٨١٨، وابن ماجه ٢٩٣٣).

ها هو أبو بكر ﷺ خير الأمة بعد نبيها، بل خير الناس بعد أنبياء الله -صلوات

(١) معنى الـ (زِمالة) كما يقول العظيم آبادي: «بكسر الزاي، أي مركوبهما، وما كان معهما من أدوات السفر». (عونِ المعبود ٥/ ١٨٥).

الله وسلامه عليهم-، ها هو ﷺ وهو متلبّس بالإحرام يغضب فيضرب غلامه!

إنّها النفس البشرية تسمو وتعلو وتبلغ القمة، وتبقى مع ذلك بشرًا، لا بد أن يصيبها ما يصيب سائر البشر.

إنّ كثيرًا من المربين يغلب عليهم الحرص والحدب على أولادهم وتلامذتهم، ويتطلعون إلى أن يكونوا وفق صورة سامقة يرسمونها، فيعيشون حالة من التصوّر الذهني المجرّد لما ينبغي أن يكون عليه هؤلاء الأبناء، وقد تستولي عليهم هذه الصورة الذهنية فتحملهم على تجاهل الواقع، بل وتنسيهم أنهم يتعاملون مع بشر!. فالبشر مهما تلقوا من التربية، ومهما بلغوا من السمو والصفاء فلن يتجاوزوا كونهم بشرًا، يخطئون ويصيبون، يَكْبُون وينهضون، يحسنون ويسيئون، إلّا من عصمه الله بتوفيقه.

إننا في حالات كثيرة تسيطر علينا الرؤية المثالية في تربيتنا فتعوقنا عن رؤية الواقع والوعي به على طبيعته.

والمثالية في التربية تبدو في مجالات عدة:

المجال الأول: التخطيط؛ والتخطيط مفهوم أوسع من الخطة المدونة المكتوبة على أوراق وفق برنامج محدد مرسوم؛ فقد تكون الخطة صورة في الذهن، وهي وإن نقصها التحديد والتأطير تبقى خطة موجهة لعمل المربي.

المجال الثاني: الأهداف؛ فيرسم المربي للناس أهدافًا محلّقة في الخيال تنوء بها قدرات البشر وإمكاناتهم وطاقاتهم؛ إمّا لأنها مما لا يطيقه البشر ابتداءً أو استمرارًا عليه، أو لأنها لا تلائم قدرات من رُسِمَت ووُضِعَت له.

المجال الثالث: في العمليات والتطبيقات التربوية؛ فكما أنّ المتربي بشر فيه من

القصور والضعف البشري، فالمربي هو الآخر وإن انتقل إلى مرحلة البناء والعطاء لا يتجاوز البشرية، ومن هنا فحين يمارس التربية لن يسلم من القصور والخلل البشري مهما بلغ تأهيله.

المجال الرابع: في التقويم وإصدار الأحكام؛ فأحكامنا على أولادنا أو غيرهم من الناس عبر صورة نرسمها في أذهاننا عما يجب أن يكونوا عليه، ثم نقارن واقعهم بهذه الصورة التي رسمناها لهم.

ربما نرسم صورة للزوجة المثالية في نومها واستيقاظها ورعايتها لحق زوجها وأولادها، وإدارتها لبيتها، ثم نقيس واقعها بهذه الصورة التي رسمناها.

ونرسم صورة لأولادنا في تعاملهم معنا، ومع الآخرين، في عبادتهم وأخلاقهم، في امتلاكهم لمهارات الحياة وجديتهم فيها، ثم نقيس واقعهم بناء على هذه الصورة التي نرسمها.

ومن هنا تبدو المثالية في الحديث معهم عما ينبغي أن يكونوا عليه، وفي الصرامة بالمطالبة بهذه الصورة المرسومة، وفي اتساع معايير حكمنا على الخطأ من الأعمال والمواقف.

إننا بحاجة لأن نكون واقعيين في تربيتنا، واقعيين حين نخطّط للتربية، واقعيين حين نرسم الأهداف، وواقعيين حين نُقَوِّم المتربين.

والواقعية التي ندعو إليها ليست تلك التي تستسلم للواقع السلبي وترضى به، وتدافع عن كل تقصير وخلل بحجة بشرية الناس وقصورهم وضعفهم، أو تلك التي تدنو فيها الهمة وينخفض الطموح.

إنّ مهمة التربية أن ترتقي بالإنسان وتنهض به، وأن تصلح من أوضاعه السيئة،

وتنقله من واقعه الذي هو عليه إلى المثل الأعلى الذي يطيقه البشر.

وحتى نحقّق الواقعية المعتدلة في تربيتنا نحتاج أن نعي ونفهم طبيعة الإنسان وخصائصه، وكتاب الله -عز وجل- مليء بالحديث عن هذه الطبيعة البشرية وبيانها.

قال -عز وجل-: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨).

وقال -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم ٣٤).

وقال -جل وعلا-: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء: ١١).

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء: ١٠٠).

وقال -تعالى-: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٤).

وقال -سبحانه-: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (الأنبياء: ٣٧).

والآيات التي تُبْرِز لنا طبيعة الإنسان يَضيق المجال عن استيعابها.

وكما أن القصور سمة للبشر بعامة، فثمة نوع خاص من القصور؛ فقد نرى ألا قدرة لمن أمامنا على ما يقدر عليه غيره، وأنه يضعف عما يطيقه سواه؛ فخصائص الناس وسماتهم مختلفة متباينة؛ فضلاً عن قدراتهم النفسية والجسدية.

لقد كان ﷺ يراعي هذا الأمر في تعامله مع أصحابه -رضوان الله عليهم-؛ فعن أبي ذر ؓ أنّ رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحبُّ لك

ما أحب لنفسي؛ لا تأمرنّ على اثنين، ولا تولّينّ مال يتيم» (رواه مسلم ١٨٢٦).

وحاشا أن يكون في ذلك منقصة لمنزلة أبي ذر ﷺ، بل هو صادِر عن حرص ومحبة من المربي الأول ﷺ؛ مراعاةً لطبيعة أبي ذر وخصائصه الشخصية.

ومما نحتاجه أيضًا حتى نحقّق الواقعية في تربيتنا: أن نأخذ في اعتبارنا السنّ والمرحلة العمرية التي ينتمي إليها الشخص؛ فالطفل له خصائص وسمات ومستوى من الإدراك يختلف عن المراهق، والمراهق يختلف عن الناضج، والشيخ كبير السن يختلف عن من لم يبلغ مرحلة الشيخوخة.

وكذلك نحتاج أيضًا: أن نراعي الظروف والحالات التي تمرّ بالشخص وتكتنفه؛ فقد يعيش المتربّي حالة نفسية معينة، وقد يكون تحت تأثير موقف من المواقف السارّة أو الضارّة، أو يسيطر عليه دافعٌ أو هدف يسعى لتحقيقه مما يجعل أعماله وتصرفاته متأثرة بهذا الموقف، ولا تحكي بالضرورة الحالة الطبيعية والواقعية.



إني لأعلم كلمة لو قالها

مواقف عدَّة تواجهنا في الحياة مع أولادنا وطلابنا، ومع سائر الناس، مواقف نرى فيها سلوكًا خاطئًا، أو مخالفة شرعية، أو أمرًا لا نرتضيه.

وموقع المربي وحرصه على من يربيه قد يزيد من تحسُّسه؛ فتؤلمه الأخطاء والثغرات، وكثيرًا ما تدفعه للمبادرة إلى النقد والتصحيح.

والنقد وتصحيح الخطأ عملية تربوية يجب أن تتم في إطار واضح ومحدد؛ فالنقد ليس مقصودًا لذاته؛ إنَّما هو خطوة لإصلاح الخلل، مما يفرض على المربي أن يتعامل معه تعاملاً وظيفيًّا، فترتبط ممارسته له بمدى إسهامه في تصحيح الخطأ وتصويب المسار.

وبعبارة أخرى: قبل أن نخطو خطوة في سبيل النقد؛ يجب أن نسأل أنفسنا هذا السؤال المهم: هل نتوقع أن يؤدي هذا النقد لنتيجة إيجابية؟ هل نتوقع أن يسهم في الإصلاح؟ أم سيقود لما لا نريد ولا نقصد؟

ولقد كان المربي الأول ﷺ يُعْنَى بتصحيح أخطاء أصحابه، وتقويم ما يراه من مواقف غير صائبة.

وكان منهجه ﷺ في تصحيح الأخطاء منهج العدل والحكمة؛ هذا المنهج الذي لا يمكن اختزاله أو فهمه من خلال موقف واحد، فهو منهج متكامل يعطي كل مقام ما يناسبه.

والحديث هنا لا يمكن أن يستوعب تطبيقات المنهج النبوي، فلنقف بعض الوقفات مع أحد هذه النماذج.

عن سليمان بن صرد ﷺ قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَّانِ فأحدهما احْمَرَّ وجهه وانتفخت أَوْدَاجُهُ؛ فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد».

فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوّذ بالله من الشيطان.

فقال: وهل بي جنون؟ (رواه البخاري ٦٠٤٨، ومسلم ٢٦١٠).

في هذا الموقف أدرك النبي ﷺ الحالة التي يعيشها هذا الرجل، وأن الموقف لا يحتمل أن يخاطبه ﷺ أو يأمره، فقد يرد عليه الرجل وهو في حال استيلاء الغضب عليه؛ فيقع فيما هو أسوأ.

لقد قال ﷺ هذه الكلمة عابرة، قالها وهو يخاطب أصحابه دون أن يوجّه لهذا المُغْضَب الكلمة مباشرة، وتدل إحدى روايات البخاري للحديث أنّ الرجل كان يسمع مقالة النبي ﷺ، وأن مجيء من أمره بالاستعاذة لم يكن مصدره عدم سماع هذا الغاضب لوصية النبي ﷺ.

تقول الرواية: فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟

قال: إني لست بمجنون. (رواه البخاري ٦١١٥).

وقد بلغ الغضب عند هذا الرجل حالة شديدة، يصوّرها ما جاء في رواية أحمد وأبي داود: «فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى خُيِّلَ إليَّ أن أنفه يَتَمَزَّعُ من شدة غضبه» (أحمد ٢١٥٨١ وأبو داود ٤٧٨٠).

إنّ وعي المربي بما ينتج عن أسلوبه في تصحيح الخطأ مطلب ضروري، ولا يسوغ أن يكون مجرد وقوع الخطأ باعثًا على اللوم والمعاتبة.

والنقد واللوم ليس مجرد تسجيل موقف، وليس تعبيرًا عن استياء بقدر ما هو خطوة في العلاج والتصحيح مرتبطة بوعينا بمدى إسهامها في تحقيق هذا الهدف.

في هذا الموقف يلجأ النبي ﷺ للعلاج غير المباشر للخطأ، وللأسلوب الذي لا يتناول الشخص بعينه.

إنّ المربي الواعي هو من يدرك أن فرص وأساليب تصحيح الخطأ وتقويم الاعوجاج ليست قاصرة على نمطٍ بعينه، ولا محصورة في المواجهة المباشرة لصاحبه.

ثمة مواقف تحتاج منا أن نواجه صاحبها صراحة، ومواقف تحتاج إلى شيء من اللوم، وأخرى تحتاج إلى تقريع وتوبيخ، وأخرى قد يمتد الأمر فيها إلى العقوبة وربما العقوبة الصارمة القاسية، لكن ليست كل المواقف كذلك.

من أهم ما يحتاجه المربي امتلاك المرونة التي تقوده لأن يمارس الأسلوب الملائم، للموقف، وألا يصر على نموذج واحد ونمط محدد، وهذا يفتح مجالات عدة لتطبيق الأسلوب غير المباشر لتصحيح الأخطاء.

إنّ التأسي بالنبي ﷺ في هذا الموقف ليس قاصرًا على الصورة المطابقة للعمل نفسه؛ بل مجال التأسي أوسع وأرحب.

وحين نعي اتساع دائرة التأسي بهذا الموقف وغيره فسنرى أن ثمة وسائل وأساليب جدَّت مع تطور الحياة واتساع دائرة التقنية والمخترعات، وأنّ بعض هذه الوسائل يلتقي مع المنهج النبوي في العلاج غير المباشر للخطأ.

إنّ الأسلوب غير المباشر لعلاج الخطأ يحمي من الوقوع في نتائج سيئة أو مفاسد قد تربو على المصلحة المرجوة من وراء ذلك.

والأسلوب غير المباشر يفتح مجالاً للتقويم والتصويب والتسديد بما يتجاوز معه أثر الحرج الذي يجده المرء حين يصوّب من هو أكبر منه سنًّا أو قدرًا، أو حين يريد تصويبًا وتسديدًا في دائرة ما يُستحى من الحديث عنه.

والأسلوب غير المباشر يزيل الحرج الذي قد يقع فيه من ارتكب الخطأ أو صدر منه، والمربون الكبار هم خير من يقدّر مشاعر الآخرين ويترفّع عن جرحهم، وهم من يدركون أنّ من مصلحتهم أن يتربى أولادهم وتلامذتهم على أن يشعروا بقيمتهم ومنزلتهم وكرامتهم.

والأسلوب غير المباشر يرسّخ لدى المتربي الشعور بأنه محطّ اهتمام المربي واعتنائه، ويورث المحبة في قلبه لمن يربيه، والمحبة لها أثرها البالغ في التواصل والتقبل.

وهو نوع من الإحسان ومعالي الأخلاق، وقد أمر الله -تبارك وتعالى- نبيه ﷺ بذلك وبيّن أن هذا الأمر يقود إلى إزالة العداوة وسلّ السخيمة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصّلت: ٣٤).

وقد امتنَّ -تبارك وتعالى- على نبيه ﷺ بأن رزقه الخُلُق الحسن واللين في التعامل، وأخبر أنه لو فقد هذا الخُلُق لانفضّ عنه أصحابه -رضوان الله عليهم-، ولتفرّقوا، قال -عز وجل-: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فإذا كان لحُسن الخُلق أثره على صلة ذلك الجيل السامي؛ جيل أصحاب النبي ﷺ فكيف بغيرهم من الناس؟

وحين يسعى المربي لبناء هذه الصلة ورعايتها من خلال حُسن التعامل مع مواقف الخطأ فهو لا يقصد من وراء ذلك مجدًا لشخصه، أو وزنًا لذاته؛ إنّما يقصد من ذلك تأسيس قاعدة من حسن الصلة تهيئ البناء التربوي المنتج بعد ذلك.

ختامًا: فالتوجيه غير المباشر أسلوبٌ في التعامل مع الخطأ يُستخدم حين يكون هو الخيار الأنسب والأصلح، وليس بالضرورة في كل مقام وزمان.



ولا يثرَب عليها

عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا زنت أَمَة أحدكم فتبيَّن زناها فليجلدها الحدّ ولا يُثرِّبْ عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يُثرِّبْ، ثم إن زنت الثالثة فتبيَّن زناها فليبعها، ولو بحبل من شعر»(رواه البخاري ٢١٥٤، ومسلم ١٧٠٣).

في هذا الحديث أمر النبي ﷺ ولي الأَمَة أن يقيم عليها الحدّ الشرعي حين تأتي ما يستوجب هذا الحدّ، مبينًا ﷺ ضوابط وشروط إقامته.

وليس الحديث عن الحدّ وأحكامه موضوع هذه السطور، إنما نتناول بعض الأبعاد التربوية في هذا الحديث والتوجيه النبوي.

ففي حال أخطأت الأَمَة واقترفت هذه الكبيرة، أمر النبي ﷺ سيد الأمة بإقامة الحدّ الشرعيّ عليها، لكنّه ﷺ -وهو المربي الأول- نهى عن التثريب عليها ولومها بعد إقامة الحد واستيفاء العقوبة الشرعيَّة.

وقد اختلف شرّاح الحديث في المقصود من هذا النهي؛ فمنهم من ذهب إلى أنه نهي عن الاكتفاء باللوم بدلاً من الحدّ، ومنهم من ذهب إلى أنَّه نهي عن الجمع بينهما، وهو الأقرب لسياق الحديث.

قال النووي: «التثريب: التوبيخ واللوم على الذنب».

(صحيح مسلم بشرح النووي ١١/ ٢١١).

وقال الحافظ ابن حجر: «قوله: (وَلَا يُثَرِّبْ) أي: لا يجمع عليها العقوبة بالجلد وبالتعيير.

وقيل: المراد لا يقتنع بالتوبيخ دون الجلد.

وفي رواية سعيد عن أبي هريرة عند عبد الرزاق: ولا يُعيّرها ولا يفنِّدها.

قال ابن بَطَّال: يؤخذ منه أن كل من أُقيم عليه الحدّ لا يُعزّر بالتعنيف واللوم، وإنّما يليق ذلك بمن صدر منه قبل أن يُرفَع إلى الإمام للتحذير والتخويف، فإذا رُفِعَ وأُقيم عليه الحدّ كفاه.

قلتُ: وقد تقدّم قريبًا نهيه ﷺ عن سبّ الذي أُقيم عليه حدّ الخمر، وقال: «لا تكونوا أعوانًا للشيطان على أخيكم». (فتح الباري ١٢/ ١٦٦).

إنّ العقوبة أسلوب تربوي له وظيفته في تقويم الفرد وإصلاحه، والحدّ عقوبة دنيوية لمن أتى ما يوجبه، وهو سبب لتطهير الجاني من الذنب والخطيئة؛ فعن عبادة بن الصامت ﷺ، وكان شهد بدرًا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله ﷺ قال - وحوله عصابة من أصحابه-: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمَنْ وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك». (رواه البخاري ١٨، ومسلم ١٧٠٩).

وكما شرعت الحدود، وهي عقوبة شرعية محددة لمن أتى ما يوجبها؛ فقد شرعت العقوبة لمن أتى ما يوجب عقوبته مما هو دون الحد؛ فعن أبي بردة الأنصاري ﷺ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تجلدوا فوق عشرة أسواط إلا في حدّ من حدود الله» (رواه البخاري ٦٨٥٠، ومسلم ١٧٠٨).

قال ابن القيم -رحمه الله-، حول هذا الحديث، فيما نقله ابن حجر عنه: «الصواب في الجواب أن المراد بالحدود هنا الحقوق التي هي أوامر الله ونواهيه، وهي المراد بقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩). وفي أخرى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ (الطلاق: ١). وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة: ١٨٧). وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٤).

قال: فلا يُزَاد على العشر في التأديبات التي لا تتعلق بمعصية، كتأديب الأب ولده الصغير». (فتح الباري ١٢/ ١٧٨).

وحين يستحق المرء العقوبة فهذا لا يلغي قيمته وكرامته، ولا يفتح الباب للمؤدب على مصراعيه أن يفعل ما يشاء.

في واقعنا مَن يتجاوز هذا الأدب النبوي في عقوبته لأولاده وطلابه.

فحين تكون العقوبة البدنية خيارًا يختاره المربي مقتنعًا بأنها وسيلةٌ فاعلةٌ للتقويم والإصلاح فلتكن في إطارها الصحيح.

يحتاج من يُعاقَب بالضرب أن يعلم أنه لم يصدر من احتقار لشخصيته، وليس تنفيسًا عن غضب والده أو والدته نتيجة خطأ ارتكبه، إنّما هو اقتناع منهما بأنه وسيلة للتقويم والتهذيب.

فإن لم يعش المؤدبُ هذا الشعور فلن يؤدي التأديب وظيفته ومقصده، بل سيتحول إلى مخزون من السخط والكراهية لمن مارس التأديب في حقه، وربما قاده إلى الانتقام منه وتجاوز حدود الأدب الذي يفرضه الشرع وحق الأبوة.

ومما يولد الشعور السلبي والتفسير الخاطئ للعقوبة لدى المؤدَّب أن يُصَحبَ التأديبُ بعبارات اللوم والتوبيخ والتقريع، وهو ما نهى عنه ﷺ.

إنّ كثيرًا من الخطايا والمخالفات التي يُعاقب عليها الأولاد بالضرب من والديهم هي دون خطيئة هذه الأَمَة، ومع ذلك أمر ﷺ بالاحتفاظ بحقها، ونهى عن أن يُصحَبَ الحدُّ الشرعي المقام عليها باللوم والتقريع.

وحين يتجاوز بعض أصحاب النبي ﷺ هذا التوجيه النبوي؛ فإن المربي الأول ﷺ ينهاهم عن ذلك مبينًا الأثر الذي يتركه هذا التجاوز على من أُقيمت بحقه العقوبة؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ برجل قد شرب، قال: اضربوه.

قال أبو هريرة: فمنّا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه.

فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله. قال ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان» (رواه البخاري ٦٧٧٧).

إنّ العقوبة حين تُصحَب بما يُوغِر الصدر تَصرِفُ المعاقبَ عن خطئه إلى لوم من قام بعقوبته، وكلما تكررت العقوبة التي تفقد الشروط التربوية في ممارستها زادت من تراكم هذه المشاعر السلبية، وزادت من تسلُّط الشيطان على صاحبها.

وقد أشار الحديث إلى نوعٍ من العقوبة كثيرًا ما يغفل عنه الناس؛ ألا وهو العقوبة النفسية؛ فبعضهم حين يسمع الحديث عن العقوبة تنصرف إلى ذهنه العقوبة البدنية والضرب، بينما تمثّل العقوبة النفسية التي نهي عنها في هذا الحديث جانبًا ربما كان أبلغ أثرًا.

إنّ من الآباء من تتكرر على لسانه عبارات اللوم والتقريع والتوبيخ لأولاده

بين وقت وآخر، فيسمعونها حين الحديث عن التحصيل الدراسي، وحين الحديث عن المواقف الاجتماعية، وحين الحديث عن الصحبة والأصدقاء.

إنّ هذه العبارات تصدر من رغبة صادقة في تغيير واقع الأبناء وتقويم سلوكهم، لكنها بعد ذلك تفقد قيمتها وتتحول إلى لون من ألوان صناعة الإحباط واليأس من النفس لدى الأولاد.

وحين تتجاوز العقوبة النفسية حدّها التربوي الفاعل فستسهم في رسم صورة سلبية للفرد، ويصدّق ما يقال عنه؛ فيفقد ثقته بنفسه، ويشعر بأنه تحول إلى كائن لا يستحق الاحترام والتقدير، وهذا مما يعوقه عن النهوض وتجاوز الكبوات.

وفي جانب آخر فقد يحيل الأمر إلى والديه، فيختزن في نفسه ألوانًا من الحقد والكراهية تجاههما، ويفقد في نفسه مشاعر الود والوفاء القلبي لهما فضلاً عن البر والصلة، وحين يكون في مرحلة الطفولة قد يعجز عن التنفيس عن هذه المشاعر السلبية فتجتمع لديه وتتراكم حتى إذا وصل إلى مرحلة المراهقة انفجرت كالبركان الذي يدمِّر ما حوله.

وكثيرًا ما سمعنا عن مظاهر من العقوق تتجاوز حدود المنطق، وتذهل أولي الألباب، وحين نبحث عن تفسيرها نجد أن عددًا منها كان مصدره هذه المشاعر المتراكمة لدى العاقّ نتيجة أساليب تأديب غير تربوية.



غارت أُمكم

تحدثنا فيما سبق عن بعض ما ينبغي أن يُراعَى حين تصحيح الأخطاء، إمّا بالعلاج غير المباشر، أو ترك اللوم والتعنيف، أو علاج أسباب الخطأ ومصادره.

وقد تكون بعض الأخطاء ذات طبيعة معينة فلا تقتضي الوقوف عندها؛ إذ صاحبها قد أدرك ذلك أو سيدركه.

لقد كان ﷺ ينهى أصحابه عن الخطأ، وربما غضب وأغلظ على بعضهم، وربما عاقبهم على ذلك.

لكنه في أحوال أخرى قد يُغضي عن الأمر، ويرى أن الموقف لا يقتضي الحساب والمعاتبة؛ فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَةٍ فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يدَ الخادم فسقطت الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فجمع النبي ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصَّحْفَةِ ويقول: «غارت أُمكم»، ثم حبس الخادم حتى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ من عند التي هو في بيتها، فدفع الصَّحْفَةَ الصحيحة إلى التي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَتْ. (رواه البخاري ٥٢٢٥).

وجاء في رواية الترمذي (١٣٥٩) أنّ التي كسرت القصعة هي عائشة ﷺ. وفيه: «فضربت عائشة القصعة بيدها». وفي رواية أحمد (١١٦١٦): «أظنها عائشة».

وقد ذهب بعض شُرّاح هذا الحديث إلى أنّ المقصود بالأم التي غارت هي سارّة زوج إبراهيم -عليه السلام-، واستبعد ابن حجر هذا التأويل، فهو خلاف ما عليه

جمهور الشرّاح، ثم إنّ أم العرب هاجر وليست سارة، ويبعد أن يكون هؤلاء من بني إسرائيل.

وقال -رحمه الله-: «وعلى هذا حمله جميع مَن شرح هذا الحديث، وقالوا: فيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغيراء بما يصدر منها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة، وقد أخرج أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعًا: إنّ الغيراء لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه». (فتح الباري ٩/ ٣٢٥).

ونص هذا الحديث عند أبي يعلى: عن عائشة أنها قالت: وكان متاعي فيه خفّ، وكان على جمل ناج، وكان متاع صفية فيه ثقل وكان على جمل ثقال بطيء يتبطأ بالركب، فقال رسول الله ﷺ: «حوِّلوا متاع عائشة على جمل صفية، وحوِّلوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب»، قالت عائشة: فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله؛ غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا أم عبد الله، إن متاعك كان فيه خفّ، وكان متاع صفية فيه ثقل، فأبطأ بالركب فحوّلنا متاعها على بعيرك وحوّلنا متاعك على بعيرها». قالت: فقلت: ألست تزعم أنك رسول الله؟ قالت: فتبسم. قال: «أو في شك أنت يا أم عبد الله؟» قالت: قلت: ألست تزعم أنك رسول الله؟ أفهلا عدلت؟ وسمعني أبو بكر وكان فيه غرب أي حدَّة، فأقبل عليّ فلطم وجهي. فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا أبا بكر. فقال: يا رسول الله؛ أما سمعت ما قالت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه». (مسند أبي يعلى ٨/ ١٢٩. حديث رقم ٤٦٧٠).

إنّ الخطأ قد يكون مصدره حالة يمر بها الشخص سيطرت عليه، وأدت إلى مثل هذا الخطأ، وقد يكون نتيجة ظروف نفسية واجتماعية، أو ردة فعل تجاه أزمة واجهها.

إنّ الكلمة غير اللائقة حين يقولها أحد أولادنا المراهقين نتيجة غضب استولى عليه ليست كتلك التي يعتاد عليها ويرددها في كل موقف.

وحين تطلب الأم من أولادها إنجاز مهمة ما فليس من حسن التربية أن تحاسبه على كل تقصير أو خلل.

فها هو المربي الأول ﷺ يعيش مع أهل بيته خلاف ما نعيشه نحن مع أطفالنا، فعن أنس ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، لا والله، ما سبّني سبة قط، ولا قال لي: أفّ قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته. (رواه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩).

وفي رواية أحمد: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحدٌ من أهل بيته إلا قال: «دعوه، فلو قُدِّر، أو قال: لو قُضِيَ أن يكون». (مسند أحمد ١٣٠٠٥).

وأحيانًا يتجاهل المربي الخطأ؛ لأنه يرى أن الواقع فيه سوف يتجاوزه، فهو مجرد انفعال مع موقف غلبت فيه الطبيعة البشرية فقادت لذلك.

ومن ذلك موقف النبي ﷺ مع أبي بكر ﷺ؛ فقد غضب أبو بكر من غلامه لما أضاع الراحلة التي عليها زاد طريقهم إلى الحج؛ فعن أسماء ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجاجًا، حتى إذا كنا بالعَرْج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي، وكانت زمالة رسول الله ﷺ وزمالة أبي بكر واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ قال قد أضللته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تضلّه! فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسّم ويقول: «انظروا إلى هذا المُحْرِم وما يصنع!» (رواه أحمد ٢٦٣٧٦، وأبو داود ١٨١٨، وابن ماجه ٢٩٣٣).

ومصدر هذا الإغضاء عن خطأ أبي بكر ﷺ ليس مجرد صورة الفعل المتمثلة في ضرب الخادم، فحين تكرّر هذا الضرب في موقف يختلف عن هذا الموقف كان له ﷺ شأن آخر؛ فعن أبي مسعود البدري ﷺ قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب. قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ. فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود؛ اعلم أبا مسعود» قال: فألقيت السوط من يدي. فقال: «اعلم أبا مسعود؛ أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. (رواه مسلم ١٦٥٩).

لقد كان موقف أبي بكر ﷺ يقتضي التجاهل، وموقف أبي مسعود ﷺ يقتضي الوعظ والتنبيه على هذا الخطأ، وكلاهما موقف تربوي ملائم في سياقه، وهكذا المربي لا يملك أسلوبًا واحدًا ونمطًا مكررًا من العلاج.

وفي مواقف أخرى يحتاج أولادنا منا -بدلاً من اللوم والتوبيخ على الوقوع في الخطأ-، إلى أن نفسّر لهم أسباب وقوع الخطأ منهم، وأننعينهم على ألا تتحوّل التجربة التي أخطأوا فيها إلى حكم جائر على أنفسهم بالفشل والإخفاق.

فربما كان مصدر الخطأ عاملاً طبيعيًا لا يفقهه أولادنا، ومن ذلك على سبيل المثال: ما يحصل من المراهق - فتىً أو فتاة - حين يحمل إناء فيسقط منه؛ إذ ذلك في الغالب يكون نتيجةً لفقدان التوازن في النمو الجسمي الذي قد يوجد في بداية المراهقة.

فوظيفة المربي في هذا الموقف أن يشرح له أسباب هذا الخطأ، لا أن يلومه ويعنّفه متهمًا إيّاه بالطفولة.

وقد تكون حاجته لنا متمثلة في اقتراح وسائل وأدوات للتعامل المستقبلي مع الموقف بما يحول دون تكرار الخطأ مرة أخرى.

وربما كان مصدر الخطأ من أولادنا: إيغالهم في النظر إلى جانب وإهمال آخر؛ فالسائق الذي ينشغل بمتابعة من خلفه بالمرآة سينشغل ويغفل عن متابعة الطريق أمامه.

وحينها تكون وظيفة المربي تصحيح مسار التفكير، وتزويد ولده بالأدوات الصحيحة التي تُكسبه القدرة على التعامل المستقبلي مع المواقف بصورة أفضل.

وقد تكون حاجته لنا متمثلة في اقتراح وسائل وأدوات للتعامل المستقبلي مع الموقف بما يحول دون تكرار الخطأ مرة أخرى، أو أن ننقل الحديث والحوار إلى ما ينبغي عمله لترميم آثار الخطأ بعد وقوعه، بدلاً من اللوم على وقوعه.



الخطأ لا يلازم صاحبه

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الْحُرَقَةِ فَصَبَّحْنَا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غَشِينَاهُ قال: لا إله إلا الله، فَكَفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» قلت: كان مُتَعَوِّذًا! فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (رواه البخاري ٤٢٦٩، ومسلم ٩٦).

أورد البخاري -رحمه الله- هذا الحديث في باب: (بعث النبي ﷺ أسامة إلى الحرقات من جهينة)، ثم أورد بعد هذا الحديث بسنده قول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات، مرة علينا أبو بكر، ومرة علينا أسامة». (رواه البخاري ٤٢٧٠).

لقد كان ﷺ مربيًا عظيمًا يدرك أن أصحابه حين يقع أحدهم في الخطأ ويُنبَّه عليه فإنّه سيتجاوزه، لذا وبعد هذه الواقعة أمَّر ﷺ أسامةَ على جيش أكبر من ذلك، ألا وهو الجيش الذي سيغزو الروم، وشعر بعض الناس أنّ هذه المهمة ربما ينوء بها أسامة بن زيد رضي الله عنه، وأنّه لو وُلّيَ غيره كان أولى، فبيَّن النبي ﷺ أنّ أسامة مستحقٌّ لها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ بعث بعثًا وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وَأَيْمُ اللَّهِ، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده». (رواه البخاري ٤٤٦٩، ومسلم ٢٤٢٦).

إنّ الأخطاء الكبيرة والعظيمة تترك أثرها في نفوس أصحابها، وتترك أثرها في نفوس المربين، فربما شعر من يقع في الخطأ أنه دليل على فشله وإخفاقه، وكلما فكّر في النهوض والتعافي بدا ذلك الخطأ الجسيم وما ارتكبه من قبل أمام ناظريه، فعاقه عن النهوض والارتقاء بنفسه.

إن المخطئ يحتاج منا إلى التنبيه على الخطأ، وربما احتاج إلى اللوم والعقوبة، وفي حالات ليست قليلة نرى أن شعور المخطئ بفداحة خطئه أقل مما ينبغي، وأنه محتاج بأن نغلظ الأمر في حقه، لكن هذا ليس بالضرورة هو الخيار الأنسب في كل موقف ومقام.

وحين نحتاج لذلك ونشعر بتهاون المتربي في الخطأ وقلة شعوره بفداحته؛ فلا يعني ذلك أن يصاحبنا هذا الشعور، إن المتربي كما يحتاج إلى إدراك حجم الخطأ يحتاج أيضًا إلى الشعور بقدرته على تجاوزه وتدارك الأمر، وإلى توظيف الخطأ في إصلاح النفس وسياستها مستقبلاً، لا الشعور بالإخفاق والإحباط، وقد يبدو لنا أن الإحباط واليأس باعث على التغيير، لكن الأمر ليس كذلك.

القلق على الخطأ والشعور بفداحته مطلب مهمّ، وخطوة تبعث على العلاج والحزم مع النفس، لكن حين يمتد إلى القلق واليأس تختلف الصورة، ويتحوّل الأمر إلى مثبِّط وعائق بدلاً من أن يكون حافزًا وباعثًا.

وقد يشعر الواقع في الخطأ أنه سيتجاوزه -بإذن الله-، بل يرى أنه قد غيَّر من حياته وصحَّح من واقعه، لكن:

من يقنع الناس أني لم أكن ذلك الإنسان؟

من يقنع الناس أني الآن خير مني قبل أن أرتكب ذلك الخطأ؟

ومن يقنع الناس أن هذا الخطأ أصبح جزءًا من التاريخ والماضي، وأن أثره الإيجابي على نفسي ربما فاق فداحة الخطأ؟

إن نفوس الناس أوسع وأعقد من أن نختزلها في موقف أو موقفين.

البعض يحلو لهم أن يتخذوا من مواقف محدودة رأوها من الآخرين معيارًا في تقويمهم، فلا يرى فيهم إلا هذه الصورة!

ألسنا نشكِّل مواقفنا عن بعض مَن لم يُتَح لنا معهم إلا لقاء عابر؟

أليست هذه المواقف التي صنعناها من هذا اللقاء قد اتسعت وتضخَّمت حتى صارت مرآة لا ننظر لهم إلا من خلالها؟

بل قد نكذِّب ما يقوله الآخرون عنهم بحجة أنا رأينا منهم ذلك الموقف، وقد نقلّل من شأن ما نراه منهم من مواقف أخرى إيجابيَّة، بحجة هذا الموقف السلبي الذي قد غدا محورًا نفهم كل شيء ونقيس كل شيء من خلاله وحده؟

إن الأمر حين يتصل بمن نربيهم فإننا نخسر كثيرًا؛ نخسر حين نختزل جوانب الإضاءة والإشراق في تلك النفوس في هذا الخطأ العابر، ونخسر حين نلغي جوانب التميُّز والتفوق وندفنها في هذا الموقف الذي أخفقوا فيه.

إننا قد نحتاج مرة أو مرتين لعتاب أولادنا وإشعارهم بفداحة أخطائهم، لكننا نحتاج أكثر منها إلى أن نشعرهم -بشكل مباشر أو غير مباشر- أننا سنؤمن أنهم قادرون على تجاوز هذه الأخطاء والتخلي عنها، وأنها لم تعد تلازمهم كأسمائهم وأوصافهم.

إن هذا الإشعار يمكن أن يتم من خلال مواقف عدة؛ منها:

- أن يرى أحدهم في تعاملنا معه ما يُشعره عمليًا بذلك، وهذا ما فعله النبي ﷺ مع أسامة ﷺ حين ولّاه مسؤولية الجيش بعد سنوات يسيرة من ذلك الخطأ الذي أغلظ عليه فيه، وهكذا سيشعر ﷺ أنه لا يزال موضع الثقة والأمانة لدى رسول الله ﷺ.
- أن نتجنّب تكرار تذكيره بالخطأ، والحديث معه في ذلك، أتذكر يا عبد الله أنك فعلت كذا وكذا قبل أيام؟ وقبل سنوات فعلت كيت وكيت؟.. إلى آخر هذه القائمة التي نصبّح ونمسّي أولادنا بها.

حين تمر هذه الأيام والسنوات ولم يستطع الابن تجاوز الخطأ والتخلي عنه فلن يكون تكرار اللوم والتذكير حلاً أو بلسماً شافيًا يعين على تجاوز هذا الخطأ.

- أن نتجنب التلميح الذي نظن أنه لا يعيه ويفهمه، وربما كان أكثر منا وعيًا بالتلميح الذي نحدثه من خلاله عن أخطاء الآخرين، قائلين له بلسان الحال: إيّاك أعني!

نعم إن التلميح مفيد، وهو من منهج الكرام، ولكن حين يكون تذكيرًا بالأخطاء وتعدادًا لها يفقد وظيفته.

إنّ فتح الشرع لباب التوبة للناس وحفزهم على ذلك دليلٌ على طبيعة الإنسان المتمثلة في الوقوع في الخطأ، وطبيعته المتمثلة في قدرته على تجاوز أخطائه واستيعابها.

ولو كانت الأخطاء جزءًا من شخصية الإنسان لا تفارقه لم تكن التوبة بهذا القدر من الاتساع.

إنه ليس من الصواب أن نهوّن الأخطاء عند أولادنا، ولا أن نشعرهم بأن مجرّد انتهاء ممارسة العمل الخاطئ كافٍ لغلق تلك الصفحة وتجاوزها.

وليس من الصواب أن نزيل من أذهانهم استعظام ما يستحق التعظيم، وفي المقابل فإلصاق الأخطاء بحياتهم وسيرتهم هو الآخر مسلك لا يليق فضلاً عن أنه لا يحقّق البناء الذي ننتظره لشخصياتهم، ولهذا كان النبي ﷺ بعيدًا كل البعد عن ذلك.



دلوني على قبره

لقد كرَّم الله -تبارك وتعالى- الإنسان؛ كرّمه حين خلقه بيده، وكرّمه حين أسجد له ملائكته، وكرّمه حين أخرج إبليس من الجنة، فاحتج الشقي على ربه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢)، وقال -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وهذا التكريم لا بد أن يظهر أثره على المنهج التربوي، فيبدو سمة بارزة نقرأها في كل عمليات التربية ومراحلها.

وقد كان هذا المعنى بارزًا في التربية النبوية، وكيف لا، وقد كان ﷺ أحسن الناس خُلقًا؟

لقد اختاره -تبارك وتعالى- وهو أعلم بخلقه، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وشهد له -عز وجل- بحُسن خلقه وزكّاه؛ فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤).

ومما كان يعنى به ﷺ في تعامله مع الناس إعطاء الكرامة للإنسان، فلم يكن الأمر قاصرًا على مجرد مراعاة هذا الاعتبار في تعامله مع الآخرين، بل كان ﷺ يبني الكرامة لدى الآخرين، وكان يُشعرهم بقيمتهم ومنزلتهم.

عن أبي هريرة ﷺ: أنّ رجلاً أسود أو امرأة سوداء كان يَقُمّ المسجد فمات،

فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات. قال: «أفلا كنتم آذنتموني به؟ دلُّوني على قبره، -أو قال-: قبرها»؛ فأتى قبرها فصلى عليها. (رواه البخاري ٤٥٨، ومسلم ٩٥٦).

وتبيِّن إحدى الروايات أن الذي منع الصحابة -رضوان الله عليهم- من إخباره ﷺ بشأنه هو نظرتهم لمنزلة ذلك المتوفَّى، فجاء في رواية للبخاري (١٣٣٧): فقال: «ما فعل ذلك الإنسان؟ قالوا: مات يا رسول الله. قال: «أفلا آذنتموني؟» فقالوا: إنّه كان كذا وكذا قصته. قال: فحقَّروا شأنه.

لقد غادر هذا الرجل الحياة الدنيا، ولم يعد يشعر بقيمة اعتناء النبي ﷺ به، ولن يدرك هذا الاهتمام الذي ربما لم يكن يتوقعه، لكن يبقى هذا الموقف أمام الأجيال على مرّ التاريخ.

يبقى الموقف ليقرأوا فيه: كيف كان هذا الرجل المبارك ينظر إلى الإنسان؟

بل كيف كان يبني الإنسان؟

يبقى هذا الموقف يقرأه الآباء والأمهات، ويقرأه المعلمون والمصلحون، ويقرأه الرؤساء والمرؤوسون، ويقرأه الولاة والرعاة، يقرأه كل مسلم، ويقرأ معه: كيف ينبغي أن ننظر إلى الإنسان؟

ربما لم يترك هذا الموقف أثره على ذلك الميت في دنياه، وإن كان نال من بركة دعاء النبي ﷺ ما فات الكثير من الناس، لكنَّ هذا الموقف ترك أثرًا على أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى من بعدهم، وعلى الأمة كلها.

إنَّ الشعور بكرامة الإنسان ومنزلته يترك أثره على التربية بكافة عملياتها ومراحلها، فنراه في الأهداف التربوية التي تسمو بالإنسان، والتي تنظر له النظرة اللائقة به، وتسعى مع ذلك لإشعاره بتلك الكرامة والمنزلة وترسيخها لديه.

لقد كرَّم الله -تبارك وتعالى- الإنسان، وحدثنا -سبحانه وتعالى- عن هذا التكريم، وخلقُ الله -تبارك وتعالى- يتّسق مع أمره وشرعه.

إنّ خلقه -عز وجل- لا يتناقض ولا يختلف مع شرعه، فما دام الله -تبارك وتعالى- قد خلق الإنسان لعبادته -عز وجل-، واستعمره في هذه الدنيا، فإن شعور الإنسان بالكرامة وتنميتها لديه سيكون مطلبًا مهمًا للقيام بهذه الوظيفة والمهمة.

وكما يظهر تكريم الإنسان في أهداف التربية، فهو يظهر أيضًا في تعامل المربي مع المتربين، يظهر في حواره وحديثه الذي يبدو فيه التكريم اللائق بمن يربيه، سواء أكان المستمع فردًا أو جماعة.

فالخطيب والمحاضر والمحاور الذي يدرك قيمة الإنسان وكرامته، ويحرص على تنميتها وتعزيزها يهتم باختيار ألفاظه وكلماته، ويبتعد عن التلفظ بما لا يليق بالمستمع، أو يهدر قيمته.

ويظهر التكريم أيضًا حين يحتاج المربي للوم والعتاب، فوقوع أولادنا أو طلابنا ومستمعينا في خطأ أو غفلة لا يبرر لنا أن نطلق العنان لألسنتنا للتعبير عن موقفنا الذي يعلو فيه صوت اللوم، وربما الانتصار للنفس، أكثر من صوت التربية والتوجيه، أو الإيمان بأن هذه الخطوة ستقود نحو الإصلاح والتسديد، وحين لا يقف الأمر عند اللوم، بل تصبح العقوبة البدنية هي الخيار المناسب للتقويم والتسديد، فهذه العقوبة لا بد أن تتم في إطار لا يلغي شعور الفرد بكرامته وقيمته، فلا يقرأ وهو يتلقى العقوبة في قسمات وجه من يعاقبه الاحتقار والتهوين من شأنه.

ولا تُصحَب هذه العقوبة بألفاظ تجرح الكرامة وتحطُّ القيمة، وقد نهى ﷺ عن ضرب الوجه فقال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه».

(رواه البخاري ٢٥٦٠، ومسلم ٢٦١٢).

وجاء ذلك أيضًا في حق الزوجة على زوجها؛ فعن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت أو اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبّح، ولا تهجر إلا في البيت» (رواه أبو داود ٢١٤٢، وابن ماجه ١٨٥٠).

إنّ الاعتناء بتنمية الشعور بالكرامة لدى الفرد يترك آثارًا إيجابية في بناء شخصيته، فهو ينمي لديه العديد من الأخلاق الإيجابية الحسنة؛ كالشعور بعزة النفس، وترفُّعها عن الدنيا وسفاسف الأمور، وهي العزة الإيجابية لا العزة التي ترفع الإنسان لمواقف المتكبرين. وقد يحلو لبعض منا أن يرى أولاده أو تلامذته في قمة الإصغاء والاستسلام له ولتوجيهاته، وألا يسمع منهم نقاشًا أو اعتراضًا، وربما لا يمارس التفكير في غير ما يقول.

إنّ ذلك قد يسهّل الانقياد، لكنه يبني نفوسًا خانعة خاضعة.

وما أجمل أن نربي أبناءنا على الأدب مع الآخرين!، وعلى سمو الأخلاق، والتقدير والتوقير لهم، وفي الوقت نفسه على الشعور بعزة النفس وقيمتها.

وأيضًا؛ فإن الاعتناء بتنمية شعور الفرد بالكرامة ينمّي ثقته بنفسه، ويزيد شعوره بقدرته على النجاح والإنجاز في مجالات الحياة.

إننا نتكلّم عن تلك الثقة التي لا تقود إلى تزكية النفس وتبرئتها من العيوب، لكنها تلك الثقة التي يشعر صاحبها من خلالها أنّه قادر على الإنتاج، قادر على العطاء والتأثير.

إنّ بناء الإنسان المُنْتج والمجتمع المُنْتج يحتاج إلى حُسْن بناء للنفوس، وإلى الشعور

بقدرتها على العطاء والنماء ونفع نفسها والآخرين، وحين نعي هذا المعنى ندرك أنه من الخطأ لجوء بعض المربين إلى أساليب تحطُّ من قيمة أولادهم وطلابهم.

إن مثل هذا الأسلوب يترك نُدوبًا في الشخصية، وهذه النُّدوب قد تبقى وتترك آثارها عليهم وهم آباء وأجداد، وقد يغرس لديهم انطباعًا بقلة قيمتهم وكرامتهم، وهذا قد يقودهم إلى أن يسوّغوا لأنفسهم أعمالاً لا تليق بأمثالهم، أو قد يقودهم إلى الشعور بأن الآخرين يحتقرونهم ولا يعرفون قدرهم ومنزلتهم مما يؤدي إلى ترسيخ مساوئ الأخلاق ومعايب الصفات لديهم، فيكبرون ويكبر معهم احتقار الآخرين، تنمو أبدانهم، لكن نفوسهم تعود إلى الوراء، وتنظر شزرًا وحقدًا لمن ترى أنهم كانوا سببًا في إهانتها ووأد كرامتها.

وثمة عبرة أخرى في هذا الموقف النبوي:

إنه موقف عجيب؛ حين نراه من صاحب الرسالة، هذا الرجل الذي يحمل أكبر قضية يمكن أن يحملها إنسان، ويعيش لفكرة لا تساويها فكرة يعيشها مخلوق.

يشعر بعض الناس أنهم يحملون قضايا كبرى، وأنهم يفكرون في مستوًى أعلى مما يفكر فيه الآخرون، وعلو الهمة أمرٌ مطلوب، والواقع الذي تعيشه الأمة اليوم ومجتمعات المسلمين بحاجة إلى فئة من هؤلاء.

ومما لا شك فيه أن من أزمات المسلمين اليوم اهتمامهم بالقضايا الهامشية والهزيلة، ومن أزماتهم أن ترى الكبار ينشغلون بما لا ينبغي أن ينشغل به من هو دونهم من الآخرين فضلاً عن أمثالهم.

إننا بحاجة للارتقاء باهتماماتنا وقضايانا، وبحاجة إلى أن يدرك الناس اليوم

أنّ واقع الأمة يتطلب نفوسًا عالية، ويتطلب إنجازات تتلاءم مع التحدّي الذي تعيشه.

التحدّي في ميدان تصحيح الاعتقاد ونشر أحكام الشريعة.

والتحدي في ميدان الحضارة والبناء المادّي الذي تحتاجه الأمة، وهو يمثّل جزءًا من مقوّمات وجودها.

لكننا مع ذلك بحاجة إلى أن نتوازن ونعي طبيعة الناس وخصائصهم.

ها هو النبي ﷺ الذي لن يدّعي أحد أنه يحمل قضية أكبر من قضيته أو فكرة أكبر من فكرته، كيف لا وهو يحمل رسالة الهداية للبشر أجمع، بل للجن والإنس، وهي الرسالة الخاتمة؟

يحمل ﷺ الدعوة والرسالة التي لن يقف أثرها عند جيله ومعاصريه، بل تمتد ويظهر أثرها عبر التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ها هو ﷺ يُكبِر عمل مَن كان يَقُمّ المسجد وينظِّفه، وقد استهان بعمله الآخرون، فموقعه الاجتماعي ونسبه لم يكونا رفيعين، ومهمته وعمله لم يكونا ذا بال لديهم. أما هو ﷺ فرأى في الأمر رأيًا آخر، فسأل عن قبره أو قبرها، وصلى عليه، وعاتبهم إذ لم يُعلِموه حتى يصلي عليه وقت صلاة الناس ويشهده معهم.

إنّ المجتمعات بحاجة إلى المفكرين، وبحاجة إلى العظماء، وبحاجة لمن يعملون أعمالاً جليلة، فكلما زادت التحديات والأزمات زادت معها شروط التأثير ومستويات التميز فيما يقدم فيها من أعمال، لكنها مع ذلك كله لن تضيق عن أمثال هؤلاء، لن تضيق عن أمثال من يحمل العزيمة والجد والإصرار في أن يقدم خيرًا لمجتمعه أيًا كان هذا الخير.

ليس صحيحًا أن نعيب مَن نصنّفهم أنهم بسطاء ومحدودو التفكير؛ أن نعيبهم حين يجتهدون في تقديم ما يستطيعون وما يتقنون من أعمال، أو في عرض ما يحسنون من أفكار أو رؤى، بل هم بحاجة لأن يأخذ الكبار والعظماء بأيديهم، وأن يثمِّنُوا جهدهم وإنجازهم، وأن يُفتح لهم المجال والآفاق ليسهموا في تقديم الخير للناس.

إن الصادق من أمثال هؤلاء يقدّم لأمته ومجتمعه إسهامًا قد لا يقدّمه غيره، ويسد ثغرة قد لا يسدها غيره، فالمهمة التي يقوم بها قد يستثقلها كثير ممن هو قادر على ما هو أعلى منها، وقد لا تجد من يتوفر لها ويُعْنَى بها.

إنّ الصادق من هؤلاء قد يرحم الله به الأمة وينفعها به.

عن مصعب بن سعد قال: رأى سعدٌ ﷺ أنّ له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: «هل تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إلا بضعفائكم؟» (رواه البخاري ٢٨٩٦).

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغُونِي ضعفاءكم؛ فإنما تُرْزَقُونَ وتُنْصَرُونَ بضعفائكم».

(رواه أحمد ٢١٢٢٤، وأبو داود ٢٥٩٤، والترمذي ١٧٠٢، والنسائي ٣١٦٩).

يُغرِق بعض المتحدّثين في الإصرار على مطالبة كل الناس بالعمل النوعي المميز، فيصد بذلك من لا يطيق تلك الأعمال، ويصرفهم عما يحسنون، فلا هو سدَّ ثغرة، ولا قَدم خيرًا، ولا كفَّ عن تعويق العاملين بما يحسنون.

وماذا عسى أن يقول أمثال هؤلاء – وكثير منهم لا ينقصه حسن النية – لمن كان شغله وهمّه تنظيف المسجد، أو ما قاربه من عمل؟

علينا أن نعي أنّ الناس مراتب وطاقات وإمكانات، ولن يكون أولادنا وتلامذتنا جميعًا على ما نتمنى، وعلى ما نريد، فلنسعَ إلى التعرف على ما يطيقون ويحسنون، ونحفّزهم على ذلك.

إنهم بحاجة إلى أن يسمعوا منّا أنهم يصنعون عملاً ذا قيمة، كيف لا والجزاء المنتظر إنما هو من عند الله الكريم المتفضل.

إنهم بحاجة لأن يسمعوا الترحيب والإشادة بالعمل المنتج الذي يقود خطوة أو نصف خطوة للأمام. وهم بحاجة إلى أن يسمعوا منّا كثيرًا: أن مجالات الإسهام في الخير والنفع مجالات متنوعة ومتعددة، وأن أيّ ميزة يملكها إنسانٌ يمكن أن تتحول إلى طاقة منتجة، وإلى مجال يقدم الخير من خلاله لمجتمعه وللآخرين.

إن الابن الذي يزعجنا بثرثرته وحديثه يمكن أن يؤدي دورًا مهمًّا في الترحيب بالضيوف واستقبالهم، والذي يزعجنا بحركته الزائدة وعدم قدرته على الاستقرار يمكن أن يفيدنا في أداء مهمات قد يتثاقل عنها من هو أكثر منه ذكاءً واجتهادًا في دراسته، لكنه كسول.

وهم بحاجة إلى أن نقترح عليهم البرامج والأفكار والوسائل التي يجيدون ويطيقون أن ينتجوا من خلالها.

إننا بحاجة إلى أن نحوّل مجتمعاتنا إلى طاقات مُنتِجة فاعِلة، ولو وُفِّقنا في الأسلوب التربوي الملائم في تحفيز الناس ووضع أيديهم على مجالات العمل لَوَلَّدنا طاقات هائلة، وهذا لا يعني أن نهمل العناية بالعمل النوعي والمتميز، لكنه يجدي حين يوجّه لمن يَعُونه، ويجدي حين نكون قادرين على تقديم نماذج عملية واقعية لا مجرد أمنيات فقط.

يجدي حين نخاطب به مَن ينتقل إليه، لا من يكون مقيماً على ما لا يروق لنا من عمل منتج، فيتركه إلى لا شيء؛ لأننا استخففنا بهذا الأمر وهوَّنّا من شأنه.

إنّنا بحاجة إلى أن نحفِّز الناس وندفعهم إلى أن يعملوا، وأن ينتجوا فيما يطيقون وما يستطيعون. إننا بحاجة إلى أن يدركوا منّا أننا نُثمِّن ما يعملون، وما يسعون إليه، وإن كنا نرى أنّ هذا لا يليق بنا؛ فهو يليق بأمثال هؤلاء.



ولو كان حيًا وأدرك نبوتي

عن جابر بن عبد الله ﷺ، أنّ عمر بن الخطاب ﷺ أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة. فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغيّر. فقال أبو بكر: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ، فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ﷺ، رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده؛ لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوتي لَاتَّبَعَنِي» (رواه الدارمي ٤٣٥).

وعنه ﷺ أنّ عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب، فقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده؛ لو أنّ موسى ﷺ كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني» (رواه أحمد ١٤٧٣٦).

قال ابن حجر -رحمه الله-: «ورجاله مُوَثَّقُونَ إلا أنّ في مُجَالِد ضعفًا.

وأخرج البزار أيضًا من طريق عبد الله بن ثابت الأنصاري: أنّ عمر نسخ صحيفة من التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء». وفي سنده جابر الجعفي، وهو ضعيف، واستعمله في الترجمة -يقصد البخاري- لورود ما يشهد بصحته من الحديث الصحيح.

وأخرج عبد الرزاق من طريق حريث بن ظهير قال: قال عبد الله: لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم؛ فتكذِّبوا بحقّ أو تصدّقوا بباطل.

وأخرجه سفيان الثوري من هذا الوجه بلفظ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا؛ أن تكذِّبوا بحق أو تصدِّقوا بباطل». وسنده حسن». (فتح الباري ١٣/ ٣٣٤).

في هذا الموقف النبوي يوجّه المربي الأوّل ﷺ أصحابه وأمته إلى منهجية التعامل مع مصادر المعرفة الشرعية.

ومصادر المعرفة والتعامل معها كان ولا يزال من أهم مجالات البحث والنقاش لدى كثير من الفلسفات القديمة والمعاصرة.

إنّ المسلمين أجمع يؤمنون بصحّة الكتاب والسُّنَّة كمصدرين صحيحين، ولا ينازعون في أمر سيادتهما، لكنّ الخلل يأتي في التعامل مع التطبيقات والتفاصيل.

والمتأمل في واقعنا يرى صورًا من الخلل في التعامل مع مصادر المعرفة الشرعية.

إنّ التوراة في أصلها كلام الله -عز وجل-، وبنو إسرائيل أمّة ذات رسالة ربانية، وحتى لو لم يرد التحريف للتوراة والإنجيل، ولو لم يبدّل بنو إسرائيل ويحرِّفوا ما أنزل الله إليهم، لو لم يحصل شيء من ذلك؛ فهذا كله منسوخ ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم.

وحتى لو أنّ نبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام- حضر زمان النبي محمد ﷺ لما وسعه إلّا أن يتَّبع مَن صلَّى خلفه ليلة الإسراء.

وكذلك في آخر الزمان؛ حينما ينزل عيسى -عليه السلام-؛ فإنّه يضع الجزية، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويحكم بشرع محمد ﷺ.

إنّ من صور الخلل في التعامل مع مصادر المعرفة أن نجعل واقع بعض المسلمين معيارًا يُستند إليه في تقرير الأحكام الشرعية.

رجل يحمل أعلى شهادة علمية يكتب مقالة صحفية داعيًا إلى الاهتمام بنوع معين من الآثار، ثم يستشهد بما يراه في كثير من بلاد المسلمين من اعتناء بالأضرحة والمزارات؛ بناءً وتشييدًا، أو تعريفًا، أو تسهيلاً لطرق الوصول إليها!

وينبري آخر ليشنَّ حملة على بعض مظاهر الحجاب، وما ذاك إلّا لأنّه رأى في دولة إسلامية أخرى مظاهر للحجاب تخالف ما رآه في دولته!

وثالثٌ يستشهد على جواز المعازف بما كانت تفعله إحدى العجائز... إلخ.

إنّ هذه المقولات حين تَرِد من رجل عامّيّ أو جاهل لا تُستنكَر أو تُستغرَب، أمّا أن تَرِد ممن تعلموا في أرقى الجامعات، وتخرَّجوا وهم يحملون أعلى المؤهلات والدرجات العلمية؛ فهذا أمرٌ يقودنا للتساؤل: أين دور التربية؟!

إنّنا لا نفترض في كل متخصِّص أن يكون عالمًا بتفاصيل الأحكام الشرعية، ولا نتوقع من كل مثقّف أن يكون مُلِمًّا بأصول الدين وفروعه.

لكننا نفترض في كل مسلم أن يعي جيدًا مصادر المعرفة، وأن يعلم أنّه حين يريد نقاش أمر من أمور الدين فمصدر المعرفة والتلقّي في ذلك هو الكتاب والسُّنَّة وما يرجع إليهما لا غير.

صورة أخرى من صور الخلل في التعامل مع مصادر المعرفة؛ تتمثل في التعامل

مع الآراء الشخصية لبعض علماء المسلمين، والتي صدرت منهم في غير مجال اختصاصهم، وفي مرحلة من مراحل التطور العلمي قد تجاوزها التاريخ كثيرًا.

إنّ علماء المسلمين لهم مكانتهم وقدرهم وإجلالهم، لكننا نخطئ حين نجعل من آراء بعضهم في ميدان الطب البشري، أو في ميدان علم النفس والتربية، أو في ميدان الاقتصاد نصوصًا ذات دلالة قاطعة، فنتعامل معها كما نتعامل مع النصوص والأحكام الشرعية.

وفي حالات عدة يختلط الجانب الشرعي بالجانب المادّي، فلا يفرّق الناس بين مصادر التعامل مع المعرفة الشرعية والمعرفة المادية.

إنّ طالب العلم الشرعي يمكن أن يقول: إن في العسل شفاء للناس، وإن الحبة السوداء شفاء من كل داء، وإنّ الشفاء في شربة عسل، أو شرطة محجم، أو كيّة نار، ويستطيع أن يجمع النصوص المتعلقة بذلك، فيستنتج منها، ويستنبط وفق قواعد الاستنباط المقررة عند أهل العلم بالشرع.

لكنه حين يتجاوز هذا الإطار فيتحدث عن أنواع من المركبات، وعن خطوات للاستعمال، ويحدد أنواع الأمراض وما يلائمها من هذه الأدوية المنصوص عليها في السُّنَّة؛ فإنه حينها يتجاوز إطار تخصُّصه، فمصدر المعرفة في هذه التفاصيل والتعامل معها يتمثل في العلم المادي بأدواته ووسائله المعروفة.

وحين يجري طبيب أو صيدلي بحوثه ودراساته حول تفاصيل تتصل بهذه الأغذية والأدوية؛ فإن نصَّ الشرع على كونها شفاء لا يدل بالضرورة على سلامة ما توصل إليه هذا الباحث من نتائج تفصيلية، فأدوات تقويم نتائج هذا البحث تختلف عن أدوات التعامل مع شروح هذه الأحاديث والاستنباط منها.

ولا نقبل كذلك من طبيب يصل إلى نتيجة يقطع بها بأن هذه الأغذية –التي ثبت بنصوص الشرع أنها شفاء– ضارَّة في الجملة، وينفي عنها أيّ وصف للشفاء، فحين لا يكتشف العلم المعاصر تفاصيل ذلك فلا يقودنا ذلك للتشكيك بما جاء عمّن لا ينطق عن الهوى ﷺ.

ومن صُوَر الخلل في التعامل مع مصادر المعرفة: بناء بعض الناس على أحكام شخصية يُصدرها بعض الرقاة الذين يحكمون بأنَّ المريض أصابته عينٌ من فلان أو محسود من فلانة.

إنّ الرقية شفاء بالنّص الصحيح من قوله وفعله ﷺ، لكنّها ليست أداة لتعيين وتحديد مَنْ العائن، أو من عمل السحر، أو غير ذلك.

إنّ هذه الأمثلة والحالات التي استعرضناها ليست مقصودةً لذاتها، وإنما هي نماذج لبيان الخلل في التعامل مع مصادر المعرفة.

إنّ وجود هذا الخلل والخلط ينبغي أن يقود المربين ويدفعهم للاعتناء ببناء مصادر المعرفة الصحيحة لدى طلابهم وأبنائهم، وأن يعرفوا أنّ لكل علم أدواته ووسائله وخطواته في البحث والتقويم.



بهذا أمرتم؟

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القَدَر، فكأنما يُفقأ في وجهه حَبّ الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أُمِرْتُمْ، أو لهذا خُلِقْتُمْ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض! بهذا هلكت الأمم قبلكم». قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تَخَلَّفْتُ فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطتُ نفسي بذلك المجلس وتخلُّفي عنه. (رواه أحمد ٦٦٣٠، وابن ماجه ٨٥).

و في رواية لأحمد (٦٦٦٣) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حمر النعم؛ أقبلتُ أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نُفرِّق بينهم، فجلسنا حَجْرَةً [في ناحية منفردين]؛ إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا قد احمرَّ وجهه يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذّبُ بعضه بعضًا، بل يصدّق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه».

وأصل هذا الحديث قد رواه مسلم (٢٦٦٦) بأقصر من ذلك، ولفظه: هجَّرْتُ إلى رسول الله ﷺ يومًا، قال فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرَفُ في وجهه الغضب، فقال: «إنّما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».

وعن جندب بن عبد الله البجلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا» (البخاري ٥٠٦٠، ومسلم ٢٦٦٧).

وقد استعرضنا من قبل أبرز معالم المنهج النبوي في التربية على التعامل مع مصادر المعرفة، ومع النصوص الشرعية بوجه أخص. وقلنا: إنّ عامة المسلمين -على اختلاف علمهم وتدينهم- يوقنون على المستوى النظرى بمصدرية الكتاب والسُّنَّة وسيادتهما، لكنَّ ثمة خللاً في التطبيق والتعامل مع الواقع والتفاصيل.

الأمر لا ينتهى عند مجرد الاستدلال بنص من القرآن أو نص من السُّنَّة، وحين يُدبِّج أحد مقالته بآية أو حديث؛ فهذا لا يعني أنه قد قال الحق ودعا إليه.

إنّ القرآن الكريم قد جاء من عند الله -عز وجل-، ومن أعظم جوانب إعجازه خلوه من التناقض والاضطراب؛ قال -عز وجل-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

وهكذا سُنَّة النبي ﷺ متَّسقة متكاملة، يصدّق بعضها بعضًا؛ فقد جاءت مصدِّقة لما في الكتاب ومتمِّمة له، وفي هذا يقول الله -عز وجل-: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤).

وعن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن؛ فما وجدتم فيه من حلال فأَحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحَرِّمُوه.

ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كلّ ذي ناب من السبع، ولا لُقَطَة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه، فإن لم يَقْرُوه فله أن

يُعْقِبَهُم بمثل قِرَاه». (رواه أحمد ١٦٧٤٢، وأبو داود ٤٦٠٤، واللفظ له، وابن ماجه ١٢).

إنهما بناءٌ متَّسق متكامل، لا تناقض فيه ولا اضطراب، قلِّبْ طرفك في السماء فلن ترى من فطور، وقلِّب ذهنك وعقلك في وحي الله فلن ترى من خلل أو قصور.

وكما أن قصور نظر الإنسان يحجب عنه تفاصيل جمال السماء، فهكذا قصور إدراكه، ومحدودية عقله يوقعه في أخطاء وارتباك في التعامل مع نصوص الوحيين.

قد ينظر المرء لنص من النصوص ويغفل عن آخر، وقد ينظر لجانب من الشرع ولا ينظر لآخر، ألسنا نرى مَن يُفرِط في النظر إلى نصوص الوعيد، وينسى نصوص الرجاء والعفو، فيقوده ذلك إلى الإفراط في الخوف، وإلى الغلو على نفسه والناس؟

وفي المقابل نرى من يُفرِط في النظر للجانب الآخر، فيترخَّص في الدين، ويمنِّي نفسه ويتجرأ على حرمات الله -تعالى-.

ونرى أيضًا مَن ينظر إلى النصوص التي تحثّ على الأخذ بأمور الدين بالقوة والعزيمة، وينظر لما كان يفعله ﷺ من الإغلاظ على مَن يستحقون ذلك، ويترك النصوص التي تقابلها من الأمر بالرفق والإحسان، ومدح أهله، ووصف النبي ﷺ بذلك.

وهكذا تتوالى الأمثلة في قائمة طويلة.

إن التعامل الأجدى مع هذه المواقف والأخطاء لن يكون من خلال تناول كل قضية بصورة مجردة والحديث عنها وتجليتها للناس -وإن كان شيء من ذلك مطلوب ولا غِنَى عنه- لكنّ الحل الأساس يكمن في بناء منهج التعامل مع النصوص الشرعية، وتربية الناس على هذا المنهج.

إن أيّ فلسفة تربوية لا بد أن تضع ضمن أهدافها بناء منهج التعامل الصحيح مع مصادر المعرفة لدى المتربين، ونحن أولى الناس بذلك؛ إذ نملك الدِّين الذي لا يسوغ لأحد أن يدين بسواه.

إننا بحاجة إلى بناء هذا المنهج لدى أبنائنا، وهو بناءٌ لن يتم من خلال استعراض المواقف والتعامل معها موقفًا بعد آخر، ولن يكفي فيه تكرار تأكيد الوصايا حول كيفية التعامل مع النصوص الشرعية.

هذا الأسلوب من التعامل المباشر مع القضايا واختزالها بهذه الصورة يترك ثغرات في بنائنا التربوي، وتتجلى آثار هذه الثغرات في ممارسات هؤلاء وتعاملهم مع مواقف الحياة.

يحتاج الناس إلى بيان الموقف الصحيح في كل قضية تُثار، ويحتاجون إلى الحديث المباشر عن الأوضاع ونقدها، وليس على ذلك اعتراض، إنما الاعتراض على اعتبار هذا النمط من المعالجة هو الخيار الوحيد.

البداية في هذه القضية ونظائرها، إنّما تكون من البناء؛ بناء منهجية التعامل مع النصوص الشرعية، وتربية الناشئة على التعامل الصحيح مع مصادر المعرفة، بما فيها مصادر المعرفة الشرعية، وليتمّ علاج الممارسة الخاطئة في التعامل مع النصوص الشرعية بطريقة تتيح توظيفها في بناء المنهجية الصحيحة، مع التركيز في حجم التناول وأسلوبه ومنهجيته على البناء أكثر من مجرد نقد الممارسة الخاطئة، فالانطلاق من النقد وحده لا يكفي في البناء.

إنّ وعي المربّي بأُسُس التعامل مع النصوص الشرعية وتوظيفها في تعليمه وتربيته سيسهم إلى حد كبير في بناء هذه المنهجية في التعامل مع النصوص؛ فهو

حين يتناول نصوص العقيدة كنصوص القضاء والقدر مثلاً، أو نصوص الأحكام، أو نصوص الآداب كنصوص التجمّل وأخذ الزينة، ونصوص ترك الترفّع في اللباس، ونصوص الأخلاق والسلوك؛ كالرفق واللين والعزيمة والجد، أو القواعد الشرعية كالترخيص والتيسير والورع والاحتياط.

حين يتعامل مع هذه المواقف التعليمية بصورة متزنة؛ فإنّ ذلك سيسهم إلى حدّ كبير في بناء منهجية التعامل مع النصوص الشرعية.

وثمة جانب آخر له أهميته في منهجية التعامل مع النصوص الشرعية؛ ففي هذا الحديث يبدو غضب النبي ﷺ من جرأة الناس في تعاملهم مع النص الشرعي، ويبدي لنا هذا الموقف مطلبًا تربويًا في غاية الأهمية، وله أثره في التعامل مع مصادر المعرفة الشرعية.

إنه تعظيم النص الشرعي وإعطاؤه المنزلة اللائقة به.

إن تعظيم النص الشرعي -قرآنًا أو سنة- ليس مجرّد موقف وجداني فحسب، بل هو أساس يمتد أثره إلى كافة خطوات التعامل مع النصوص الشرعية.

من يعظّم النص الشرعي يلتزم به ويمتثل، ولا يتجرأ على تعمّد مخالفته.

ومن يعظّم النص الشرعي لا يُقدِّم عليه أقوال الرجال وآراءهم.

ومن يعظّم النص الشرعي لا يتجرأ عليه بتأويلٍ يصرفه عن ظاهره دون دليل صحيح صريح.

ومن يعظّم النصّ الشرعي لا يتجرأ عليه بالتفسير برأيه أو القول فيه بهواه.

ومن يعظّم النصّ الشرعي لا يضرب النصوص ببعضها، أو يختلق بينها التعارض، ويفتعل الصراع.

ومن هنا تبدو مسؤولية المربين في غرس هذا التعظيم وتنميته لدى المتعلمين.

ويتأكد هذا المطلب في عصرٍ اتسعت فيه دائرة الانفتاح، وأصبح طلابنا وطالباتنا يتعرضون لمؤثرات عدة، ويسمعون الكثير ممن يتجرأون على نصوص الدين وأحكامه، وينطقون فيها بآرائهم وأهوائهم؛ مما يؤكد الحاجة لبنائهم وتحصينهم.

ومن أهم **خطوات التحصين**: بناء المنهج الشرعي في تعظيم النصوص والتعامل معها.

ومن **خطوات ذلك**: إبراز مواقف السلف -رضوان الله عليهم- في تعظيمهم لنصوص الشرع، وامتثالهم لها، وهي مواقف عدة تذخر بها كتب التراجم والسِّيَر.

قال البخاري -رحمه الله-: «سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي -رحمه الله-؛ فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بِيعَة؟ ترى على وسطي زُنَّار؟ أقول لك: قضى رسول الله ﷺ، وأنت تقول: ما تقول أنت؟». (شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ٢/ ٣٤١).

وعن إبراهيم بن أحمد الخطابي قال: «سمعت الحميدي يقول: ذكر الشافعي حديثًا، فقال له رجل: تأخذ به يا أبا عبد الله؟ فقال: أفي الكنيسة أنا؟ أو ترى على وسطي زُنَّار؟ نعم أقول به، وكلما بلغني عن النبي ﷺ قلت به» (تاريخ دمشق ٥١/ ٣٨٧).

وفي رواية للخطيب البغدادي عن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الشافعي، وسأله رجل عن مسألة، فقال: يُروى فيها كذا وكذا عن النبي ﷺ، فقال له السائل: يا أبا عبد الله، تقول به؟ فرأيت الشافعي أرعد وانتفض، فقال: يا هذا، أيّ أرض

تقلّني، وأيّ سماء تظلني، إذا رويت عن النبي ﷺ حديثا فلم أقل به؟ نعم على السمع والبصر، نعم على السمع والبصر». (الفقيه والمتفقه ١/ ٤٤٨).

وفي رواية ساقها ابن عساكر: «فارتعد الشافعي واصفرّ، وحال لونه، وقال: ويحك! أيّ أرض تقلّني، وأي سماء تظلّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئًا لم أقل به؟ نعم على الرأس والعينين، على الرأس والعينين» (تاريخ دمشق ٥١/ ٣٨٩).

وقبل الشافعي كان أصحاب النبي ﷺ وتابعوهم بإحسان يشدّدون على من يعترض أمر الرسول ﷺ.

عن سالم عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قال: إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها، فقال فلان بن عبد الله: إذًا والله أمنعها، فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتيمة لم أره يشتمها أحدًا قبله قط، ثم قال: أحدّثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إذًا والله أمنعها؟». (البخاري ٨٦٥، ومسلم ٤٤٢، واللفظ للدارمي ٤٤٢).

وعن سعيد بن جبير: «أنّ قريبًا لعبد الله بن مغفل خَذَف، قال: فنهاه، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخَذَف، وقال: إنها لا تصيد صيدًا، ولا تنكأ عدوًّا، ولكنها تكسر السنّ، وتفقأ العين.

قال: فعاد، فقال: أحدّثك أن رسول الله ﷺ نهى عنه ثم تخذف، لا أكلّمك أبدًا». (أخرجه البخاري ٤٨٤٢، مسلم ١٩٥٤، واللفظ له).

وعن أبي المُخَارِقِ قال: «ذكر عبادة بن الصامت أنّ النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم، فقال فلانٌ: ما أرى بهذا بأسًا، يدًا بيد. فقال عبادة: أقول: قال النبي ﷺ، وتقول: لا أرى به بأسًا، والله لا يظلّني وإيّاك سقفٌ أبدًا» (رواه الدرامي ٤٤٣).

وعن قتادة قال: «حدثّ ابن سيرين رجلاً بحديث عن النبي ﷺ، فقال رجل: قال فلانٌ كذا وكذا، فقال ابن سيرين: أحدّثك عن النبي ﷺ وتقول قال فلان؟، لا أكلّمك أبدًا» (رواه الدارمي ٤٤١).

إن انشغال أبناء المسلمين وبناتهم بمتابعة أخبار من يسمونهم بالنجوم قد صرفتهم وأشغلتهم عن كثير من هذه المواقف الجلية العطرة، وهي مواقف مشهورة محفوظة عند أهل العلم، لكنَّ ناشئة المسلمين اليوم في غياب مذهل عن السماع بها فضلاً عن وعيها.

ومن هنا فهي أداة ينبغي أن توظّف في تحقيق هذا الهدف التربوي المُهِمّ.

ومن خطوات تنمية تعظيم النصوص لدى الآخرين: أن يُعنَى المتحدّث بإبراز النصوص الشرعية والاستدلال بها على ما يقوله ويعلمه للناس من أمور دينهم.

إن النصوص التي نحتاج إليها في كثير مما نعلمه الناس هي في الأغلب ظاهرة حاضرة، وتعويد الناس على الاستشهاد بها يزيد من صلتهم بالكتاب والسنة، ويعلي من مكانتهما لديهم.

وهو يقود الناس إلى أن يكون الامتثال لنصوص الوحي، والتعبُّد لله باتباع أمره وأمر رسوله، لا لتقليد فلان من الناس.

لقد اعتاد عددٌ من المتحدثين أن يستشهدوا بفتاوى أهل العلم وأقوالهم؛ لما لها من سلطان وتأثير على بعض الناس، ولا شكّ أن ترسيخ قيمة أهل العلم وفتاواهم أمر مطلوب، لكن حين يكون الأمر منصوصًا عليه في الكتاب والسنة؛ فالأوْلَى أن نستشهد للناس في حديثنا بنصوص القرآن والسنة، وألا نلجأ إلى أقوال البشر، إلا في مسائل النوازل أو نحوها مما يصعب على الناس فهم دلالة النص الشرعي فيه.

لا زلت أذكر من سنوات عدَّة حين كنت أُصلّي؛ فاستنكر عليَّ رجل بجواري شيئًا من صفة الصلاة، فقلت له: إن الرسول ﷺ كان يفعل ذلك، وأوردت له النصّ من سُنته ﷺ.

فقال لي: إن فلانًا -أحد أهل العلم- لا يفعل ذلك.

قلت له: بلى وقد سمعته منه، وصادف أن كنت سمعت من الشيخ -رحمه الله- النص على هذا الأمر.

إنها صورة من غياب تعظيم النصوص الشرعية لدى الناس في مقابل أقوال الرجال وآرائهم.

ومن خطوات تنمية تعظيم النصوص الشرعية: تعويد الناس على التوقُّف عندها، والتخلّي عن الجرأة في تأويلها وصرفها عن ظاهرها، وكأن وظيفة المتحدث تطويع النص للرأي الذي ارتآه لا الخضوع له واتباعه.

وها هم أصحاب النبي ﷺ قبل أن يستقر تدوين السُّنة ربما اجتهد أحدهم في المسألة فأفتى فيها باجتهاده، وحين يبلغه قول النبي ﷺ أو فعله سرعان ما يرجع عن قوله واجتهاده إلى قول النبي ﷺ وأمره.

ومن وسائل ذلك: أن نبيّن لهم خطورة الجرأة على النصوص الشرعية ومخالفتها، وأن نبيّن لهم واجب المسلم في تسليمه لله -تبارك وتعالى-، وصلة ذلك بأصل التوحيد.

۞ ۞ ۞



ألا سألوا؟

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجرٌ فَشَجَّهُ في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخْبِرَ بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء الْعِيِّ [1] السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمّم ويعصر أو يعصب - شَكَّ موسى - على جرحه خِرْقَةً، ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده» (رواه أبو داود ٣٣٦).

ورواه أيضًا: (أحمد ٣٠٤٨، وأبو داود ٣٣٧، وابن ماجه ٥٧٢، والدارمي ٧٥٢). كلهم من حديث ابن عباس ﷺ.

في هذا الموقف النبوي يرشد النبي ﷺ أصحابه إلى أداة مهمة من أدوات التعلم؛ ألا وهي سؤال المرء لأهل العلم، ويعيب على هؤلاء أن تصرَّفُوا بجهل وهم يملكون أداة هذا التعلّم.

قال الإمام الخطابي: «في هذا الحديث من العلم: أنه عابهم بالفتوى بغير علم، وألحق بهم الوعيد بأن دعا عليهم، وجعلهم في الإثم قتلة له» (عون المعبود ١/ ٣٦٧).

وسؤال أهل العلم أمر جاء به القرآن والسنة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

إنّ الناس مهما بلغوا من العلم والاطلاع لا بد أن تَعرض لهم مواقف يجهلون

(١) قال العظيم آبادي رحمه الله: «(الْعِيِّ): بكسر العين وتشديد الياء؛ هو التحيّر في الكلام، وعدم الضبط، كذا في الصحاح. وفي النهاية ولسان العرب: (الْعِيِّ): بكسر العين؛ الجهل». (عون المعبود ١/ ٣٦٧).

حكم الله فيها، ويحتاجون لما يُنير لهم الطريق ويضيء لهم المحجة.

إنّ المعلم والمربي لن يظلّ أمام ناظري من يربيه حتى يستشيره ويسأله متى ما أراد أو احتاج لذلك، ومن هنا فلا غنى للتربية عن تزويد المتربين بأدوات الحصول على المعرفة والوصول إليها والتعامل مع مصادرها.

ويمثل السؤال مصدرًا مهمًّا من مصادر الحصول على الفتوى والرأي الشرعي فيما يجهله الإنسان؛ ولا سيما غير المختصين في العلم الشرعي.

إنّ السؤال عمّا يجهله الإنسان خطوة يدركها كل أحد بفطرته وسجيته، ولا أدلَّ على ذلك من أنّ أكثر من يمارس السؤال هم الأطفال الذين لا يزال رصيدهم فقيرًا في ميدان العلم والمعرفة.

وليس دور التربية أن تقول للناس: اسألوا عما تجلهون فحسب، بل أن تعلّمهم كيف ومتى وأين ومن يسألون؟

إنّ الناس كثيرًا ما يسألون من ليس أهلاً للسؤال، وكثيرًا ما يتَّجهون بالسؤال لمن رأوا عليه سمت الصلاح ومظاهره بغضّ النظر عن تأهله للسؤال والفتوى.

وقد قصّ النبي ﷺ علينا قصة الرجل الذي أغواه الشيطان فقتل تسعة وتسعين إنسانًا، فحين سأل الناس عن أعلم أهل الأرض دَلُّوه على راهب عابد ليس من أهل العلم والفتيا؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فَكَمَّلَ به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه

قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة؟...». إلخ الحديث. (رواه البخاري ٣٤٧٠، ومسلم ٢٧٦٦، واللفظ له).

وقد يسأل الناس مَن ليس أهلاً للسؤال ممن ينتسب للعلم الذي لا يؤهله لذلك؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهّالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فَضَلُّوا وأَضَلُّوا» (رواه البخاري ١٠٠، ومسلم ٢٦٧٣).

وقد يعمد المرء إلى سؤال من يفتيه بما يحب ويريد، ويظن أن ذلك ينجّيه عند الله ويعفيه من المسؤولية، جاعلاً هذا المسؤول بينه وبين النار كما يقول، وهذا باب من أبواب اتباع الهوى.

ومن هنا فالناس يحتاجون إلى مَن يربيهم على حُسن اختيار من يسألون.

وحسن الاختيار ليس قاصرًا على مجرد اختيار الأورع والأعلم مطلقًا، بل إن اختيار المسؤول يختلف بحسب موضوع السؤال ومجاله.

وقد أرشد النبي ﷺ أمته إلى اختلاف أصحابه في ذلك؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أُمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبيّ، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» (رواه أحمد ١١٨٥٢، والترمذي ٣٧٩٠، وابن ماجه ١٥٥، وأصله في الصحيحين بغير هذه الرواية).

إنّ من أهل العلم مَن يمتاز بالفتوى في مجال المعاملات المعاصرة، ومنهم من

يمتاز بالفتوى في المجالات الاجتماعية، أو في العبادات، أو في الفِرَق والمذاهب.. وغير ذلك من أبواب العلم ومجالاته.

ومما ينبغي أن يقدّمه المربون للناس: أن يعطوهم البدائل عن الاتصال المباشر بأهل العلم؛ فإنّ مشاغل الحياة اليوم، بجانب قلّة من يفتي قد تعوق السائل عن الوصول إلى ما يريد.

لقد بُذلت اليوم جهود مشكورة في جمع فتاوى أهل العلم ونشرها من خلال العديد من وسائل النشر الورقي والحاسوبي والإلكتروني. وهذه الفتاوى تحوي -في الأغلب- معظم ما يحتاجه السائل والمستفتي، لكن كثيرًا من الناس لا يحسنون الإفادة منها.

والإفادة من هذا الرصيد لن تتحقق بمجرد تنبيه الناس للرجوع إليه، بل هم بحاجة لمزيد من التعريف به، ماذا لو اعتنت مدارسنا في دروسها ومناهجها الرسمية، وفي أنشطتها اللاصفية، ماذا لو اعتنت بتدريب الطلاب والطالبات على التعامل مع مصادر المعلومات التي تحوي فتاوى أهل العلم وأقوالهم؟

والأمر يتطلب تعريفهم بمصادر الفتوى، وكيفية الوصول إليها، وتعريفهم بأساليب البحث، وطرق تبويب المسائل الفقهية وتصنيفها، حتى يستطيع أحدهم أن يعثر على ما يريد السؤال عنه في موطنه ومكانه المناسب.

ومما ينبغي تربية المتعلمين عليه: تعليمهم منهج السؤال؛ كيف يسأل، ومتى يسأل، وأيّ الأوقات تناسب أن يتّصل فيها بأهل العلم ويستفتيهم، وما طرق السؤال وأساليبه، وما منهج التعامل مع أهل العلم؟ إلى غير ذلك من آداب التعامل مع أهل العلم في سؤالهم.

وما لم يتعلم الطالب هذه المنهجية وهو على مقاعد الدراسة، فمتى وأين يتعلمها؟

لقد أتاحت شبكة الإنترنت اليوم فرصًا هائلة في التواصل مع فتاوى أهل العلم، سواء من خلال التواصل المباشر الذي يتيح سؤال أهل العلم عبر العناوين البريدية المتاحة لهم، أو عبر الصفحات الخاصة بهم، أو عبر مؤسسات الفتاوى، والتي تتيح للمسلم في كل مكان أن يتواصل مع أهل العلم، وأن يسأل عمّا بدا له.

إن أبناءنا وبناتنا اليوم يقضون أوقاتًا طويلة في الإبحار في هذه الشبكة، والتقلب -في أحسن الأحوال - في كثير مما يُعدُّ لغوًا وعبثًا، وهذا على فرض السلامة من الضرر والخلل.

إنّهم بحاجة إلى أن نعلّمهم كيف يفيدون من هذه التقنية؟ كيف يفيدون منها في الوصول إلى أقوال أهل العلم؟ وكيف يفيدون منها في التواصل مع من يفيدهم ويرشدهم؟



لا أطعمته

الخطأ قد يصدر من صاحبه نتيجة سوء في السلوك أو قصور في التربية، وقد يكون مؤشرًا على خلل في شخصية صاحبه، وهو ما يستوجب تدخُّل المربي.

لكن؛ هل كل خطأ يجب أن نراه كذلك؟ هل وجود الخطأ يعني دومًا أن نعتقد بوجود خلل، وأنّه مؤشِّر دالّ على ذلك؟

إنّ بعض الأخطاء تنطوي على دوافع مهمَّة لا ينبغي تجاهلها، وبغضّ النظر عن عذرنا لمن وقع في الخطأ أو عدم عذرنا له، فينبغي أن تكون هذه الدوافع هي محور التركيز والعلاج.

حين يسمع صاحب السيارة أصواتًا غريبة تصدر من سيارته؛ فإنّ الذي يدفعه للمبادرة بإصلاحها ليس الانزعاج من الصوت بقدر ما هو شعوره بأن هذا الصوت يُعبّر عن مشكلة كبيرة تحتاج إلى علاج وإصلاح، وحينها يكون قد اتجه الوجهة الصحيحة في علاجه لأصل المشكلة لا لمظهرها.

وبنفس القدر؛ حين يشتكي الشخص من بثور في وجهه، أو صداع في رأسه فإنه سيتعامل مع هذه الظاهرة على أنها مظهر للمرض لا أنها هي المرض نفسه.

والسلوك الشخصي لا يشذ عن هذه القاعدة، وهنا لنا وقفةٌ مع موقف نبوي يتجلّى فيه التطبيق لهذا المبدأ التربوي.

عن عباد بن شرحبيل ﷺ قال: قدمتُ مع عمومتي المدينة، فدخلت حائطًا من حيطانها ففركت من سنبله، فجاء صاحب الحائط فأخذ كسائي وضربني، فأتيت رسول الله ﷺ أستعدي عليه، فأرسل إلى الرجل فجاءوا به.

فقال: «ما حملك على هذا؟» فقال: يا رسول الله؛ إنه دخل حائطي فأخذ من سنبله ففركه. فقال رسول الله ﷺ: «ما علَّمته إذ كان جاهلاً، ولا أطعمته إذ كان جائعًا. اردد عليه كساءه. وأمر لي رسول الله ﷺ بوسق أو نصف وسق.

(رواه أحمد ١٧٠٦٧، وأبو داود ٢٦٢٠، والنسائي ٥٤٠٩، وابن ماجه ٢٢٩٨).

وقد دلت رواية أخرى على أن الباعث لهذا الرجل على ما عمل هو شعوره بالجوع والحاجة.

ففي رواية (أبي داود ٢٦٢٠) عن عباد بن شرحبيل قال: أصابتني سَنَةٌ فدخلت حائطًا من حيطان المدينة ففركت سنبلاً فأكلت وحملت في ثوبي، فجاء صاحبه فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ، فقال له: «ما علَّمت إذ كان جاهلاً، ولا أطعمت إذ كان جائعًا» أو قال: «ساغبًا»، وأمره فردَّ عليَّ ثوبي، وأعطاني وسقًا أو نصف وسق من طعام».

وفي رواية (ابن ماجه ٢٢٩٨) قال: «أصابنا عام مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطًا من حيطانها... ». الحديث.

ودلت هاتان الروايتان -رواية أبي داود وابن ماجه- على أن سبب أخذ صاحب الحائط لكساء عبّاد أنه كان قد وضع بعض الطعام في كسائه.

حين نتأمل هذا الموقف نلمس أمرين في شخصية هذا الرجل:

الأول: أن الذي دفعه لهذا العمل هو الجوع والمسغبة والحاجة.

الثاني: أنه لم يكن يرى في هذا العمل غضاضة أو خطأ، بدليل أنه ذهب إلى النبي ﷺ يشتكي ما فعل الرجل به، ولو كان يدرك خطأ فعلته لما اشتكى إلى النبي ﷺ بل ستر على نفسه.

قال الخطابي: «وفيه أنّه ﷺ عذره بالجهل حين حمل الطعام، ولام صاحب الحائط إذ لم يطعمه إذ كان جائعًا». (عون المعبود ٧/ ٢٠٥).

لقد كان من حكمته وحُسْنِ تعليمه ﷺ أنّه دعا صاحب البستان وأرشده إلى التعامل مع مصدر الخطأ دون التمحور حول العمل نفسه.

فإن كان الذي دفع الرجل هو الجوع والمسغبة؛ فعليه أن يطعمه بالمعروف، ولا يلجئه للوقوع في الحرام.

إنّ بعضًا مما يدفع الناس للسلوك السيئ هو شعورهم بالحاجة، وحين تكون هذه الحاجة مشروعة فينبغي تلبيتها لهم وإشباعها بالطريق المشروع حتى لا يلجؤوا إلى ممارسة الحرام والوقوع فيه.

قد يلجأ الطفل إلى السرقة من مال الآخرين، سواء من مال والديه، أو مال زملائه في المدرسة، وقد يكون مصدر هذا السلوك سوء التربية والشراهة عند هذا الطفل، لكن قد يكون مصدره الحرمان الذي يشعر به الطفل.

إنّ الطفل لا يدرك حدود الحلال والحرام، بل يسمع من والديه النهي عن ذلك، ولا يدرك مغبة الوقوع في الحرام، وحينها قد تقوده الرغبة في المتعة إلى السرقة من الآخرين.

وحين يكتشف الوالدان هذا السلوك السيئ؛ فلا بد من المبادرة بعلاجه قبل أن يستفحل، ومن أبجديات وسائل تقويم هذا السلوك: وقاية الطفل منه؛ بأن يُعطَى ما يغنيه وما يشعره بأنه ليس أقل شأنًا من زملائه.

ومن ذلك أيضًا: أن يستمع الوالدان لطلباته، فيتجاوبا مع ما يريده من طلبات

مشروعة حتى يلجأ لها عند الحاجة، بدلاً من اللجوء إلى الأساليب غير المشروعة.

إنّ هؤلاء المحرومين ربما نشأ لديهم سلوكٌ أخطر من سرقة دراهم محدودة من الزميل أو من المنزل، ومن ذلك أنّه قد يجري استغلاله مِن قِبَل رفاق السوء، فحين يدركون حاجته للمال، وأنه محروم منه؛ فقد يسعون لاستدراجه والتغرير به، وقد يجعلون ما يعطونه إياه ثمنًا ومدخلاً للمساومة على عِرْضه.

إنّ هذا لا يعني أن نعطي الطفل ما يريده بلا حساب، أو أن نستجيب لرغبته دون تردُّد، بل يجب أن نتَّزن ونعتدل في ذلك، فنحقّق له حاجاته حتى لا يقوده الحرمان لأن يُستغلَّ من قِبَلِ الآخرين، أو أن يقع في السلوك السيئ.

إنّ حاجة الطفل في بعض الأحيان قد تتمثّل في زيارة أماكن الترفيه، أو اقتناء بعض أدواته؛ فالأب قد لا يدركُ أهميتها لدى طفله، أو قد يرى البعد عنها تورُّعًا؛ رغم أنه لا يوجد فيها ما يقتضي التحريم.

ولا شك أنّ الترفيه يصحبه كثير من التجوّز والوقوع في الحرام، لكنه يبقى حاجة مهمة للنفس، تقول عنه أم المؤمنين عائشة ﷺ: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو» (رواه البخاري ٥٢٣٦، ومسلم ٨٩٢).

وفي مجال الفتيات نرى أن ما يدفع كثيرًا من الفتيات لصحبة أهل السوء وبناء العلاقات مع الشباب هو شعورها بالفراغ العاطفي، وشعورها بالفراغ والمعاناة في منزلها، وهذا وإن لم يكن عذرًا لها على هذا الانحراف، لكنّه واقعٌ تعيشه كثيرات، وهو يفرض على الوالدين تلبية هذه الحاجة بالصورة المشروعة.

إنّ النص النبوي الذي وقفنا عنده يدلّ على أنّ مصدر الخطأ قد لا يكون

هو الحاجة، بل قد يكون الجهل، وهو ما عبّر عنه ﷺ بقوله: «ولا علّمته إذ كان جاهلاً».

والتعليم أوسع من المعرفة المجردة بتحريم الشيء أو جوازه؛ فترسيخ القيم والاتجاهات هو نوع من التعليم، وتنمية الإيمان والخوف من الله -عز وجل- هو نوع من التعليم، والتذكير بين آونة وأخرى هو نوع من التعليم.

إنّ أولادنا بحاجة إلى التعليم الذي يحميهم من الوقوع في الممارسة الخاطئة، التعليم الذي يرسّخ المفهوم لديهم فيفرّقون بين حدود الحلال والحرام، والتعليم الذي يخاطب الوجدان والمشاعر كما يخاطب العقول، والتعليم الذي يرشدهم إلى البديل المباح الذي يكون بديلاً لهم عن الوقوع في الحرام.

ومن التعليم المهم الذي يعين أولادنا على تلافي الوقوع في الخطأ أن نعلّمهم كيف يتجاوزون الخطأ؟ وكيف يحمون أنفسهم منه؟ إننا نعلّمه كثيرًا ضرورة البعد عن صحبة السوء، وهو تعليم له أهميته، لكنّه يحتاج مع ذلك أن يتعلم منّا الوسائل التي تعينه على التخلّص من كيد أصحاب السوء ومكرهم.

ويحتاج أن يتعلم منا أدوات التفكير السليم الذي يُعينه على اكتشاف أخطائه وتجاوزها، وينمّي قدرته على تعرُّف البدائل، والخروج من المضايق التي ربما قادته للوقوع في الخطأ.



أنتم أعلم بأمر دنياكم

كان النبي ﷺ يعيش مع الناس ويعاشرهم في السراء والضراء؛ يعاشرهم في أمور دنياهم، ويعاشرهم وهم يتعبدون لله -تبارك وتعالى-، في السِّلم والحرب، في كل موقف نرى النبي ﷺ حاضرًا مع الناس، ومن هنا كان عطاؤه التربوي ﷺ مستوعبًا مجالات الحياة.

مرَّ يومًا على أصحابه وهم يعالجون شأنًا من شؤون دنياهم فكان هذا الموقف:

عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يلقّحون، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح». قال: فخرج شيصًا، فمرّ بهم، فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت: كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (رواه مسلم ٢٣٦٣).

وفي رواية: «إن كان شيئًا من أمر دنياكم فشأنكم به، وإن كان من أمور دينكم فإليَّ» (أحمد ٢٤٦٩٩ وابن ماجه ٢٤٧١).

النخل يحتاج إلى التلقيح، وحين لا يُلقَّح يخرج شيصًا، لكنَّ النبي ﷺ لم يكن عالمًا بتدبير أمور الزراعة والنخل وما يتعلق بها، فقد كان من أهل مكة، وعاش في مكة وهم أهل رعي وتجارة، وأمّا أهل المدينة فقد كانوا أعلم بالزراعة والنخل.

هذه الوصية وهذه المقولة التى فرّق النبي ﷺ فيها بين أمر الدين وأمر الدنيا وردت أيضًا في حديث آخر، ففي حديث أبي قتادة الطويل في قصة نومه ﷺ عن

الصلاة وفيه:... فقال بعضهم لبعض: فرّطنا في صلاتنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون؟ إن كان أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإليَّ. قلنا: يا رسول الله، فرّطنا في صلاتنا! فقال: لا تفريط في النوم، إنما التفريط في اليقظة» (رواه أحمد ٢٢٠٤٠ وغيره، وأصله في الصحيحين دون موضع الشاهد).

إنّ هذه المقولة التي قالها ﷺ حقٌّ، والأمة بحاجة أن تعي هذه المقولة، وأن تعي هذا التوجيه.

ولقد نحا طائفة من الضالين بهذه العبارة منحًى آخر، فجعلوها تأصيلاً للفكرة العلمانية التي تفصل الدين عن الحياة، ولا شك أنّ هذا فهمٌ سَقِيم، فإن هذا الدين قد جاء بأحكام الحياة كلها.

لقد جاء الدين بأحكام عبادة الناس ومعاملاتهم وشؤونهم الاجتماعية وشؤونهم الاقتصادية، لكن حديث النبي ﷺ - ها هنا - في شأن الدنيا البحت.

إن النبي ﷺ لم يحرّم تأبير النخل، وتأبير النخل ليس مرتبطًا بحلّ أو حرمة، إنما كان هذا الأمر رأيًا شخصيًا رآه النبي ﷺ نظرًا لقلة خبرته ﷺ بتدبير أمر النخل؛ لأنه كان من أهل مكة، ومن هنا قال لهم ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

نرى في هذا الموقف التربوي مخالطة النبي ﷺ لأصحابه، واعتناءه بأمرهم، كان يخالطهم ويتحدث معهم في أمور دنياهم، يعيش حياتهم الاجتماعية، يعيش حياتهم المادية، يشفع لمن يحتاج شفاعة، يتصدّق على مَن يحتاج الصدقة، إلى غير ذلك من مواقفه ﷺ معهم.

نلحظ في هذا الموقف أيضًا سماع أصحاب النبي ﷺ له، ومع أنهم اعتادوا على

هذا العمل، وهم يدركون جيدًا: لماذا يلقح النخل؟ ويدركون: ماذا سينشأ عن عدم التلقيح؟ لكن حينما سمعوا هذا التوجيه من النبي ﷺ التزموا به، ثم بعد ذلك أخبرهم النبي ﷺ أنّ هذا الأمر الدنيوي مردّه إليهم، فقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

إنّ تلك الأمة وذلك الجيل قد تربى على التسليم والطاعة لأمر النبي ﷺ، ولو بدا لهم أن هذا يخالف ما اعتادوه في شؤون حياتهم، ونحن بحاجة إلى إحياء هذا المعنى، بحاجة إلى أن نعيش التسليم لأمر الله -تبارك وتعالى- وأمر النبي ﷺ، وخاصّة ونحن نرى فئامًا من المسلمين يعترضون على أمر الله وأمر رسوله ﷺ بآرائهم وأهوائهم.

نلحظ في هذا الموقف أيضًا: رجوعه ﷺ عن ذلك القول الذي قاله، فحينما لم يوافق قوله الحق لم يستصعب عليه ﷺ أن يرجع عما قال، بل تجاوز النبي ﷺ هذا الأمر فأعطاهم قاعدة عامة: أن الأمر إن كان يخص شؤون الدنيا، ولا صلة له بحلٍّ أو حرمة فأنتم أعلم مني بما يُصْلِح أمر دنياكم، أما إذا كان الأمر متعلقًا بالدين والتشريع فهذا له شأن آخر؛ إذ إنّ مردّه لله ورسوله.

إنّ المربي بحاجة إلى أن يعيش هذه الروح، كثيرًا ما يُسأل عما يجهل، وقد لا يضره أن يجهل هذا الشيء، وربما قال في مثل هذا الموقف برأيه الشخصي، لكنه قد يواجه بحقيقة تخالف ما قال، بل ربما كان من يواجهه بهذه الحقيقة هو أحد أبنائه أو أحد تلامذته، وهنا تتأكد الحاجة إلى رحابة الصدر، وأن يُعلّم الناس كيف يتراجعون حينما يقولون كلمة يكتشفون فيها بعد أنها خلاف الحق، ولو كانت في شأن الدنيا.

إن كثيرًا من هذه المواقف التي ننظر إليها على أنها مواقف يسيرة، أو نصنّفها على أنها مواقف تافهة، تسهم في تشكيل وبناء شخصية أبنائنا وتلامذتنا، وحين لا

نتراجع عن أخطائنا في أمور الدنيا البحتة فإنّ هذا سيكرّس لديهم التشبُّث بآرائهم ولو خالفت الدليل والحقائق القاطعة.

يؤسِّس هذا الموقف النبوي ما يتصل بمصدر المعرفة الدنيوية من حيث مصدر الحصول على المعلومات، ومن حيث الأدوات، ووسائل البحث.

إن التعامل مع أمور الدنيا له أدواته الخاصة وله مصادره الخاصة، وهذا أمرٌ بحاجة إلى أن تعيه الأمة، وأن نؤسِّسه لدى أبنائنا، إنهم بحاجة إلى أن نربيهم على أنّ لكلّ مجال من مجالات المعرفة مصادر خاصة به، وأدوات يُتَوصّل من خلالها إلى المعرفة، وأن ما يناسب هذا العلم قد لا يناسب العلم الآخر.

وفي هذا الموقف النبوي نلمس تأصيل مسؤولية الناس عن أمور دنياهم؛ فهم مسؤولون عن الأخذ بأسباب النجاح، ومسؤولون عن بذل الجهد، ومسؤولون عن الاجتهاد في أمر الدنيا؛ فإنهم أعلم بأمر دنياهم، كما أخبر ﷺ.

وأمر الدنيا ليس قاصرًا على التعامل المباشر مع المواقف المحسوسة؛ فالناس يتحملون مسؤوليتهم تجاه مشكلات التنمية والنهضة الدنيوية، والمشكلات السياسية والاقتصادية، والارتقاء بالتعليم ونُظُم الحياة، وهم قادرون على الفصل بين ما مرجعه الشريعة في ذلك -كأحكام المعاملات ونحوها- وما مرجعه الخبرة البشرية المجردة، وما تؤسّس فيه الشريعة للمعاني الكلية والقيم العامة، ويتحمل الناس مسؤولية تطوير ما يتلاءم مع حياتهم.

وكما يؤسّس هذا الموقف النبوي -في قصة التأبير- لمرجعية شؤون الدنيا للخبرة والتجربة البشرية، فهو في المقابل يؤسّس أن المرجع في أمور الدين لله وحده، فلا مجال للرأي، ولا مجال للنقاش في تأسيس الحكم الشرعي.

قد يُبْدِي الإنسان رأيه في كيفية تطبيق هذا الأمر، كالأساليب المثلى في إقناع الفتاة بالحجاب، أو ما يتَّصل به في الحياة الاجتماعية؛ كتوظيف العلاقات الاجتماعية والتجمعات العائلية -على سبيل المثال- في تعزيز الالتزام بالحجاب، أما أصل الحكم والتسليم له فلا مجال للناس في أن يجتهدوا فيه، ولا مجال أن يعترضوا.

من حق الناس أن يسألوا عن الحكم الشرعي، ومن حقهم أن يسألوا عن مدى انطباق هذا الحكم على الواقع الذي يعيشه أحدهم، أما الاعتراض على أمر الله وعلى حكم الله وأمر رسوله فليس ذلك من شأن المؤمنين الموحدين.



لكل قوم عيد

الحديث هنا ليس عن العيد في ذاته، وما ينبغي أن يُمارَس فيه، وإنما المقصود إبراز نموذج من نماذج التربية النبوية التي ينبغي أن نحتذي بها في حياتنا.

عن عائشة ﵂ قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنّيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنّيتين. فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟. وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر؛ إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا» (رواه البخاري ٩٥٢، ومسلم ٨٩٢).

يصوِّر لنا هذا الموقف كيف كان النبي ﷺ يتعامل مع العيد.

فها هو النبي القائد لأمّته، المشغول بهمومها، الذي يرعى الصغير والكبير، يترك زوجته تتمتع باللهو المباح يوم العيد.

إنه المنهج النبوي الذي يتعامل مع الإنسان في كافة مواقفه؛ يتعامل معه في السراء والضراء، ويتعامل معه في حال الفقر والغنى، يتعامل معه حين يولد ويخرج للوجود، وحين يودِّع الحياة ميتًا.

يقدم للناس منهج الحياة في السِّلْم، كما يقدّم لهم منهج الحياة في الحرب، يربّيهم على الرجاء كما يربّيهم على الخوف.

إنّ النفس تحتاج للجدّ والعزيمة؛ فالجادّون هم الذين ينجحون في الحياة، كما تحتاج إلى قَدْر من الترفيه واللهو الذي يُجمّها ويُريحها، ولا يحول بينها وبين الإنتاج والعزيمة.

إنّ مشروعية العيد في الإسلام دليل على حاجة النفس البشرية لقَدْر من اللهو والترفيه، بل إجمام النفس والترويح عنها.

في العيد يتجاوز الترفيه مجرد الجواز والإباحة لأن يكون مشروعًا؛ فالصيام يوم العيد يحرُم، ولو صامه أحدٌ قضاءً ليوم من رمضان لكان صومه باطلاً، ولم يجزئه هذا الصيام.

وفي وسط هذا الواقع الذي تعيشه الأمة ما بين حروب وصراعات، وما بين مآسٍ وفيضانات لا يطيق بعض الوعاظ والخطباء التوازن والتحكُّم في مشاعرهم، فتتحوَّل خطبة العيد وما يليه إلى نُوَاحٍ على واقع الأمة ونَدْب لها، وإلى اغتيال للفرح والاستبشار، فيتكرر في حديثهم: لا يحق للأمة أن تفرح بالعيد وهي تُقتل وتُهان، ولا يحق لها أن تفرح والأقصى بيد اليهود، كيف تَستبشر وأعراض نسائها تُنْتَهك، وأطفالها ييتَّمُون....

يقول أحدهم:

العيد أقبل يا وليد فلا تكن ... فرحًا به أبدًا فما هو عيد
ما العيد إلا أن نعود لديننا ... حتى يعود نعيمنا المفقود
ما العيد إلا أن نكون كأُمَّة ... فيها محمد لا سواه عميد

إننا نقدّر مشاعر من قال هذه الأبيات، فمشاعر الشعراء وعواطفهم وأحاسيسهم لا يمكن إخضاعها للمحاكمة المنطقية الفكرية.

وليس العتب على من يقول مثل ذلك أو يدعو الأمة إلى تذكُّر مآسيها وأحوالها.

لكن العتب أن تتحول الحال وتنقلب؛ فيكون الحديث عن العيد موسم استثارة الأشجان والأحزان، وأن يُوصَم الفَرِحُون بالعيد بأنهم متبلدو المشاعر والأحاسيس، وأنهم فاقدون للغيرة على واقع الأيامى والأرامل والأيتام.

فرح النبي ﷺ بالعيد، وترك الحبشة يلعبون بالمسجد، وأذن في العيد بلهوٍ لا يُؤْذَن فيه بغيره، كل ذلك -وليس المسجد الأقصى- بل بيت الله الحرام بيد أهل الشرك والأوثان، والأصنام والأوثان تملأ ربوع البيت، وتعتلي الصفا والمروة والمشاعر التي أمر الله أن يُذْكَر فيها وحده، ويُكَبَّر ويُثْنَى عليه وحده.

فرح ﷺ بالعيد واستبشر ودعا لذلك، وفي مكة آنذاك طائفة من المستضعفين ممن قال -عز وجل- عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. (النساء: ٩٧- ٩٨).

والذين قال عنهم في آية أخرى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح: ٢٥).

إن مدى هذه القضية يتجاوز حدود العيد ومناسبته، لكنَّه قراءة في الواقع التربوي والدعوي.

إنّ الانطلاق مع العواطف والمشاعر والاستجابة لندائها دون الوعي بآثار ذلك على بناء النفوس قد يقود لمواقف إيجابية من التفاعل والتعاطف، لكنَّه قد يقود إلى خلل في بناء النفوس.

وهذا يتمثَّل في بناء نفوسٍ لا ترى إلا الصور القاتمة السوداء، في حين تغيب عنها الصور المشرقة، نفوسٍ تعيش في صراع مع الفرح والاستبشار.

إن موجة هذا التأثير قد تمتد إلى عطاء هذه الفئة من الناس؛ فتؤثر على عطائها الأسري والاجتماعي، وعلى عطائها الدعوي والتربوي.

إنّ كثيرًا من الناس يَفترض العلاقة الموجبة بين ارتفاع وتيرة النقد والأسى والرؤية القاتمة، وبين الغيرة والحمية للدين وهو افتراض لا يؤيده الواقع.

وحين تسود لدى المربين النظرة القاتمة الموغلة في البحث عن الأشجان والمواجع يترك ذلك أثره البالغ على الجيل الذي ينشئونه، فينشأ حاملاً القدر نفسه من هذه المشاعر السلبية.

حين يزيد الملح في الطعام، أو يُبالغ الطاهي في كمية المُحَسِّنات للطعام يَفْقد ذلك قيمته ويتحوَّل إلى طعم مُؤْذٍ لصاحبه يمنع استساغة ما يأكل.

وهكذا حين يزداد الحديث عن المواجع والفواجع والمآسي يتخلف هذا الحديث عن وظيفته في الحثّ على التفاعل والإيجابية، وفي تحريك النفوس للعمل والإصلاح، إلى عامل من عوامل التيئيس وقتل الأفكار الواعدة ووأد التفاؤل.

وبقدر ما يحتاج أبناؤنا وبناتنا اليوم إلى استثارة مشاعرهم وعواطفهم نحو أمتهم ومجتمعهم، فهم بحاجة إلى إشاعة الأمل في النفوس، وإلى إحياء التفاؤل، فقد كان المربي ﷺ يتفاءل ولا يتطيّر، وكان يعجبه الفأل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا طيرة، وخيرها الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

(رواه البخاري ٥٧٥٦، ومسلم ٢٢٢٤).

كان ﷺ يعيش هذا الشعور وهو يعيش أحوالاً من المدّ والجزر في واقع المسلمين آنذاك، يعيشها في وقت السلم والحرب، في وقت النصر وتخلّفه، في وقت الجوع والمسغبة، ووقت السعة والرخاء.

إنها ليست دعوة لتجاهل الصور السلبية، وليست دعوة للتهوين من شأن التفاعل مع مواجع الأمة، لكنها دعوة إلى التوازن والاعتدال، وبالأخص في مواسم الأفراح والبهجة، فلكل مقام مقال.

دعوا الناس يفرحون يومًا أو يومين أو ثلاثة، ودونكم بقية أيام العام اعملوا فيها ما تشاءون.

وهي دعوة إلى التعامل مع كافة أوتار النفس البشرية؛ مع الرجاء والخوف، مع الأمل والتوجس، مع الاطمئنان والقلق، مع العزيمة والجد، والترفيه والترويح.

هكذا كان المنهج التربوي النبوي للمربي الأول ﷺ، وهكذا جاء شرع الله الذي جاء موافقًا لطبيعة النفس البشرية وسجيتها ومُصْلِحًا لها.



مجالس الإيمان

عن حنظلة الأسيدي -ﷺ؛ وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا! فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله؛ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟»، قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات». (رواه مسلم ٢٧٥٠).

لم يكن الموقف قاصرًا على حنظلة وأبي بكر ﷺ، فها هو صحابي آخر من صحابته ﷺ يروي قريبًا من ذلك.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا يا رسول الله؛ إنا إذا رأيناك رقّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولادا. قال: «لو تكونون، أو قال: لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» (رواه أحمد ٧٩٨٣، والترمذي ٢٥٢٥).

وكما كان الذين يصحبون رسول الله ﷺ ويجالسونه يدركون هذه المعاني ويعايشونها، فالذين لم تُتَح لهم هذه الفرصة كانوا يرون أنهم خسروا شيئًا سبقهم إليه الآخرون.

عن أبي موسى ﷺ قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم. إمّا قال بضع وإمّا قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أُناس من الناس يقولون لنا، يعني: لأهل السفينة: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر الحبشية هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم. قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ؛ ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله؛ إنّ عمر قال: كذا وكذا. قال: «فما قلت له؟» قالت: قلت له: كذا وكذا. قال: «ليس بأحق بي منكم؛ وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة

يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ. قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني. (رواه البخاري ٤٢٣١، ومسلم ٢٥٠٣).

والشاهد أن أسماء بنت عميس ﵂ كانت في حديثها تتحسّر على ما فاتها من مجالس النبي ﷺ وذلك بقولها : «كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم».

إنّ الإيمان واليقين ليس نتاج معرفة مجردة، أو اقتناعات تتشكل ثم تكون آخر العهد بمن يحملها.

إنّ النفوس البشرية تعيش في الدنيا وتخالط الهموم والأشجان، وتتعرض للمؤثرات والصوارف، ولئن كان أصحاب النبي ﷺ يرون أنّ معايشة الأهل وملاعبة الصبيان تنسيهم ما كانوا يلقونه من النبي ﷺ فماذا نقول عن واقعنا؟

يمسي كثير من الناس ويصبحون وجلّ أحاديثهم حول الدنيا والتجارة والمال، وارتفاع الأسهم وانخفاضها، ونمو العقار وكساده، ناهيك عما حرّم الله من الغناء الماجن، والمشاهد المُخِلَّة، وما يعيشه البعض من إدمان التعامل مع أجهزة تواصل وقنوات إعلام هابطة تهدم الفضيلة وتُذْكِي الرذيلة، ومع ذوبان كثير من الحواجز بين المجتمعات.

وحين يتعرض الناس لهذه المؤثرات سواء ما يتصل منها بالإفراط في المباح فيقف بأصحابه حول دائرة الحمى المأمورين باجتنابه، أو ما يصل بأصحابه إلى دائرة الحرام.

حين يتعرضون لذلك فهم بحاجة لما يعيد إليهم التوازن، بل قبل ذلك هم بحاجة لبناء نفوسهم وإيمانهم.

إن النفوس التي تعيش في هذا الواقع بحاجة إلى أن تُبْنَى، بحاجة إلى أن يُبْنَى الإيمان فيها حتى يكون قادرًا على مقاومة هذه المؤثرات ومواجهتها، ولهذا يوصي ﷺ بتعاهد الإيمان ومراجعة النفس؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليَخْلَق في جوف أحدكم كما يَخْلَق الثوب الخَلِق، فاسألوا الله أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم» (أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٥).

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ وتلاميذهم من التابعين يعنون بمجالس الإيمان وما يقرّبهم إلى خالقهم -عز وجل-.

عن علقمة: «أنه كان يقول لأصحابه: امشوا بنا نزدد إيمانًا» (رواه ابن أبي شيبة في الإيمان ١٠٤).

وعن الأسود بن هلال المحاربي قال: «قال لي معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة، يعني نذكر الله». (رواه البخاري في الإيمان تعليقًا، وابن أبي شيبة في الإيمان ١٠٥، واللفظ له).

وعن الأسود بن هلال المحاربي قال : «كان معاذ يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله ويحمدانه» (رواه ابن أبي شيبة في الإيمان ١٠٧).

وعن بلال بن سعد أنّ أبا الدرداء قال: «كان ابن رواحة يأخذ بيدي، ويقول: تعال نؤمن ساعة، إنّ القلب أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا» (أخرجه ابن المبارك في الزهد ١/ ٤٩٠، رقم: ١٣٩٥).

إن المتربين بحاجة إلى أن يعيشوا حديث الإيمان، أن يعيشوا مجالس الإيمان في منازلهم، في المناسبات الخاصة والعامة، في فصولهم الدراسية، في استماعهم لخطيب الجمعة، في تعاملهم مع وسائل الإعلام، وهم يقرءون أو يسمعون أو يشاهدون.

حينما يتعامل الناس مع هذه الوسائل، مع آية يتدبرونها، ومع حديث يتأملونه، وموعظة يقرءونها أو ينصتون إليها، فإن ذلك يعيد التوازن إلى النفوس، ويحيي ما قسا من القلوب.

وجيل اليوم في ضرورة إلى ما يبني الإيمان ويقويه، وما يستنهضه في القلوب، ويجدده في النفوس.

ومن أعظم ما يحقّق ذلك مجالس الإيمان والوعظ؛ فمهما تنوعت الوسائل، ومهما حملت لنا التقنية من مرئي ومسموع يحرّك الوجدان فلمجالس الإيمان أثر آخر؛ فهي مجالس تحفّها الملائكة، وتغشاها الرحمة، فتحل فيها البركة.

وتأثير هذه المجالس ليس قاصرًا على محتوى ما يقال فيها؛ فنبرات الصوت، وقسمات الوجه، والجلساء الصالحون الذين لا يشقى بهم جليس، كل ذلك لا يتحقق في البدائل التقنية.



كفوا صبيانكم

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان جُنْح الليل أو أمسيتم فكُفُّوا صبيانكم؛ فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل فحُلُّوهم، فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله؛ فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا، وأوكوا قربكم، واذكروا اسم الله، وخمِّروا آنيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئًا، وأطفئوا مصابيحكم» (رواه البخاري ٥٦٢٣، ومسلم ٢٠١٢).

وفي رواية أخرى: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترسلوا فواشيكم وصبيانكم إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء؛ فإن الشياطين تنبعث إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء»

(رواه البخاري ٢٣٨٠، ومسلم ٢٠١٣، واللّفظ له).

قال ابن الأثير الجزري: « (الفواشي) جمع فاشية؛ وهي الماشية التي تنتشر من المال؛ كالإبل، والبقر والغنم السائمة؛ لأنها تفشو؛ أي: تنتشر في الأرض، وقد أفشى الرجل: إذا كثرت مواشيه» (النهاية في غريب الأثر ٣/ ٤٤٩).

قال النووي: «قوله: (جُنْح الليل) هو بضم الجيم وكسرها، لغتان مشهورتان؛ وهو ظلامه. ويقال: أجنح الليل، أي: أقبل ظلامه. وأصل الجنوح: الميل. قوله ﷺ: «فكفوا صبيانكم» أي: امنعوهم من الخروج ذلك الوقت. قوله ﷺ: «فإن الشيطان ينتشر» أي: جنس الشيطان؛ ومعناه: أنه يخاف على الصبيان ذلك الوقت من إيذاء الشياطين لكثرتهم حينئذٍ، والله أعلم».

(شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/ ١٨٥- ١٨٦).

يوصي النبي ﷺ من يرعون الصغار بحسن رعايتهم، ومن ذلك إبعادهم عما يضر بهم في صحتهم العضوية والنفسية.

إنّ أول ما نلمسه في هذا الحديث هي تلك الرؤية الواسعة لدور المربي ومهمته.

حين تتحدث مع كثير من الخيرين عن التربية وتحثهم على حسن رعاية أولادهم؛ فإن عددًا منهم يختزلون المسؤولية التربوية فيما يتصل بالتدين والحديث عن أمر الابن بالصلاة والطاعة، ونهيه عن الأخطاء، وتقويم سلوكه وأخلاقه.

وفي مقابل هؤلاء هناك فئة ليست قليلة من الآباء والأمهات يعتنون بصحة أولادهم، ويهتمون بتحصيلهم الدراسي وأمور الدنيا، ويهون عندهم شأن الدين.

إنّ الإسلام يتعامل مع الإنسان باعتباره كائنًا متكاملاً، فهو جسد وبنية، وعقل وروح، وكما أنّ الدين ليس أمرًا هامشيًا ومحدودًا في حياة الإنسان فهو مع ذلك لا يمكن فصله عن جوانب شخصية الإنسان الأخرى.

إن الآلة التي تؤدي وظيفة ما إنما تعمل من خلال مجموع قِطَعها وأجزائها، ومهما بلغت أهمية قطعة من قطعها أو جزء من أجزائها فلن يرقى هذا الجزء منفردًا ليكون هو كل شيء في هذه الآلة، ولن يعمل بمفرده دون بقية القطع والأجزاء.

والأمر يتجاوز ذلك فثمة عنصر مهم تحتاجه الآلة؛ ألا وهو التواصل والتكامل في الأدوار والمهمات بين هذه القطع والأجزاء.

وهكذا الإنسان؛ فهو لا يمارس حياته بروحه فحسب دون جسده، أو بجسده دون عقله، بل بكيانه مجتمعًا، وليس عمله وتصرفه محصلة لكافة جوانب شخصيته فحسب بل لتفاعلها مع بعضها.

وحينها فالمربُّون الذين يسعون إلى بناء النفوس وإعدادها لا بد أن يرعوا هذا الجانب فيتعاملوا مع الكيان الإنساني بمجموعه دون تفتيته، أو عزل جانب عن آخر.

إنّ فهم الإنسان للدين وأساليب تطبيقه له في حياته لا ينفصل عن تكوينه العقلي وطريقة تفكيره، ولا عن استقراره وصحته النفسية.

فكم رأينا من يفهم الدين فهماً خاطئًا، أو يضع النصوص على غير موضعها!، ومصدر ذلك الفهم هو الخلل في بنائه الشخصي، وكم رأينا من يُقصِّر في حقوقه الزوجية، وإدارته لحياته الأسرية نتيجة الحالة النفسية التي يعيشها.

إننا نُعِدّ أولادنا وتلامذتنا لمهمّتين لا تتعارضان ولا تنفصلان:

المهمة الأولى: عبادة الله وحده، والفوز بالنجاة في الدار الآخرة.

والمهمة الثانية: النجاح في الحياة الدنيوية، وتحقيق العيش الكريم فيها.

وهما مهمتان متكاملتان لا تتعارضان، فقد قال -عز وجل-: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. (القصص: ٧٧).

وأخبر ﷺ أن طلب الإنسان الرزق عبادة يؤجر عليها، وأن إنفاق العبد على أهله هو باب من أبواب الإنفاق في سبيل الله -تعالى-؛ فعن أبي مسعود البدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنّ المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة» (رواه مسلم ١٠٠٢).

ومن جانب آخر فاستقامة الإنسان وثباته تتأثر باستقراره في حياته النفسية، واستقراره في حياته الاجتماعية.

كما أن أداءه لكثير من الأدوار المتصلة بالإعداد للحياة الآخرة يتأثر ببناء شخصيته.

فقيامه بصلة الرحم وبرّه بوالديه سيتأثر بمدى قدرته على التواصل الإيجابي مع الآخرين، كما يتأثر بقدرته على إدارة مواقف الاتفاق والاختلاف مع الآخرين.

وقيام الفتاة بواجبها الشرعي في حُسن العشرة لزوجها سيتأثر بمدى قدرتها على إدارة النزاع والتعامل مع المشكلات والأزمات.

كما أن أداء الفرد رجلاً كان أو امرأة لدوره في الإصلاح والدعوة في مجتمعه سوف يتأثر بمهاراته الاجتماعية، وبمدى قدرته على التواصل مع الآخرين، ومدى امتلاكه لمهارات الحوار والإقناع.. إلخ جوانب شخصيته.

إنّ ما سبق يؤكد أهمية اعتناء المربين بالبناء المتكامل لشخصية الإنسان، وهذه الرؤية لدور التربية سوف تترك أثرها على الأهداف التربوية فتكون أكثر شمولاً واتساعًا، وتترك أثرها على محتوى المنهج التربوي، وعلى طرق التعليم والتوجيه، وعلى أساليب التقويم، وعلى شخصية المربي وممارساته.

وفي هذا الحديث توجيه للمربين بأن يسعوا لحماية المتربي من الشيطان وتأثيره، وتأثير الشيطان على الإنسان له مدخلان:

الأول: إيذاؤه في جسده أو حياته النفسية، وهو طريق يبدأه الشيطان مع خروج الإنسان إلى الحياة الدنيا؛ فعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يُولَد فيستهلّ صارخًا من مسّ الشيطان إيّاه، إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦). (رواه البخاري ٤٥٤٨، ومسلم٧١٤٢).

وكذلك يستمر أذاه لابن آدم في حياته؛ فعن حمنة بنت جحش ﷺ قالت: كنت أُستحاض حيضةً كثيرةً شديدة، فأتيت رسول الله ﷺ أستفتيه وأخبره، فوجدته في بيت أختي زينب بنت جحش، فقلت: يا رسول الله؛ إني امرأة أُستحاض حيضة كثيرة شديدة؛ فما ترى فيها؟ قد منعتني الصلاة والصوم... الحديث، وفيه: «إنّما هذه ركضة من ركضات الشيطان، فتحيضي ستة أيام أو سبعة أيام في علم الله ثم اغتسلي» (رواه أحمد ٢٦٦٠٣، ٢٦٩٢٨، وأبو داود ٢٨٧، والترمذي ١٢٨، وابن ماجه ٦٢٢، ٦٢٧).

وأما الأذى في الجانب النفسي فيدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة: ١٠).

وأما من السنة فحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءًا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدّث المرء نفسه؛ فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصلِّ ولا يحدِّث بها الناس» (رواه البخاري ٦٩٨٨، ومسلم ٢٢٦٣، واللفظ له).

وفي رواية للبخاري (٧٠١٧): قال أبو هريرة: «وكان يُقال: الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله». وقد رواه أحمد وابن ماجه مرفوعًا.

والمدخل الثاني للشيطان: حرصه على إغواء الإنسان وإضلاله وصدّه عن طاعة الله، وهذا لا يحتاج إلى استدلال؛ فنصوص القرآن والسنة متضافرة عليه،

وهو معلوم لدى كل مسلم بالضرورة، لا يكاد يختلف فيه رجلان من المسلمين.

إنّ من مهام المربي وقاية أولاده من الشيطان وحمايتهم من تأثيره عليهم في أبدانهم، أو إيمانهم وطاعتهم لله، ولذلك وسائل عدة، منها:

أولاً: إبعادهم عن مواطن تسلُّط الشيطان عليهم وإيذائه لهم، ومن ذلك ما ورد في الأحاديث المذكورة آنفًا.

ثانيًا: الاستعاذة بالله -عز وجل-، ومن الاستعاذة ما يكون من الوالدين، وأول ذلك: الاستعاذة عند المعاشرة؛ فعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال: بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا؛ فَرُزِقَا ولدًا، لم يضرّه الشيطان» (رواه البخاري ٣٢٧١، ومسلم ١٤٣٤).

ثالثًا: تعليم الأولاد الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند المواطن التي قد يتعرضون فيها لتسلُّطه عليهم، ومن ذلك دخول الخلاء؛ فعن زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ هذه الحشوش مُحْتَضَرَة، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث» (رواه أبو داود ٦).

والاستعاذة بالله عند الغضب؛ فعن سليمان بن صُرد ﷺ قال: «كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبَّان، فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد. فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوَّذ بالله من الشيطان، فقال: وهل بي جنون؟» (رواه البخاري ٣٢٨٢، ومسلم ٢٦١٠).

ومن مواطن الاستعاذة بالله عند نزول منزل؛ فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: سمعت خولة بنت حكيم السلمية ﷺ تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من

نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» (رواه مسلم ٢٧٠٨).

ومن المهم تعليم الأولاد مثل هذه الآداب، وأن يُصحَب التعليم بالتعويد على تطبيقها والمتابعة على ذلك، وبتعليل وبيان الحكمة من الاستعاذة؛ فإنّ هذا يعينه على استحضار هذه المعركة بينه وبين الشيطان، ويُنمِّي الدافع لديه نحو المحافظة عليها والقيام بها.

رابعًا: في مقابل تحذير الأولاد من الشيطان لا ينبغي أن يغفل المربي عن الاعتدال وبيان أن كيد الشيطان ضعيف، وأنّ المسلم إذا استعان بالله أعانه الله وحماه من الشيطان، قال -عز وجل-: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٧٦).

ومن هذا الباب اجتناب مسالك بعض الناس في حديثهم عن الجان والتوسع في حكاية أخبارهم وأساطيرهم بصورة تؤصِّل الخوف والقلق لدى الأطفال، وتعطيهم هالة غير صادقة عن واقع الجن، وتحدث لديهم خللاً في التعامل مع الغيبيات.

الفتيا والتعليم على الدابة

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل، فقال: لم أشعر؛ فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال: اذبح ولا حرج. فجاء آخر فقال: لم أشعر؛ فنحرت قبل أن أرمي. قال: ارم ولا حرج. فما سئل النبي ﷺ عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج» (رواه البخاري ٨٣).

وقد بوّب البخاري على هذا الحديث: (باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها).

لقد أخبر ﷺ عن نفسه أنّ الله -عز وجل- بعثه معلِّمًا، فعن جابر بن عبد الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يبعثني معنّتًا، ولا متعنّتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسّرًا». (رواه مسلم ١٤٧٨).

لذا فقد كانت مهمّة التعليم لا تفارقه ﷺ، فكان يعلِّم في السِّلم والحرب، في السراء والضراء، في السفر والإقامة.

كان ﷺ يعلِّم أصحابه وهو يخطب فيهم الجمعة، ويعملّهم وهم متحلّقون حوله يتلو عليهم القرآن، أو يعلمهم ما أوحى الله إليه من وحي غير متلوّ.

ولكن هذا لم يكن الميدان الوحيد للتعليم، بل كان التعليم حاضرًا، يمارسه ﷺ في كل موقف وموطن.

وحين نتأمل هذا الهدي النبوي، ونعود إلى واقعنا نرى أنّ نمط التعليم النظامي قد ترك آثارًا في كثير من الممارسات التعليمية، وهذه الآثار منها ما هو إيجابي، ومنها ما ليس كذلك.

وهي -أيْ: هذه الممارسات- تتطلب من المربين الوعيَ بها، والسعيَ لتلافي آثارها السلبية، والاجتهادَ في تطوير أدوات تتيح تطبيق التجارب المنتجة التي لم يستطع نمط التعليم القائم استيعابُها واستثمارها.

لقد ارتبط الدور التعليمي الذي يقوم به كل من المعلم والمعلمة في التعليم النظامي بدرجة أساس فيما يؤدَّى داخل الصف الدراسي؛ من خلال ممارسة التدريس للمقرر بشكل مباشر.

ورغم تقديرنا لما يقوم به المعلمون والمعلمات من جهد في تعليم أبنائنا وبناتنا، وما يلاقونه من معاناة جرَّاء ضعف دافعية المتعلمين، وتدنّي جديتهم، وقصور تحصيلهم، رغم تقديرنا لذلك كله وإيماننا بصعوبة مهمّة التعليم؛ فإنّ شعورنا بحجم المسؤولية عن الأجيال، وبأن الأطفال الذين يعيشون اليوم على مقاعد الدراسة بعد عقود سيصبحون هم رجال المجتمع ونساءه، وهم أصحاب القرار.

إنّ هذا الشعور يدعونا لأن ننتظر المزيد ونطالب المربين بالمزيد، وأحسب أنّ المعلم والمعلمة لو ذكّروا أنفسهم بهذا الأمر لاسترخصوا كل جهد يبذلونه في ذلك.

يلتقي الطالب والطالبة بمعلمهم ومعلمتهم في الصفّ الدراسي، ويلتقون به في ممرات المدرسة، ويلتقون به في مكتبه، وربما خارج المدرسة، ويتيح اتساع دائرة هذا اللقاء ما لا يتيحه الفصل الدراسي.

إنه يفتح أمام المعلم والمعلمة فرصة جديدة؛ إذ هو لقاء يزول فيه كثير من التكلف، ويتّسم بقَدْر من العفوية والتبسُّط، وعلى الرغم من أن اللقاء المحفوف بالتقاليد التعليمية والأكاديمية يُتيح فرصًا للتعلُّم، فاللقاء العفوي يتيح فرصًا أخرى.

إنّه فرصة لأن يرى المتعلم الوجه الآخر من معلمه، ذلك الذي ربما جهله وهو لا يراه إلا متحدثًا بلغة التدريس والتعليم، ومُصدِرًا للأوامر بالإنصات والسماع، ومعاتبًا على التقصير في الواجب والتحصيل.

وهو فرصة لأن يتحدث المتعلم بعفوية وينطلق بسجيته وتكوينه، فيتيح له ذلك الجو التعبير عما لا يجيد التعبير عنه بلغة الفصل المتكلفة، ويتيح له قدرًا من التواصل والحوار والنقاش أكثر مما يتيحه جوّ الفصل الدراسي.

وهو فرصة لأن يعبّر المتعلم عما يختلج في نفسه، أو يستحي من أن يتحدث فيه أمام زملائه هربًا من سخرية بعضهم أو كونه مما يستحيا منه.

وهو يتيح للمعلم والمعلمة تواصلاً فرديًا يراعي فيه قدرة المتعلم على الفهم والاستيعاب، ويقيم إدراكه وفهمه؛ فهو حديث وتواصل فردي لا حديث أمام جمع من المتعلمين.

إنّ هذا التواصل يتيح اللقاء مع المتربين في مواقف عملية يتم من خلالها تطبيق ما تعلموه، وهذا ما يهيئ للمعلم فرصة البناء والتشجيع، والتصحيح والتسديد.

إنّ المتعلم يتوضأ في المدرسة أمام ناظري معلّميه، ويؤدي الصلاة فريضة ونافلة، ويقضي في مدرسته أوقاتًا في نهار الصيام.

كان ﷺ مع أصحابه في سفر وهم يتوضؤون فرأى منهم تقصيرًا في الوضوء

فرفع صوته ﷺ محذِّرًا لهم؛ فعن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: «تخلّف عنا النبي ﷺ في سفرةٍ سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار. مرتين، أو ثلاثًا» (رواه البخاري ٦٠، ومسلم ٢٤٠).

وكثيرًا ما كان ﷺ يرشدهم ويعلّمهم ويصحّح لهم ما يقعون فيه من خطأ وهم يؤدون الصلاة، وأبلغ مثال على ذلك حديث المسيء صلاته الذي دخل فصلى ولم يُحسِن الصلاة، فدعاه النبي ﷺ وعلّمه كيف يؤدي الصلاة، وأصبح هذا الحديث من أهم الأدلة التي يَستدل بها أهل العلم على أعمال الصلاة وأركانها.

وكما أن المعلم يرى المتعلم وهو في مواقف العبادة فهو كذلك يراه وهو يمارس مواقف الحياة الأخرى، يراه يتعامل مع زملائه جادًّا ومازحًا، يراه يختلف معهم ويلتقي، يراه يتعامل مع المرافق العامة متمثلة في المدرسة، يراه يلتزم بسلوك النظام والانضباط أو يخلّ بذلك، يراه يلتزم بالنظافة أو لا يلتزم.

وكلها مجالات مهمة ضمن دائرة اهتمام المربين.

إنّ اعتناء المعلم بتوسيع مجال التعليم وميدانه يتوقع منه أن يحقق نتائج عدة، منها:

- الإسهام في تجاوز مشكلة الفصل بين العلم والعمل، وبين النظرية والتطبيق؛ فالمتعلمون يتلقون الكثير في الفصل الدراسي لكنَّ الواقع العملي يدل على فجوة بين ما يعلمون وما يعملون.

- الانتقال بالمتعلم إلى الواقع المحسوس وتجاوز التجريد الذي اعتاد أن يتعامل معه بصورة ربما تكون مبالغًا فيها من خلال الكتاب أو الفصل الدراسي.
- ربط العلم بحياة الطالب، وشعوره بأن المدرسة مؤسَّسَة من مؤسسات المجتمع لا تنفصل عنه، وأن ما يدرسه ويتعلمه فيها ليس لمجرد الامتحان والاختبار.

حتى يتحقق هذا الدور وهذه المهمة للمعلمين نحتاج إلى تذكير أنفسنا دومًا بالمسؤولية، وأنها ليست قاصرة على المهام التعليمية الروتينية أو المهام الإشرافية والإدارية، فهي بناء للجيل وإعداد له.

ونحتاج إلى حُسْن ممارسة هذا الدور؛ فهو ليس مجرد زجر لمن يقع في الخطأ، أو انتقاد للسلوك غير الملائم، بل هو تأييد وتشجيع، وهو إعانة وتسديد، وهو أيضًا إتاحة للفرصة لمزيد من التواصل بين المتعلم ومعلمه.

لا زلت أذكر ذلك المعلم الذي كان الطلبة يتحلّقون حوله ليسمعوا منه أو ليصافحوه، أو يستمتعوا بمداعباته، أو ليشعر بعضهم بشيء من قيمته حين يرى هذا الإنسان يبتسم له، ويسأل عن أخباره في مجتمع لم يسمع فيه إلا الزجر والتهوين من شأنه، فكم هي تلك المعاني التي صنعها في طلابه وأبنائه!

۞ ۞ ۞



ارجعوا إلى أهليكم وعلموهم

عن مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتينا إلى النبي ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقًا، فلما ظنَّ أنَّا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا؛ سألَنا عمَّن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلِّمُوهم، ومُرُوهم، وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها، وصلُّوا كما رأيتموني أصلِّي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم» (رواه البخاري ٦٣١).

في هذا الموقف التربوي يوجّه المربي الأول ﷺ هؤلاء الفتية إلى أن يقوموا بمهمة التعليم للآخرين.

وقد كان هذا دأبه؛ حيث كان يحث على تعليم العلم وتبليغه؛ ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «بلِّغُوا عنِّي ولو آية...» الحديث. (رواه البخاري ٣٤٦١).

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا؛ فكان منها نقية قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء؛ فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان؛ لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفَعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به» (رواه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢).

إن المربين مأمول منهم أن يحيوا هذه الروح لدى تلامذتهم وأبنائهم، أن

يدفعوهم لنقل العلم وتبليغه للآخرين.

والتربية على هذا العطاء العلمي وتعليم الآخرين يمكن أن تؤدَّى من خلال أدوات عدة، منها:

- ما يتم أثناء الفصل الدراسي: فمن الطلاب من يكون بطيء التعلُّم، ويحتاج إلى مساعدة غيره، أو أثناء الحلقة العلمية في المسجد، ونحو ذلك.
- ومنها ما يتم خارج غرفة الدراسة: بتربية المتعلم على أن ينقل ما تعلَّمه إلى الآخرين، فينقله لأسرته وأهل بيته، وينقله لمن حوله في مجتمعه.

إن إحياء هذه الروح له آثاره على المجتمعات والأفراد، فهو تنشئة من البداية للفرد على الشعور بالعطاء، وأن عليه أن يعطي ويبذل للآخرين، واليد العليا خير من اليد السفلى.

فرقٌ بين مَن يرى أنّ مهمته تدور حول شخصه ونفسه، وأنّ عليه أن يحفظ ما تعلمه أو يفهمه، ويجيب على ما يعطى من سؤال يقيس مدى تعلُّمه، وبين من يتربى على أن يكون إيجابيًا، ويشعر بأن أمامه فرصًا للعطاء، وأنه عضو فاعل في مجتمعه؛ له أثره وله دوره في البناء والتأثير.

بعض ممارساتنا التربوية تسهم في زيادة تمحور الفرد حول نفسه، في أساليب التعليم وخطواته، وفي النصح والتوجيه، وفي الأهداف التي تبرز أمامه.

وبقدر ما يحتاج الفرد إلى النجاح الشخصي والفردي فهو بحاجة إلى الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، والانتماء للمجتمع الذي يُشْعِره بأن عليه نحوه حقوقًا وواجبات.

وهو أيضًا يفتح أمام الشاب والفتاة آفاقًا رحبة للتعامل مع واقعهم، ويقلل

من تمحورهم حول ذواتهم، واختزالهم للحياة ومشكلاتها في شخصياتهم وما يواجهها؛ فتبدو حينها المشكلات الشخصية للشاب والفتاة جزءًا من منظومة حياته، فلا تصبح كل شيء لا ينظر للحياة إلا من خلالها.

وهو أيضًا يهيئ الشاب والفتاة للأدوار الأخرى في حياتهم ومجتمعهم، فينشأ المسلم على العطاء والشعور بالمسؤولية، فينمو هذا الشعور ويزداد، وينمو معه مع تقدم العمر موضوع المسؤولية وأدوات القيام بها.

وحين ندفع المتعلم للقيام بالتعليم وتوصيل ما يعلم للآخرين؛ فإنّ هذا يزيد من ثقته بنفسه، ويشعره بالقدرة على النجاح، والثقة بالنفس لن تُصنع من خلال توجيه الشاب والفتاة أو أمرهم أمرًا مباشرًا. إنها تُصنَع وتنمو في نفسه حين تُتاح له مواقف يشعر من خلالها أنه يعطي، ويشعر من خلالها أنه قادر على النجاح والتأثير في الآخرين.

وحين نتجاوز أثر ذلك على الفرد نفسه إلى المجتمع؛ فإن تنمية هذا الشعور تقود إلى توسيع دائرة الإفادة من العلم، وألّا يتمحور المتعلّم حول أسوار المدرسة وفصولها.

إنّ الطلبة والطالبات ينتمون إلى أُسَر مختلفة، ومتفاوتة في مستوى تعليمها ومستوى تديّنها واستقامتها، وحين ننمِّي لديهم نشر العلم وإيصال ما تعلموه إلى الآخرين؛ فإن الأبواب سوف تتَّسع أمام رسالة المؤسسة التربوية، وبالأخص في مناطق النواحي والبوادي والتي يغلب أن يكون مستوى تعليم الآباء والأُسَر أقل من مستوى تعليم أولادهم.

ومن المهم الاعتدال في ذلك؛ فلا يقود هذا الأمر الشاب والفتاة إلى أن يقولوا

بغير علم، أو يفتوا في المسائل الكبار التي من شأن أمثالهم أن يقفوا عندها.

والأمر أيضًا يتطلب تزويد المتعلّم بأدوات التبليغ وإيصال العلم، وليس الوقوف عند مجرد الحثّ والأمر بالتبليغ؛ إذ إنه يواجه واقعًا يحتاج إلى من يأخذ بيده للتكيُّف والتأقلم معه، فهو يواجه الكبار، ويرى منهم ما يوجب تعليم ما يجهلون أو النصح فيما ينسون ويغفلون عنه.

إنّ أولادنا وتلامذتنا يملكون قدرًا من الذكاء والقدرة على التفكير والقدرة على إدارة المواقف الصعبة بصورة أفضل، لكنَّ ذلك يحتاج إلى رعاية وتنمية، ويحتاج إلى توجيه من المربي وتسديد.

إننا حين نوجّه الطالب أو الطالبة أن ينشروا ما تعلموا، ونقف عند هذا المستوى فربما يقعون في الحرج، لكن حين نتجاوز ذلك فنضعهم أمام المواقف والمشكلات الواقعة، ونتناقش معهم جميعًا لنصل إلى وسائل وأدوات يستطيعون من خلالها تجاوز الحرج وتجاوز الأزمة التي تعوقهم، سنتوقع حينئذ أن أداءهم سيختلف كثيرًا، ونتوقع أنهم يستطيعون أداء الكثير مما كان يُصنّف قبلُ في دائرة الصعب والمستحيل.

كثيرًا ما تنتهي نظرتنا لطلابنا وطالباتنا وهم في مرحلة الطفولة أو المراهقة، حينها نختزل احتياجهم التربوي كثيرًا، ونختزل الأدوار المنتظَرة والمتوقعة منهم، ونختزل المشكلات فيما يواجهونه في مرحلتهم التي يعيشون.

ولا شك أنّ التعليم والتوجيه ينبغي أن يرتبط بواقع الإنسان، ويراعي سنّه وقدراته ومرحلته العمرية، لكنه ينبغي أن يفترض أن يتعامل مع هذه المرحلة باعتبارها حلقة من سلسلة بناء الإنسان، باعتبارها مرحلة ترتبط بما بعدها.

إنّ كثيرًا من مواقف النجاح والفشل التي مرَّ بها الرجال والنساء وهم كبار، كثيرٌ من هذه المواقف بُنِيَتْ ونشأت في نفوسهم وهم أطفال أو مراهقون.

إننا حين نتأمل طلابنا أو أولادنا وهم صغار نشعر بضآلة الدور المنتظَر منهم، ونشعر بمحدودية المهمة التي يمكن أن يقوموا بها في مجتمعاتهم، وربما كان جزءٌ من هذا الشعور له ما يبرّره.

لكن لو اتّسع أُفقنا وشعرنا أن ما نصنعه وننشئه لديهم من قِيَم واتجاهات سوف يبقى في أنفسهم إلى عقود طويلة؛ فإنّ هذا سيترك أثره على ممارستنا التربوية.

إنَّ مَن ينشأ وهو صغير على الخجل من مواجهة الآخرين، وعلى ضعف التواصل معهم، لن نتوقع منه حين يبلغ مبلغ الرجال أن يكون قادرًا على العطاء الفاعل في مجتمعه.

ومن ينشأ على أن يعيش لذاته، ويتمحور حول نفسه، لن نتوقع منه مستقبلاً أن يكون معطيًا ومؤثرًا في مجتمعه حين يملك العلم والخبرة والمهارات.



أنكحني أبي امرأة ذات حسب

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كُنَّته فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرّجل من رجل، لم يطأ لنا فراشًا، ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه، ذكر للنبي ﷺ فقال: «القني به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟» قال: كل يوم. قال: «وكيف تختم» قال: كل ليلة. قال: «صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر». قال: قلت: أُطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصم يومًا». قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم؛ صومَ داود؛ صيام يومٍ وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة».

فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ؛ وذاك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئًا فارق النبي ﷺ عليه. (رواه البخاري ٥٠٥٢، ومسلم ١١٥٩).

لنا مع هذا الموقف التربوي من المربي الأول ﷺ وقفات عدة:

الوقفة الأولى: اعتناؤه ﷺ بعلاج مشكلات أصحابه، وإعطاؤه وقتًا لذلك، فما أن استمع ﷺ شكوى والد عبد الله بن عمرو ﷺ حتى طلب اللقاء به والحوار معه.

إنّ الاعتناء باللقاء مع أولادنا وتلامذتنا يحقّق أهدافًا عدة:

الهدف الأول: أنه يُشعرهم بقيمتهم ومكانتهم؛ وبخاصة حين يصدر الأمر من

شخص له منزلته وقيمته لديهم، والشعور بالقيمة والمكانة يلبّي حاجة مهمة لديهم، ألا وهي الحاجة إلى القبول من الآخرين.

وحين يشعرون بقيمتهم ومكانتهم سنتوقع منهم مواقف إيجابية، وثقة بالنفس وإنتاجية في حياتهم الشخصية وفي مجتمعهم.

كما أنّ هذا الشعور يقودهم إلى ينظروا إلى أنفسهم نظرة أعلى فيترفّعون عما لا يليق، ويتسامون بأنفسهم إلى مثل عليا.

الهدف الثاني: أنّه يبني جسورًا من التواصل بينهم وبين المربين، ولا نزال نرى فئة من الأولاد أو التلاميذ يعرفون مَن يربيهم جيدًا، ويتلقون منه ويسمعون، لكنهم لا يتجرؤون على الحديث عما في أنفسهم أو على فتح الحوار معهم، ومن شأن هذه اللقاءات أن تكسر هذا الحاجز، وأن تُكسِبهم الجرأة على التواصل والحديث مع المربي والمعلِّم، وربما قادهم ذلك إلى المبادرة في طرح قضاياهم ومشكلاتهم.

والهدف الثالث: من أهداف اللقاء مع المتربين أن يتيح للمربي الفرصة في اكتشاف ما قد يخفى عليه مما يهمّه من شأن تلميذه، سواء ما يتصل بالمشكلة محل النقاش، أو غير ذلك من جوانب شخصيته، وهذا الأمر له أثره الإيجابي ما لم يتجاوز قدر الاعتدال، وما لم يجنح المربي للتطلّع والتجسُّس؛ فوظيفة التربية ونبل الغاية لا يبرر له استخدام ما نهى عنه الشرع من الوسائل.

الوقفة الثانية حول هذا الحديث: أنّه ﷺ التقى عبد الله بن عمرو ﷺ لقاءً فرديًا، بعيدًا عن الناس، وبعيدًا عن الحديث في مجامع عامة، وهذا يُشعِره بخصوصيته، كما يُشعِره بتقدير المربي لشخصه وبُعده عن إيقاعه في الحرج أمام الآخرين.

الوقفة الثالثة: هذا الحديث يدل على اعتنائه ﷺ بالاستماع لعبد الله بن عمرو ﷺ، والاعتناء بالاستماع للمتربي أمرٌ له أهميته، ومن آثاره على بناء شخصيته ما يلي:

- أنه يحقّق له مزيدًا من الإشعار بقيمته ومنزلته.
- أنه يشعره بأن المربي حين يناقشه ويحاوره قد استوعب ما لديه وسمع ما عنده، وهذا يزيده ثقة بما يقول؛ فحين لا يُسمع له قد يفترض أن المربي لا يعرف واقعه، ولا يعي دوافعه من وراء هذا العمل.
- أنه يتيح للمربي أن يستجلي الأمر، ويتضح له على حقيقته، فربما وصلته بعض الحقيقة، وربما علم بالأمر على حقيقته لكنه أخطأ في تفسيره؛ فالاستماع يزيل كل لَبْس أو غموض في ذلك.
- إن الاستماع للمتربي والتواصل الشخصي معه ينمّي لديه القدرة على التواصل مع الآخرين، ويعلّمه كيف يتحدث مع الأكابر.

إنّ كثيرًا من الصغار لا يُتاح لهم أن يتواصلوا مع الكبار أو يتحدثوا معهم؛ فيُنتج ذلك أحد أمرين:

إما السكوت والعجز عن الحديث عن حقوقهم ومطالبهم، أو الانطلاق في الحديث على سجية الصغار فيوقعهم ذلك في سوء الأدب والتجاوز بحق الكبار.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ وتواصله وحديثه مع الصغار من أصحابه أدرك هذه الجرأة على الحوار والحديث دون إخلال بالأدب مع أكبر أكابر البشر ﷺ.

فها هو عبد الله بن عمرو ﷺ يراجع النبي ﷺ في هذا الموقف مرارًا، وبغض النظر عن نتيجة تلك المراجعة، أو موقفه منها فيما استقبل من عمره، لكنها لم تصدر

عن فراغ، ولو لم يكن عبد الله بن عمرو ﷺ معتادًا على صاحب القلب الكبير ﷺ، لما تجرأ على المراجعة والمناقشة.

وعن **سهل بن سعد** ﷺ، قال: أتي النبي ﷺ بقدح، فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم، والأشياخ عن يساره، فقال: «يا غلام أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ»، قال: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحدا يا رسول الله، فأعطاه إياه. (رواه البخاري ٢٣٥١، ومسلم ٢٠٣٠).

ففي هذا الموقف أصرّ هذا الغلام على حقّه، ولم يَقُدْه ذلك لتجاوز حدود الأدب في حق النبي ﷺ.

«ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسنّ منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم». (المستطرف في كل فن مستظرف١/ ٤٥).

وروي أن الغلام ردّ بأبلغ من ذلك فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّما المرءُ بأَصغريه، قلبِه ولسانِه، فإذا مَنَح اللهُ عبدَه لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا، فقد أجاد له الاختيار؛ ولو أن الأمور بالسن لكان ها هنا مَنْ هو أحق بمجلسك منك. فقال عمر: صدقت، تكلّم؛ فهذا السحْرُ الحلال!...». (زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٣).

لقد كان ﷺ يستمع لمن يربّيهم ويُنصت، ولو في غير موقف الاستشارة أو المشكلة كما في حديث عبد الله بن عمرو الذي ذكرناه، يُنْصِت لهم ﷺ حتى في المواقف التي ربما يراها بعض الناس لغوًا لا طائل من ورائه.

تحكي أم المؤمنين عائشة ﵂ كيف أنصت لها ﷺ وأصغى لها سمعه وهي تحكي له خبر نسوة في الجاهلية يصفن حال أزواجهن، قالت ﵂: «جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألَّا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا...... الحديث

(رواه البخاري ٥١٨٩، ومسلم ٢٤٤٨).

هذا الحديث بطوله يبيّن مدى إنصاته ﷺ لعائشة ﵂ وهي تحكيه له، وهو ليس حديث معاناة، أو مشكلة يحتاج اتضاح معالمها، بل هو حكاية وقصة غابرة.

إنّ المسافة واسعة بيننا وبين أطفالنا وتلامذتنا، وحين نقيس أهمية استماعنا وإنصاتنا لما يتحدثون به ويتفاعلون معه، بمقياسنا الشخصي نخطئ كثيرًا.

إن ما نراه قليل الأهمية بالنسبة لنا قد يبدو ذا بال بالنسبة لهم، ويتوقعون منا الإصغاء والإنصات لهم وهم يحُدِّثوننا.

وحين يتحدث لنا أولادنا فهم في الأغلب لا يريدون أن نكتفي بالسماع والإنصات فحسب، بل ينتظرون منا التفاعل معهم والتواصل الذي يشعرنا بأن ما يتحدثون به يعنينا.

ومن صور التفاعل الإيجابي في ذلك:

- طلب الإعادة والتكرار بصورة لا توحي بالتجاهل أو عدم الإصغاء لما كانوا يقولون.
- السؤال وطلب بعض التفاصيل؛ فحين رأى النبي ﷺ ذات يوم أبا عمير -أخا أنس بن مالك ﵁ حزينًا؛ فقال: «ما شأنه؟ قالوا: مات نُغَرُهُ. فقال يا أبا عُمَيْرِ؛ ما فعل النُّغَيْرُ».

(رواه بهذا اللفظ أبو داود ٤٩٦٩، وأخرجه البخاري ٦١٢٩، ومسلم ٢١٥٠ بغير هذا السياق).

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟) بِنونٍ وَمُعْجمة وراء مُصغَّر... وهو طَير صغير واحِده نُغْرَة، وجمْعه نُغْرَان» (فتح الباري ١٠/ ٥٨٣).

- التعليق والربط من المربي والتحليل، وهذا أمرٌ له أهميته في تنمية قدرات الطفل العقلية ومهارات التفكير لديه، وبخاصة حين تكون القصة التي يحكيها قصة حقيقية.
- توجيه أسئلة إلى الطفل، وهذه الأسئلة تتطلب منه أن يوظِّف القصة التي سمعها وحكاها في مواقف أخرى في الحياة، وأن يتجاوز الوقوف عند مجرد سرد القصة إلى الوعي بها.

ومن الأسئلة المناسبة في ذلك:

» ماذا تفعل لو كنت مكان بطل القصة؟

» ما الذي أعجبك في الموقف؟ وما الذي لم يعجبك؟

» ما الذي يتفق مع الدين في هذا الموقف؟ وما الذي يختلف؟

» ماذا تتوقع لو حصل كذا وكذا؟

» وماذا تتوقع لو لم يحصل كذا وكذا مما ذكرته في القصة؟

- أن نطلب من الطفل أن يقص هذه الحكاية والخبر على الآخرين حين تعجبنا.
- أن نطلب منه أن يكتب عنها نبذة مختصرة.
- أن نطلب منه أن يقترح عنوانًا للقصة.

- أن نطلب اقتراح أسماء لأصحاب القصة لها علاقة بأدوارهم فيها، مثل: متفائل، كريم، سهل، جواد... إلخ.
- إبراز الإعجاب والتفاعل والإشادة بما يستحق الإشادة مما ذكره في حديثه.
- مبادلة الحديث، وذكر موقف آخر يتوافق مع ما ذكر، أو يحكي الصورة المخالفة والمناقضة لذلك، ويمكن أن نطلب منه بعد ذلك أن يقارن بين الموقفين.

ومن صور الاستماع للمتربي: الاستماع لشكواه والإنصات له، والتعاطف معه في ذلك، والدعاء له، فكثير من الشكاوى ينتظر صاحبها من الآخرين أن يشاركوه مشاركة وجدانية ويتعاطفوا معه، ويقدر موقفهم حين يفعلون ذلك، ولو لم يقدّموا له حلاً ذا بال.

وفي قصته ﷺ مع عبدالله بن عمرو ﵄ وقفة أخرى.

فقد عرض النبي ﷺ على عبد الله بن عمرو ﵄ أن يقرأ القرآن في شهر، ثم في الشهر مرتين، ثم في الأسبوع مرة حتى وقف عند الثلاث، ونهاه عمّا هو أكثر منها، وتدرَّج معه ﷺ في الصيام من ثلاثة أيام إلى صيام يوم وإفطار يوم.

إنّ هذا الإرشاد من المربي الأول ﷺ يدل على أن المتربي يحتاج إلى أن يعيش في فسحة وسعة من أمره، ويحتاج إلى أن يرى أن أمامه فرصة واسعة في الاختيار واتخاذ القرار.

ففي هذا الموقف التربوي عاش النبي ﷺ مع عبد الله بن عمرو ﵄ حلقات من المفاوضة والحوار، وأعطاه مدى من الحرية والاختيار؛ لأن ذلك كله في إطار المشروع.

إنّ البشر لا يُقادون من خلال الأوامر الصارمة فحسب، ولا من خلال رسم خطّ محدد لا يتجاوزونه ولا يخرجون عن إطاره، إنهم بحاجة إلى أن يشعروا أنهم يمارسون قدرًا من الاختيار، وأنهم يسهمون في رَسْم قراراتهم وخطواتهم.

إنّ ممارسة الناس لهذا الدور تُشْعرهم بقيمتهم وشخصيتهم، وتشعرهم باستقلالهم عن الآخرين؛ فالحرية أصل في حياة الإنسان.

كما أن ممارستهم لهذا الدور تزوّدهم بالقدرة والآلية على اتخاذ القرارات المهمّة في حياتهم، واتخاذ القرار أمر لا يستغني عنه المرء في حياته الشخصية والأسرية، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي دراسته ودعوته وتواصله مع الآخرين.

وإتقان اتخاذ القرار ليس عملية معرفية يتقنها الإنسان حين يحفظ مجموعة من الخطوات والإجراءات، فلا غنى له عن ممارسة عملية لاتخاذ القرار في حياته؛ فيخطئ ويصيب، ويكبو وينهض، ويستفيد من نجاحه وإخفاقه.

أين هذا الهدي النبوي من فئة من الآباء والأمهات يدفعهم الحدب والحرص على أولادهم إلى أن يرسموا لها خطًّا واحدًا في حياتهم كخطّ القطار لا يحيدون عنه يمنةً ولا يسرةً، ويتدخلون في تفاصيل حياتهم من خلال توجيه صارم محدَّد؟

وأين هذا الهدي عمّا يسلكه بعض المربين من اغتيال لحرية الأفراد، وانتهاك لخصوصياتهم؛ فيفرضون عليهم سياجًا لا يتجاوزنه حتى لا يتعدد التوجيه ولا يتذبذب هؤلاء المتربون؟ وكأن المربي قد امتلك مفاتيح العلم واحتوى خبرات القدماء والمُحْدَثين.

إنّ من لا يتنفس الهواء الطلق، ومَن لا يعيش أجواء الحرية لن ينمو بشكل صحيح، وحاله أشبه ما تكون بما ينبت في البيوت المحمية، ولئن استطاع هذا النموذج التعايش مع مرحلة سابقة فلن يكون قادرًا على التعايش مع المرحلة المعاصرة بأزماتها وتحدياتها.

لا مجال للمقارنة بين حق النبي الكريم ﷺ وحق الأبوة، وحق المعلم، ومع ذلك ربَّى ﷺ أصحابه على أن من حقهم النقاش والحوار، ومن حقهم إبداء الرأي فيما يقوله ﷺ؛ ما لم يكن ضمن دائرة التشريع، ولم يكن خروجًا عن الأدب معه ﷺ، أمّا سائر الناس فمهما بلغوا من القدرة والإمكانات، ومهما كان لهم من الحق والمنزلة فلن يبلغ ذلك ولا قريبًا منه ما للرسول ﷺ من حق ومنزلة، وما يتَّسم به من قدرات وعلم وإمكانات.

ومما نلمسه في هذا الموقف التربوي المرونة منه ﷺ؛ وهي خصلة مهمّة يحتاجها المربي، فهو يحتاج إلى المرونة في الأهداف، ويحتاج إلى المرونة في الوسائل والأساليب، ويحتاج إلى المرونة في التوجيهات والآراء.

وحين يتربى الفرد في أجواء مرنة يتَّسع أُفقه، وتنمو قدرته على استيعاب المتغيرات والعوارض؛ فحياته لن تكون على وتيرة واحدة، وستواجهه مواقف متباينة ومتناقضة في حياته الشخصية، وفي حياته الدراسية، والعلمية والدعوية.

وحين يملك المرونة سيكون قادرًا على التكيُّف مع هذه الأوضاع، وعلى تطوير أدوات وحلول جديدة يواجه بها المشكلات المستجدَّة في حياته.

أمّا الذين يفتقدون المرونة فمن المتوقع أنهم سيصطدمون بمشكلات لا يجيدون التكيُّف معها ولا مواجهتها؛ إذ هم لا يجيدون إلا نمطًا واحدًا في التفكير، ونمطًا

واحدًا في التعامل، وأسلوبًا واحدًا يستعيرونه في كلّ موقف.

كما يحتاج المربي إلى المرونة ليحسن التعامل مع اختلاف طبيعة أولاده وخصائصهم؛ إذ الأولاد مهما بلغوا من التجانس والتقارب فلكلّ منهم طبيعة خاصّة ونمط يختلف فيه عن الآخرين؛ والمربي الذي يمتلك المرونة هو القادر على التعامل مع كلّ منهم بما يلائمه ويناسبه.

لكن المرونة رغم أهميتها وحاجة المربي لها ينبغي أن تُحاط بسياج الشريعة الذي لا يسوغ اجتيازه ولا تسوّره؛ فما حرَّم الله سيبقى حرامًا في كل عصر ومِصر؛ لا تبيحه إلا الضرورة المبيحة لمثله، وما أوجبه الله -تعالى- فهو واجب في كل زمان ومكان؛ لا يسقط إلا بعجز المكلف عن أدائه.

ومن هنا نرى أنّ النبي ﷺ مع مرونته مع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقف عند حدّ معين، ولم يسترسل معه فيما بقي، فقال له ﷺ كما في رواية (البخاري ١٩٧٦): «لا أفضل من ذلك».

إنّ متغيرات العصر قادت بعض الناس إلى المبالغة في الترخُّص، بل قادت إلى التسيّب والجرأة على حدود الله؛ احتجاجًا بتغير العصر ومجاراته، وهذا تجاوز للمنهج النبوي.

وكما أننا بحاجة لاستيعاب تحديات عصرنا والتفاعل الإيجابي مع متغيراته؛ فنحن أيضًا بحاجة إلى التأكيد على معاني الثبات والرسوخ، وبحاجة إلى التحذير من الزيغ والخلل، وكما أن التصلب والتحجّر في غير موطنه مذموم، فالتفلّت والجرأة على حدود الله مذموم هو الآخر.

إنما نهيتكم من أجل الدافة

عن عبد الله بن واقد ﷺ، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، قال عبد الله بن أبي بكر: فذكرت ذلك لعمرة، فقالت: صدق، سمعت عائشة، تقول: دف أهل أبيات من أهل البادية حضرة الأضحى زمن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ادخروا ثلاثا، ثم تصدقوا بما بقي»، فلما كان بعد ذلك، قالوا: يا رسول الله، إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم، ويجملون منها الودك، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال: «إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت، فكلوا وادخروا وتصدقوا» (رواه مسلم ١٩٧١).

قال ابن حجر: «وفي رواية جويرية عند مسلم: (دفَّ أهل أبيات)؛ أيْ: ورد جماعة بأهليهم شيئًا بعد شيء؛ يسيرون قليلاً قليلاً، والدفيف السير اللَّيِّن، وكأنهم كانوا قد أصابهم جدب في بلادهم فانتجعوا المدينة» (فتح الباري ٦/ ٢٠٥).

وروى أيضًا من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «من ضحى منكم فلا يصبحن في بيته بعد ثالثة شيئًا»؛ فلما كان في العام المقبل قالوا: يا رسول الله؛ نفعل كما فعلنا عام أول؟ فقال: «لا؛ إن ذاك عام كان الناس فيه بجهد، فأردت أن يفشو فيهم» (رواه مسلم ١٩٧٤).

يورد المحدثون هذا الحديث في أبواب الأضحية، وهو أصل في حكم ادّخار لحوم الأضاحي، وفي الأكل منها والصدقة.

لكن مواقف النبي ﷺ أوسع من أن تستوعب، فقد أُوتي جوامع الكلم، وأُعطي من الفصاحة والبيان ما لم يُعْطَه غيره.

فلنقف وإياكم فيما يتيسّر مع بعض الوقفات التربوية في هذا الحديث، ولنتأمل في هذا الموقف النبوي.

حين نهى النبي ﷺ أصحابه عن ادخار لحوم الأضاحي أخبرهم عن علة هذا النهي، وحين انقضى موجب النهي أخبرهم ﷺ عن العلة.

وتبدو الشواهد الأخرى لهذا الموقف عديدة في سُنّته وهديه ﷺ، فحين حدَّثهم ﷺ عن سؤر الهرة قال: «إنها ليست بنجس؛ إنها من الطوّافين عليكم والطوّافات» (رواه أحمد ٢٢٠٢٢، وأبو داود ٧٥، والترمذي ٩٢، والنسائي ٦٨، وابن ماجه ٣٦٧).

وحين سئل عن الصيام عن الميت قال للسائلة: «أرأيت لو كان على أمك دَيْن أكنت قاضيته» (رواه البخاري ١٨٥٢، ومسلم ٢٦٣٣).

وحين سأله أصحابه عن بيع الرطب بالتمر قال: «أينقص الرطب إذا يبس؟ قالوا: نعم». (رواه أبو داوود ٣٣٥٩، والترمذي ١٢٢٥، والنسائي ٤٥٤٥، وابن ماجه ٢٢٦٤). فنهاهم عن ذلك ﷺ، وبيّن لهم العلة.

وحين نهاهم عن بيع الثمر قبل أن يبدو صلاحه بيَّن العلة بقوله: «أرأيتمّ إن منع الله الثمرة؛ بِمَ يستحلّ أحدكم مال أخيه؟» (رواه البخاري ٢١٩٩، ومسلم ١٥٥٥).

والمواقف في سنته ﷺ يضيق المقام عن استيعابها.

وفي كتاب الله -عز وجل- جاء الحديث عن مقاصد الشرع في آيات متعددة.

ففي الطهارة قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦).

وعن الصلاة بقوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

وعن الزكاة بقوله -عز وجل-: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة: ١٠٣).

وعن الحج بقوله -سبحانه-: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

إن المؤمن يسلِّم أمره لله -سبحانه وتعالى-، ويستسلم لأمر خالقه دون سؤال أو تردُّد، وإيمانه يفرض عليه ألّا يتوقف امتثاله على إدراك الحكمة؛ فهو يمتثل سواءً أدرك الحكمة أم لا.

ومع هذا فإن إدراك الإنسان لحكمة التشريع، وإدراكه لعلة مشروعية الأمر له آثار عدة، منها:

- زيادة إيمانه ويقينه، وإدراكه لعظمة شرع الله -سبحانه وتعالى- وللإعجاز في شرعه.
- ومنها تنمية قدراته العقلية؛ فالنقل والعقل صنوان وشقيقان، فلا الشرع جاء بما يناقض العقل السليم، ولا العقل الصحيح يقضي بما يخالف الشرع.
- كما أن منها إدراك قواعد الشريعة ومقاصدها، مما يتيح الرؤية الكلية لدى المتربي وفهم تفاصيل الأحكام في إطار الكليات، والمسائل في إطار القواعد.
- تنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع المستجدَّة، والأوضاع الحادثة.
- تنمية الاعتزاز بالدين، وتقوية الحصانة لدى الناشئة ضد الغزو الذي يواجههم بما يشكّكهم في الدين، أو يلبس عليهم أمر عقيدتهم، وبخاصَّة مع اتِّساع التواصل مع العالم الآخر عبر تطوُّر وسائل الاتصال والإعلام.

إنّ هذا الأمر يتطلب من المربين مزيدًا من العناية، فيعنوا به في تعليم أحكام الشريعة وآدابها؛ ويعنوا ببيان مقاصد الشريعة بما يلائم سنّ المتربي وإدراكه، سواء ما يتصل بالواجبات والفرائض، أو ما يتصل بالنواهي والمحرمات، وسواء ما يتصل بالعبادات بين العبد وربه، أو ما يتصل بالأخلاق والسلوك والتعامل مع الآخرين.

وإذا كان هذا فيما يتصل بأحكام الشريعة وآدابها، فمن باب أولى العناية به فيما يقدم لهم من برامج وأفكار، أو أوامر ونواهٍ.

فتعليل ذلك وبيان بواعثه ينمي قدرتهم على التفكير، وعلى التعامل مع المواقف المستجدة بصورة إيجابية ويزيد من قدرتهم على تطبيق ما تعلموه على مواقف جديدة.

أما حين يعتادون على الأمر والتوجيه المجرد والجافّ فلن يكونوا قادرين على التعامل مع المواقف الجديدة، وسيبقون بانتظار الأمر والنهي أو التوجيه الذي اعتادوه من آبائهم وأمهاتهم.

لكن من المهم مع ذلك: الاعتدال، وألّا يقود الحرص على التعريف بمقاصد الشريعة وعلل الأحكام، إلى أن يقف الامتثال والاستجابة على هذه المعرفة والاقتناع، فهذا يتنافى مع قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ويتنافى كذلك مع قوله -سبحانه-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وعند تناول هذه المسألة ينبغي التفريق بين تفاصيل الأحكام وأصلها؛

فالتفاصيل قد لا يدرك الناس الحكمة منها رغم يقينهم أنّ شرع الله -عز وجل- لا يخلو من حكمة، فهم يدركون حكم الصلاة العظيمة، لكنهم لن يدركوا حكمة أعداد الصلوات المفروضة وأوقاتها.

وهذا كله مما يمكن إقناع الناشئة به وغرسه لديهم فيرسخ إيمانهم ويستقيم، ويكونوا قادرين -بإذن الله- على مواجهة من يشكّكهم، أو يعترض على شرع الله -عز وجل- وحكمته في ذلك. كما أنه يحقّق التوازن بين إدراك حكم التشريع ومقاصد الأحكام، وبين التسليم والخضوع لله -تبارك وتعالى-.

وفي هذا الحديث -حديث الدّافة- يحكي عبد الله بن واقد ﷺ كيف كانوا أهل حاجة وفاقة، لكن تلك الحاجة والفاقة تلاشت آثارها، حينما وردوا على صاحب القلب الرحيم الذي وسع الناس بخُلُقه وكرمه وسخائه ﷺ.

إنّ سخاء المربي الأول ﷺ لم يكن ليقف عند حدود المظهر المادي، وكرمه ﷺ لم يكن لينتهي عند شخصه، بل ها هو ﷺ يربي أصحابه وأمته على الكرم والسخاء.

فالنبي ﷺ يوظّف الموقف القائم آنذاك في المدينة، فالناس قد ضحّوا ضحاياهم، وكانت طبيعة الحياة آنذاك تدعوهم إلى أن يخزّنوا اللحم مستخدمين التجفيف والتمليح، ومن هنا فهو ليس بحاجة إلى أن يأمرهم بذبح البُدن لهؤلاء الأضياف، إنما كان يكفي أن ينهاهم عن ادخار لحم الأضاحي أكثر من ثلاثة أيام، وعندها سيضطر الناس لتوزيع ما تبقى منه ليستوعب هؤلاء الوافدين إلى المدينة المحتاجين إلى الطعام.

إن الإنسان لا يعيش معزولاً عن الآخرين، إنه كائن اجتماعي يتواصل مع الآخرين ويتصل بهم، وليس حاله كما قال الأول:

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى   وصوّتَ إنسانٌ فكـدت أطير

لهذا يعد السجن الانفرادي عقوبة لصاحبه، فهو عقوبة إضافية على تلك التي يقضيها السجين.

يحتاج المرء للآخرين ليستأنس بهم، ويحتاج إليهم ليتواصل معهم، ويحتاج إليهم لتتم مصالحه؛ فمصالح الإنسان لا يمكن أن تتحقّق له دون التواصل مع الآخرين، وهذا التواصل مع الآخرين يتطلّب اكتساب مهارات وقدرات، فيتطلب الأمر أن يتربى الإنسان على ذلك، يعيش المرء في مجتمعه وتتعلق كثير من مصالحه الدينية والدنيوية بالمجتمع، ويتوقف تحصيلها على ذلك، ومن هنا فهو بحاجة إلى أن يتربى على التعامل مع المجتمع بصورة إيجابية.

في هذا الموقف يؤصل النبي ﷺ لدى أصحابه المسؤولية الجماعية، ويؤصل لديهم أن مسؤولية التنمية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي مسؤولية مشتركة، ينبغي أن يشترك فيها الجميع ويسعى لها الجميع.

إن الأمر يتجاوز مجرد الإسهام المادي والمشاركة بالإنفاق إلى أن تتأصل هذه المعاني لدى المسلم، فيشعر بمسؤوليته تجاه الآخرين، هذا الشعور يستقر في فؤاده فيترجمه الفؤاد إلى سائر الجوارح؛ إذ القلب أمير الجسد، وتتجاوب مع الفؤاد المشاعرُ، فيشعر المسلم بمشاعر التعاطف والتراحم مع إخوانه المسلمين، فيفرح بفرحهم، ويبتهج لابتهاجهم، ويألم لألمهم، ويأسى لمصابهم، وتتجاوب اليد مع الفؤاد فتسخو بالإنفاق والإحسان، ويتجاوب الفكر مع ذلك كله، فيفكر المسلم، ويعمل عقله في قضايا إخوانه، وربّ فكرة فاقت ألوفًا من الدنانير!

إن التربية النبوية لم تكن لتقف عند مجرد الحثّ والتوجيه، بل كانت تدفع الناس

من خلال مواقف عملية يمارسون من خلالها الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، فتمتلئ أزقة المدينة بالغادي والرائح يحمل قطعة من اللحم أو الودك إلى أولئك المحتاجين، ويحمل معها الوفاء والمحبة والابتهاج بتنفيذ أمر رسول الله ﷺ.

كانت تلك المواقف تترك أثرها البالغ على حياة ذلك الجيل؛ فيعيش معاني المسؤولية الاجتماعية والشعور بالجسد الواحد.

في موقف آخر يتكرر هذا المنهج التربوي النبوي، فعن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامّتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتمعّر وجه رسول الله ﷺ؛ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذّن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء: ١)، والآية التي في الحشر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (الحشر: ١٨)؛ تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة».

قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفّه تعجز عنها، بل قد عجزت.

قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «مَن سنَّ في الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». (رواه مسلم ١٠١٧).

إننا بحاجة إلى أن نغرس الشعور بالمسؤولية الاجتماعية لدى أطفالنا، وأن نعلّمهم ذلك منذ نعومة أظفارهم، فما نراه اليوم من أسلوب تعامل الأطفال مع العمالة الوافدة من خارج بلادنا إنما يمثّل خللاً في هذه التربية.

إن الشعور بهذه المسؤولية لن يتحقق من خلال وصايا وتوجيهات، أو من خلال أحاديث عابرة أو غير عابرة عن حقوق الآخرين والتعامل معهم.

إن البرامج العملية التي تتيح لهؤلاء أن يسهموا في بناء المجتمع، وفي تقديم الخير للآخرين، هذه البرامج بالإضافة لتعميقها هذه المعاني ستسهم في إكسابهم مهارات التعامل والإحسان للآخرين، وستزيل الحواجز التي تعوق عن بذل الندى والإحسان.

إنّها مهمّة ينبغي أن يتضافر عليها جهد المؤسسات التربوية بدءًا بالمنزل، فيشعر الطفل بمسؤوليته تجاه أهل بيته، ويشعر بالمصالح المشتركة، ثم يمتد الأمر إلى أهل الحي، ثم سائر فئات المجتمع، وبالإضافة إلى جهد المنزل فلا بد للحي والمسجد من إسهام في ذلك.

والمشروعات التي تنظّم في المساجد من تفطير للصائمين وإطعام للمحتاجين تمثل فرصة عملية لتدريب الناشئة على ذلك، كما أنّ المدرسة لا بد أن تسهم في ذلك؛ إذ التلميذ يعيش في مجتمعها المصغّر فيتعلم من خلاله الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، ثم تتَّسع الدائرة فتسهم المدرسة في خدمة المجتمع القريب، وتوظّف طاقتها من الشباب في أداء الأدوار الاجتماعية، فتتحول المدارس إلى محاضن لبناء الجيل وإعداده، وإلى مشاعل في المجتمع تسهم في تحقيق الخير للأبناء، لا مجرد ميدان تعليم قراءة وكتابة.

لم تراعوا

عن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري[1]، وفي عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»، ثم قال: «وجدناه بحرًا» أو قال: «إنه لبحر» (رواه البخاري ٢٩٠٨، ومسلم ٢٣٠٧).

عند تعاملنا مع السُّنَّة النبويَّة ينبغي أن يتَّسع تأملنا في الحدث ودلالته، وألا نتوقَّف عند مجرد القصة، وما لم نتعامل مع المواقف العملية النبوية بهذا الأُفق فستبقى إفادتنا منها محدودةً في إطار التبويب الذي سلكه المصنّفون في حديث النبي ﷺ.

يستدل المحدّثون وأهل السِّيَر بهذا الموقف على شجاعة النبي ﷺ وفروسيته، ولا شك أنه من أصرح الأدلة على ذلك.

قال ابن حجر: «وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع والفروسية البالغة؛ فإن الركوب المذكور لا يفعله إلا من أحكم الركوب وأدمن على الفروسية» (فتح الباري ٦/ ٧٠).

لكن: ليست الشجاعة إلا أحد دلالات هذا الحديث.

يستطيع المربي أن يتحدث مع تلامذته وأبنائه حديثًا جميلاً، وقد يملك أسلوبًا فاعلاً ومؤثرًا يأسر به القلوب ويأخذ به الألباب، وكثيرًا ما يترك حديث المربي آثارًا

(١) قوله «عري» وقع تفسير ذلك في رواية للبخاري (٢٨٦٦) عن أنس ﷺ قال: استقبلهم النبي ﷺ على فرس عري ما عليه سرج، في عنقه سيف.

عظيمة في نفوس المتربين، من خلال تصحيح مسار، أو توجيه إلى مجال إيجابي، أو تعديل سلوك سيئ وتقويمه، أو تعزيز سلوك حسن وتأكيده.

ومهما تنوعت الوسائل والأساليب، ومهما تفاوتت أدوات التأثير فسيبقى الحديث والكلمة مجالاً مهمًا لتواصل المربي مع المتربين، وسيبقى أداة فاعلة للتعليم والتوجيه والتقويم.

لكنَّ الخلل حين يكون الحديث والكلمة هو الأداة الوحيدة في التواصل والتوجيه للمتربين.

ومن هنا تبدو أهمية اللقاء والمعايشة، وأهمية المشاركة العملية بين المربي والمتربين، المشاركة التي تجعل التوجيه والتعليم جزءًا من الواقع العملي في الحياة لا مجرد توجيهات نظرية مجردة.

وقد كانت المعايشة والمشاركة العملية منهجًا تربويًّا للمربي الأول ﷺ، نلمس ذلك في أول عمل عمله ﷺ بعد قدومه المدينة؛ ألا وهو بناء المسجد.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قدم النبي ﷺ المدينة فنزل أعلى المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار، فجاءوا متقلدي السيوف كأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وأنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملإ من بني النجار فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا»، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فقال أنس: فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين، وفيه خَرِبٌ وفيه نخل، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين، فنُبِشَتْ، ثم بالخَرِب فسُوِّيَتْ، وبالنخل

فقُطِعَ، فصفُّوا النخل قِبْلَة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون والنبي ﷺ معهم، وهو يقول: «اللهم لا خير إلا خير الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره» (رواه البخاري ٤٢٨ ومسلم ٥٢٤).

وعن عكرمة ﷺ قال: قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنةً لبنةً وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه، ويقول: «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار» قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن (رواه البخاري ٤٤٧).

ولقد تركت هذه المعايشة والمشاركة أثرها على أصحابه -رضوان الله عليهم-؛ فبدت في حديثهم وارتجازهم، قال ابن حجر -رحمه الله-: «وذكر الزبير من طريق مجمع بن يزيد قال قائل من المسلمين في ذلك:

لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذًا لَلْعَمَل المُضَلَّل

ومن طريق أخرى عن أم سلمة نحوه، وزاد: قال: وقال علي بن أبي طالب: لا يستوي من يعمر المساجدا * يدأب فيها قائمًا وقاعدًا* ومن يرى عن التراب حائدًا» (فتح الباري ٧/ ٢٤٧).

وحين جاءت جموع قريش والأحزاب غازية للمدينة فاجأهم ﷺ بمكيدة لم تصنعها العرب -كما قالت قريش-، وعاش ﷺ مع أصحابه العمل الدؤوب في حفر الخندق؛ فعن أنس ﷺ قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا... على الإسلام ما بقينا أبدا

والنبي ﷺ يجيبهم ويقول: «اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره؛ فبارك في الأنصار والمهاجره» (رواه البخاري ٢٨٣٥، ومسلم ١٨٠٥)

وعن البراء ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه، وهو يقول: «لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبّت الأقدام إن لاقينا، إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا» (رواه البخاري ٢٨٣٧، ومسلم ١٨٠٣).

هكذا كان ﷺ يعيش مع أصحابه ويشاركهم، فهو يشاركهم العمل وكأنه أحدهم، وهو حين يتطلب الموقف مبادرة وانطلاقًا يسبقهم ﷺ.

هذه المعايشة يعيشها الأب والأم تلقائيًا في حياتهم مع أولادهم، لكنَّ الخلل فيها ينشأ من عدم الوعي بآثارها التربوية، ومن الفصل بينها وبين التربية؛ إذ التربية عند كثير منهم في التوجيه والأمر والنهي، أو في العتاب واللوم على التقصير.

نستطيع أن نقول الكثير لأولادنا عن حسن التعامل مع الآخرين، وأن نحدّثهم عن أخلاق الإسلام وأهله، لكن حين يرون تعاملنا مع السائق والخادمة، أو مع العامل الوافد فربما ترك ذلك أثرًا يختلف عما يسمعونه منَّا، وحين يتوافق هذا الأثر مع ما نعلمهم إياه يرسخه لديهم ويجليه في صورة عملية.

وقد يختلف عما نقول فهم حينها سيكونون بين خيارين:

الخيار الأول: أن يعيدوا تفسير ما سمعوه منا في ضوء ما رأوه من مواقف عملية.

والخيار الثاني: أن يكتشفوا التناقض لدينا بين القول والعمل، وبين التوجيه والسلوك. وكلا الخيارين يترك أثرًا سيئًا في تربيتهم.

هذا في مجال الأسرة، فماذا عن المدرسة؟

تشكلت المدرسة في واقعنا اليوم، وأصبحت نمطًا له طبيعته وخصوصيته، ولا اعتراض على ما تأخذه أيّ مؤسسة من شكل أو نمط في التعليم ما لم يكن عائقًا عن أداء بعض مهامها المنوطة بها، أو عن أدائها بالصورة الكافية.

ولن يستطيع المتحدثون في الملتقيات أو الكُتّاب التربويون أن يغيّروا من واقع المؤسسات التربوية لتتشكل وفق رؤيتهم، وإن كان من حق الجميع أن يطالبوا بالارتقاء بمؤسساتنا.

حينها سنجد أننا أمام متطلبات عدة نتطلع إليها من مؤسساتنا التربوية، هذه المتطلبات لا يمكن تلبيتها من خلال الواقع الحالي، وليس الخيار الوحيد هو أن ننتظر لتتشكّل المؤسسات التربوية وفق ما نريد.

حري بنا أن نتساءل جميعًا: كيف يمكن لمؤسساتنا التربوية أن تحقّق الأهداف التي نسعى إليها؟ وكيف يمكن أن نطوّر في أوضاعها القائمة بما يحقّق لنا ما نريد أو بعض ما نريد؟

نقول هذا الحديث بين يدي تناول هذا المبدأ التربوي المهم، ألا وهو: إن التأثير الفاعل في التربية إنما يتحقّق بصورة أكبر من خلال معايشة الواقع والتفاعل معه، وإن التأثير الذي تركه النبي ﷺ ومن تبعه من المربين المصلحين لم يكن مصدره الوحيد التوجيه والحديث المجرد، بل كان مع ذلك يستند إلى معايشة الواقع والتفاعل معه بصورة إيجابية.

فكيف يمكن اليوم لمعلمينا ومعلماتنا أن يحقّقوا شيئًا من هذا المبدأ من خلال المدرسة والفصل الدراسي؟

للإجابة عن هذا السؤال نقترح الخطوات الآتية:

أولاً: لا بد من التخلّي عن الإصرار على فكرة: «إمّا أن يتحقق كل ما نريد، أو لا نصنع شيئًا»، وهو النموذج الذي يفكر فيه بعض المربين؛ فحين يسمع حديثًا حول التربية والتعليم الفاعل يعترض بقائمة من المعوّقات المتمثلة في ازدحام الفصول، وضعف إقبال المتعلّمين، وازدحام أعباء المعلم.. إلخ.

وكثير من هذه الحجج لها رصيد من الواقع لا يُنْكَر، لكنَّ المربي الفاعل الإيجابي هو من يبحث عن الممكن، ويفتّش عن الفرص المتاحة لينتهزها، وحين لا يتحقّق له كل ما يريد لا يفرّط بالمتاح مما يريد، فـ(الميسور لا يسقط بالمعسور)؛ كما يقول الفقهاء، و(ما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه). وقبل ذلك كله قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦). وقوله -سبحانه-: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقوله -جل وعلا-: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: ٧).

ثانيًا: لا بد من التخلّص من صورة الأسلوب ونمطية الممارسة، فينطلق المعلم والمعلمة في التفكير الحر؛ إذ الهدف هو المطلب وهو المتّجه، أما الأسلوب والوسيلة فهو وعاء إن لاءَم المراد وأدّى للهدف وأمكن تحقيقه فنعم، وإلّا فلا معنى للإصرار عليه والتمسك به.

وانطلاق المعلمين والمعلمات في التفكير الحرّ في وسائل ردم الفجوة بين الواقع والتطبيق، وبين الأفكار المجردة وتطبيقاتها العملية، هذا التفكير الحرّ سيقود كلاً منهم إلى أساليب تتلاءم مع قدرته ومع إمكاناته ووسائله في التأثير.

ثالثًا: تمثل القصة وسيلة من أهم وسائل تجسيد المعاني المجردة، وتحويلها إلى صورة مرئية يعيشها المتلقّون.

وحين لا نستطيع أن ننقل المتعلم إلى واقع عمليّ مباشر يعايشه، فالقصّة بديل يحقّق قدرًا من أهداف المعايشة للواقع، وتزداد قيمة البديل وتأثيره بدرجة حَبْك القصة وإتقانها، وبدرجة قدرة المتحدّث على تقريب الصورة الواقعية، وحفز المتلقي على التعايش معها.

والقصة التي يمكن للمعلم والمعلمة توظيفها بديلاً عن المعايشة الفعلية، إما أن تكون من قصص الوحيين، وهي أعلى المراتب؛ إذ هي أحسن القصص.

أو أن تكون فيما رُوِيَ ونُقِلَ عن سلف الأمة.

أو فيما عايشه المربي من واقعه وتجاربه.

رابعًا: الاستعانة بالمصادر المطبوعة والمرئية التي تُمَثّل قصة أو رواية أو قصيدة شعرية تجسّد معنىً تربويًا يسعى المعلم إلى إيصاله.

لا زلت أذكر أثر تلك القصيدة التي صوَّر الشاعر المعاصر فيها مأساة العجوز المحتاجة بقوله:

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها ... تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثّة والرجل حافية ... والدمع تذرفه في العين خداها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها ... واصفر كالورس من جوع محياها

أو قول الأول:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

وفي النتاج المعاصر نماذج رائعة من الشعر أو القصة القصيرة أو الرواية التي يمكن أن يوجّه المتعلّمون لها أو تكون هدية تقدّم لهم.

خامسًا: الاستعانة بالنماذج التطبيقية من خلال مطالبة المتعلم بإيراد نماذج من الواقع عايشها وشاهدها؛ حيث تحكي هذه النماذج المبدأ التربوي الذي نريد تعليمه إيّاه، فنطالبه بنموذج إيجابي في العطف على المحتاجين، أو نموذج سلبي في الظلم، وحين نطالب المتعلم أن يصوغ النموذج بلغة تزيد من تفاعل الآخرين معه فإنّه علاوة على إسهامه في تحقيق الهدف التربوي ينمّي مقدرة المتعلم وخبرته.

كما يمكن الاستعانة بالنماذج التطبيقية بتوظيفها في أنشطة التعلم فتُقدَّم للمتعلم نماذج واقعية ويُطلب منه أن يقوِّمها في ضوء دراسته للمبدأ التربوي، ويقترح الحلول والعلاج لذلك.

سادسًا: توظيف خيال المتعلمين وقدراتهم في التعبير عن المبدأ التربوي المجرّد؛ فمنهم من يسعى لنظم قصيدة، ومنهم من يسعى لكتابة قصَّة، ومنهم من يسعى لتخيُّل موقف.

كما يمكن توظيف التقنية المعاصرة، فمنهم من يسعى لتقديم عرض مرئي حاسوبي يجسّد فيه هذا النموذج، وتتيح إمكانات الحاسوب مجالاً واسعًا لتوظيف وسائط التعبير المرئية والمسموعة، ويتيح هذا اللون من الأنشطة توظيف خبرات المتعلّمين، وتوجيه استخدام التقنية توجيها إيجابيًا.

ومن المهم أن تتَّسع دائرة الاختيار في هذا النوع ليتلاءم النشاط مع ميول المتعلم وإمكاناته.

هذا بعض ما تسمح به هذه المساحة من بدائل مقترحة لتحقيق المعايشة التربوية، وحين ينطلق معلمونا ومعلماتنا في التفكير سيجدون أمامهم رصيدًا ضخمًا من الخبرات والإمكانات.

لم يكن فاحشًا

لقد اختار الله -تبارك وتعالى- نبيه ﷺ ليبلّغ الرسالة، ويربّي الأمة؛ فقال -عز وجل- واصفًا مهمته تلك: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ولم يكن التعليم والتزكية قاصرًا على مجرد ما يقدّمه ﷺ للناس من حديث مباشر ووصايا وأوامر، وإن كان هذا له أثره.

لقد كان لسلوك الرسول ﷺ وحياته العملية الأثر البالغ في تعليم الأمة وتزكيتها، وتمتلئ مُدوّنات السُّنَّة والسيرة النبوية بعرض أحواله ﷺ وسيرته وهديه العملي.

ومما ورد في ذلك وصف أصحابه له ﷺ بالبعد عن الفحش في القول، وهو وصف لم يرد من طريق واحد أو عن صحابي دون غيره، بل هو مما تواتر معناه، وتنوّعت ألفاظ الرواية عنه.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: «لم يكن النبي ﷺ سبّابًا ولا فحّاشًا ولا لعّانًا؛ كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له تَرِب جبينه؟» (رواه البخاري ٦٠٣١).

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا، ولم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحّشًا».

(رواه الترمذي ١٩٧٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح).

وعن أبي عبد الله الجدلي قال: سألت عائشة عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، فقالت: «لم يكن فاحشًا ولا متفحّشًا، ولا صخّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» (رواه الترمذي ٢٠١٦).

وحين يلتقي ﷺ بمن يتوقع بعض أصحابه أن يغلظ له في القول أو يشدّد عليه فإنهم يرون نموذجًا مختلفًا.

فعن عائشة ﵂: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة». فلما جلس تطلّق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا، ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه! فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة؛ متى عهدتني فحّاشًا؟ إنّ شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره» (رواه البخاري ٦٠٣٢، ومسلم ٢٥٩١).

لقد كان هذا الرجل موصوفًا بالسوء من رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يكن ذلك قائدًا له ﷺ لأن يُفحش له بالقول أو يسيء له، بل عامَله بالخُلُق اللائق به ﷺ، وهو الموصوف ممن اختاره واصطفاه -عز وجل- بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤).

إنّنا كثيرًا ما نتحدث عن حسن الخلق ومعالي الأمور، وكثيرًا ما نعيب الفحش في القول والعمل، وهذا الحديث لا بد أن يترك أثرًا.

لكن الأثر الأبلغ في نفوس المتربّين يكون من خلال ما يرونه من واقع آبائهم وأمهاتهم ومعلّميهم. حين ننهى أولادنا عن الفحش في القول، وهم يرون أننا نمارس الفحش في أقوالنا، ونتلفظ بما لا يليق فهذا سيقودهم إلى أحد حالين:

الحال الأولى: أن يعيدوا تعريف الفحش وتحديد مفهومه في ضوء ما يرونه من أعمالنا وأقوالنا فيرون أن هذا ليس من الفحش؛ لأنهم يسمعونه منا.

الحال الثانية: أن يستوعبوا التناقض، ويدركوا أن ما يمارسه مربّوهم هو نوع من الفحش، فيرون الفجوة بين مقالهم وأفعالهم؛ مما يقودهم إلى الشعور بأن التطبيق لمثل ذلك أمر صعب، ولو كان ممكنًا لصار أولى الناس بالتزامه هم الداعون إليه والمتحدثون عنه، أو أنّ هؤلاء المتحدثين غير صادقين ولا جادين في حديثهم، وإنما يقولون ذلك كنوع من الاستهلاك، وهو ما يبدو في التعليقات الساخرة التي يتهامس بها الطلاب والطالبات وهم يستمعون لكلام معلّميهم.

حين نتأمل واقعنا التربوي نرى أن هناك كثيرًا من ممارسات المربين تستوجب المراجعة؛ فهم يقررون حسن الخلق ويذمّون سوء الخلق عند الحديث نظريًّا، لكن بعضهم يمارس الفحش في حديثه مع طلابه أو أولاده.

إنّ الانفعال والغضب الذي يقع من بعض المربّين قد يقودهم إلى الانطلاق وراء انفعالهم في الحديث مع تلامذتهم دون التفطّن لأثر هذا الحديث.

تارة ينتهر أحدهم ولده واصفًا إياه ومشبهًا له بنوع من أنواع السوائم، خلافًا لما نهى عنه ﷺ من التشبّه بها قائلاً: «ليس لنا مثل السوء» (رواه البخاري ٢٤٢٩، ومسلم ٣٠٤٨). وخلافًا لما جاء في كتاب الله -عز وجل- من تخصيص هذا الوصف بالقوم الكافرين، ومن سياق هذا التشبيه سياق الذم والتنفير.

- وتارة يطلب منه الصمت والسكوت بلفظ يوحي بالسخرية والاستهزاء.
- وأحيانًا يؤمر بأكل ما لا تأكله إلا الدواب.
- وأحيانًا يُوصَف بأوصاف الطفولة والبعد عن الرجولة.

- وأخرى يُوسَم بالغباء والبلادة.

واستخدام اللهجة العامية يعطي إيحاءات سلبية تتجاوز المعنى المجرد لهذه الألفاظ إلى دلالات موغلة في السخرية وامتهان الشخصية.

إنّ بُعد المربي عن الفحش في منطقه وحديثه مع أبنائه يحقّق نتائج عدة، منها:

- إشعار المتربي بقيمته ووزنه؛ فهو يُخاطَب بألفاظ تليق به وتضعه في مصافّ الرجال وموازينهم، وشعوره بقيمته ووزنه يترك أثره على شخصيته فيثق بنفسه، ويترفع عمّا لا يليق بأمثاله ويسلك مسلك الكبار.
- اعتيادهم على اللغة الراقية واللفظ المهذَّب، وتربيتهم على حسن التعبير عما في أنفسهم وعما يريدون.
- تهذيب ردود أفعالهم في مواقف الانفعال؛ إذ لا يكاد يخلو أحد من الانفعال والغضب، وبالأخص من هو في سن مبكرة، وحين يعتاد الشخص حسن المنطق فسيعبر عن انفعاله بلغة مناسبة، وسيحجزه ذلك عن الاستجابة وراء دوافع الغضب.
- تنمية توقير الآخرين واحترامهم لديه، فقد اعتاد أن يحترموه ويوقروه، واعتاد أن يسمع طيب القول وحسنه.



ألا فعلته؟

عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلقًا، فأرسلني يومًا لحاجةٍ، فقلت: والله؛ لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي. قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيس؛ أذهبت حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم؛ أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس: والله؛ لقد خدمته تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيء تركته: هلا فعلت كذا وكذا. (رواه مسلم ٢٣١٠).

تقتضي طبيعة علاقة الابن بأولاده، أو الرجل بخادمه ممارسة الأمر والنهي، والحث والترك، وكثيرًا ما تسيطر على الإنسان حاجته وأهدافه التي يريد تحقيقها، فينسى أنّه يتعامل مع بشر، فيسترسل وراء التطلعات المثالية، ووراء ما يجب أن يكون، وما يجب هو أن يتحقّق ناسيًا أن هناك فجوة بين المثال والواقع، وأن كثيرًا مما يريده الناس من أنفسهم قد يفشلون في تحقيق قدر كبير منه، فضلاً عما يريدونه من الآخرين.

لنا مطالب من أولادنا تتصل بحياتهم الشخصية في دراستهم، وفي تعاملهم معنا، وفي تعاملهم مع الآخرين.

ولدينا طلبات وأوامر نوجّهها لهم وننتظر تحقيقهم لها.

وحين نتعامل معهم نرسم في أذهاننا صورةً لما يجب أن يكونوا عليه، صورةً عن

واقعهم وحياتهم وسلوكهم، وصورةً عن إنجاز ما نريد منهم من حيث الوقت، أو الكيفية، أو الكمّ.

وحين ينشغل الإنسان برسم الصور التي يتطلع إليها فإنه كثيرًا ما يتجاهل الواقع ويغفل عن مراعاته، ويترك هذا أثرَه في الحديث الذي يسمعه الأولاد من والديهم أو معلميهم فيرون توجيهاتهم حديثًا مثاليًا بعيدًا عن الواقع.

وأيضًا يترك أثره على تقويم الوالدين لأولادهم والمعلمين لطلابهم، فيتم التقويم وفقًا للنموذج المثالي الذي رُسِم لهم، ومِن ثَم تتم محاسبتهم في ضوء هذا التقصير.

أما المربي الأول ﷺ فقد كان إنسانًا آخر.

ربما يبدو أن التميز الذي يتَّسم به ﷺ، والكمالَ البشري الذي يملكه يقوده إلى أن يتأثر بذلك فيما ينتظره من الناس ويتوقعه منهم، لكنَّ الأمر كان بخلاف ذلك.

إنه ﷺ يتعامل مع الناس بواقعية، ولا يحلّق بهم في عالم المثال.

ومن ثم فهو يُقوِّم أعمالهم في ضوء هذه النظرة فلا يلومهم على التقصير الذي لا يخلو منه بشر، ولا يطالبهم بالإتقان الذي لا يصل إليه البشر.

كان أنس رضي الله عنه قد تفرغ ليخدم النبي ﷺ، وهو كغيره من الناس بشر مهما بلغ من الحرص والإتقان، فلا بد أن يبدو منه قصور بشري، قصورٌ يتمثّل في أمرٍ نَسِيَه، أو أمر فهمه على خلاف ما أراد الرسول ﷺ، أو أمر حالت دونه عوارض تعرض للبشر من نوم أو غفلة.

ولم تكن هذه الخدمة والتعامل خلال مدة قصيرة، بل امتدت لتصل إلى عشر سنين.

وخلال هذه السنين العشر لم يسمع من النبي ﷺ ملامة في أمر طلب منه أن يفعله فلم يفعله، أو في أمر نهاه عنه فوقع فيه.

إنّنا حين نبرز هذا النموذج من التعامل النبوي لا نتوقع من كل الناس أن يكونوا قادرين على الوصول إليه؛ فالناس بشر لا بد أن تقع منهم هفوات، ولا بد أن ينساقوا وراء انفعالاتهم فيغفلون عن مراعاة البعد التربوي الذي ينبغي أن يراعوه وينضبطوا به في تصرفاتهم.

لكن حين يبدو النموذج أمام الناس فإنهم يسعون للقرب منه والارتقاء بأنفسهم ليصلوا إلى ما هو قريب منه.

كما أنه يمثل معيارًا يقيس مدى بعدهم أو قربهم، ويقيس الخلل الذي يمكن أن يقعوا فيه.

ولا بد أن نتوقع أننا لن نصل للصورة التي نريدها من أنفسنا ونتمناها، لكن حين نرسم نموذجًا نتطلع إليه سيقودنا ذلك إلى الارتقاء بأنفسنا وقتًا بعد آخر، ومرحلة بعد أخرى.

أما حين نسعى لتبرير الواقع والرضا به فسنرواح مكاننا، ولن تنمو خبراتنا.

والخبرات التي يحتاجها المربي ليست بالضرورة قاصرة على دائرة المعرفة فحسب، أي ليس كافيًا له في ذلك أن يعرف أن الأسلوب الأنسب للتربية هو كذا وكذا، وأن النمط المعين هو نمط سلبي أو إيجابي.

فهذا وإن كان مهمًّا إلا أن الخبرة الأهم تتمثل في اكتسابِه للمهارة وإتقانِه لها.

إن المربي بحاجة إلى أن يكون قادرًا على الاحتفاظ بهدوئه وتوازنه أمام أقرب

الناس إليه وأحبهم (أولاده وتلامذته) أمام هؤلاء الذين يسعى لصناعتهم وتربيتهم وإعدادهم للحياة.

حين يتعامل معنا أولادنا في تلبية ما نطلب من مهامّ وهم يلقون منا الاهتمام وحسن الرعاية، ويلمسون منا الإغضاء عن هفواتهم، والواقعية فيما ننتظره منهم ونطلبه، فإن هذا سيترك آثارًا عدة، منها:

- الأثر الإيجابي على بناء شخصياتهم واستقرارهم النفسي، وذلك كله إنما ينشأ حين يعيشون في بيئة هادئة ومستقرَّة.
- الأثر الإيجابي على صلتهم بوالديهم ومعلميهم؛ فتسود العلاقة الودية، ويزداد مستوى التواصل الإيجابي بينهم، ونمط العلاقة بين الأولاد وآبائهم له أثره البالغ على استعدادهم للتلقي منهم، وعلى استقرارهم النفسي والاجتماعي.
- تنمية ثقتهم بأنفسهم وشعورهم بالقدرة على النجاح في الحياة؛ فكثير من حالات ضعف الثقة بالنفس تنشأ من خلال نمط تعامل الآخرين مع الشخص، وقلة احتفائهم بإنجازه في مقابل اللوم والعتاب على أخطاء وهفوات لا تستحق هذا القدر من اللوم والتأنيب.
- نموّ قدراتهم على إتقان الأعمال مستقبلاً؛ فمما يفتقرون إليه: ردود الفعل الإيجابية من الآخرين، واعتناؤهم بالتغذية الراجعة لهم، وتسديد مواقفهم، وتعريفهم بمجالات النجاح، وحالات الإخفاق، هذا النمط في ردة الفعل هو البديل للنمط الذي يواجههم باللوم والخطأ والتأنيب.

إن أولادنا كثيرًا ما يدركون أنهم أخطأوا وقصّروا، وكثيرًا ما يكتشفون أنهم كان ينبغي أن يفعلوا كذا، أو يتركوا كذا، وهم بذلك أحوج منا إلى أن نُعينهم على تجاوز حالات الإخفاق، وعلى تفسير عوامل النجاح وعوامل الفشل، أكثر من اللوم على خطأ يشعرون به ويدركونه.

الوالدان الحريصان على بناء شخصية أولادهم يريان أن التربية الناجحة تتطلب التشجيع والتأييد أكثر من التثبيط والتوهين، والعناية باكتشاف شخصيات أولادهم أكثر من إزعاجهم بمزيد من الإخبار بالفشل واللوم على التقصير.



لا تأمرنَّ على اثنين

عن أبي ذر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر؛ إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحبّ لنفسي؛ لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولينَّ مال يتيم» (رواه مسلم ١٨٢٦).

وفي رواية لمسلم عن أبي ذر ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله؛ ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر؛ إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا مَن أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها» (رواه مسلم ١٨٢٥).

وفي رواية عن أبي ذر ﷺ قال: «ناجيتُ رسول الله ﷺ ليلة إلى الصبح، فقلت: يا رسول الله أمِّرني! فقال: إنها أمانة وخزي وندامة يوم القيامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها» (رواه أحمد ٢١٠٠٢).

لقد حذّر النبي ﷺ عامة أصحابه من الحرص على الإمارة والسعي إليها، لكن لم نسمع أنه ﷺ نهى أحدًا بعينه أو خصّه بذلك، مع نهيه عن تولي مال اليتيم غير أبي ذر ﷺ فما مصدر هذا النهي؟

قال السيوطي: «قال القرطبي: أي: ضعيفًا عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح رعيته الدنيوية والدينية، ووجه ضعفه عن ذلك أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومن هذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا ولأموالها اللَّذَيْن بمراعاتها تنتظم مصالح الدين ويتم أمره، وقد كان أبو ذر أفرط في الزهد في الدنيا حتى انتهى به الحال إلى أن يُفتي بتحريم الجمع للمال وإن أُخرجت زكاته، وكان يرى أنّه الكنز الذي توعّد الله عليه في القرآن، فلما علم النبي ﷺ منه هذه الحالة

نصحه ونهاه عن الإمارة وعن ولاية مال الأيتام، وأكّد النصيحة بقوله: وإني أحب لك ما أحب لنفسي. وأما من قَوِيَ على الإمارة وعدل فيها فإنّه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله». (شرح السيوطي لسنن النسائي ٦/ ٢٥٥- ٢٥٦).

وما هذا الضعف الذي وصف النبي ﷺ به صاحبه أبا ذر ﷺ؟

أهو ضعف في دينه؟

أم خوف عليه من الخيانة؟

أم قصور في منزلته؟

حاشا أن يكون أبو ذر ﷺ كذلك، كيف لا وقد زكّاه النبي ﷺ وأثنى عليه؛ فعن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم عليه السلام» (رواه الترمذي ٣٨٠٢ عن أبي ذر، وانفرد به، وله رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص).

وعن أبي الأسود الديلي قال: «رأيت أصحاب النبي ﷺ، فما رأيت لأبي ذر شبيهًا» (رواه أحمد ٣١٠٦٥).

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: اللهم إن كذبوا أبا ذر فإني لا أكذبه، اللهم وإن اتهموه فإني لا أتهمه، اللهم وإن استغشوه فإني لا أستغشه، فإن رسول الله ﷺ كان يأتمنه حين لا يأتمن أحدًا، ويُسِرُّ إليه حين لا يُسِرُّ إلى أحد، أما والذي نفس أبي الدرداء بيده؛ لو أن أبا ذر قطع يميني ما أبغضته بعد الذي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» (رواه أحمد ٢١٢١٧).

في هذا الموقف النبوي عِبَر عدَّة:

منها: الصراحة والوضوح مع المتربي، هذه الصراحة لا تبدو من إنسان يعاني خللاً في خُلقه وتعامله مع الناس-حاشاه بأبي هو وأميﷺ-، ولا من إنسان لا يراعي اعتبار الآخرين، بل هي من صاحب الخُلُق الرفيع، من زكّاه ربه واصطفاه خالقه -سبحانه وتعالى-.

فهو ﷺ يصارح أبا ذر ﷺ بضعفه، وينهاه عن تولّي الإمارة، وينهاه عن تولي مال اليتيم.

بقدر ما يحتاج المتربي إلى أن تراعى حاله، ويؤخذ بخاطره -كما نحب أن نعبّر- فهو يحتاج إلى الوضوح والصراحة؛ فالصراحة والوضوح هي من النصيحة له، وشأن النصيحة ومنزلتها من الدين بلغت قدرًا يجعل النبي ﷺ يبايع أصحابه عليها.

فعن زياد بن علاقة قال سمعت جرير بن عبد الله ﷺ يقول -يوم مات المغيرة بن شعبة- قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن، ثم قال: استعفوا لأميركم؛ فإنه كان يحب العفو. ثم قال: أما بعد فإني أتيت النبي ﷺ، قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ: «والنصح لكل مسلم»، فبايعته على هذا، وربّ هذا المسجد؛ إني لناصح لكم. ثم استغفر ونزل. (رواه البخاري ٥٨، ومسلم ٥٦).

وأعلى ﷺ شأن النصيحة فجعلها الدِّين؛ فقال: «الدِّين النصيحة».

(رواه البخاري معلقًا، ومسلم ٥٥).

والصراحة تُشْعِر المتربي بحرص مَن يربيه واعتنائه به، بينما يشعره غيابها ودوام المجاملة بأن هناك أمورًا عدّة يخفيها أو يجامله في الحديث عنها.

إننا لا نستطيع أن نرى وجوهنا إلا من خلال المرآة، وهكذا فثمة جوانب عدة في شخصياتنا لا نستطيع اكتشافها إلا من خلال مرآة التواصل مع الآخرين، ومن هنا يأتي دور المربي ليكون مرآة لمن يربيه.

وتلك الصراحة التي كان يملكها المربي الأول ﷺ لم تكن مطلقة دون ضوابط؛ فقد كان ﷺ يراعي أحوال أصحابه.

فقد روى (أبو داود ٤١٨٢، وأحمد ١١٩٥٩) بسند ضعيف أنه ﷺ كان «قلّما يواجه رجلاً في وجهه بشيء يكرهه».

ويدل على هذا المعنى ما جاء في كتاب الله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾. (التحريم: ٣).

قال الحسن -رحمه الله-: «ما استقصى كريمٌ قطّ؛ قال الله -تعالى-: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾». (تفسير القرطبي ١٨/ ١٨٧).

إن المصارحة ليست مقصودة لذاتها، أو مطلوبة في كل حال، بل هي مرتبطة بتحقق المصلحة من ورائها، وحين يكون الأمر بخلاف ذلك فقد تكون المداراة أو التعريض أصلح، والعبرة بما يحقّق الهدف، ولهذا كان ﷺ يجمع بين الأمرين معًا، فتارة يتحدث صراحة، وتارة يومئ، وتارة يشير، وتارة يتغافل ويتجاهل؛ لأن صاحب الخطأ قد أدرك خطأه.

وثمة وقفة أخرى حول حديث أبي ذر ﷺ:

لقد اعتاد الناس أن يُصْدِرُوا أحكامًا عامَّة على الآخرين، واعتدنا أن نحدِّد مجالاً بعينه هو مجال التفوّق في الحياة؛ فمن أدرك هذا المجال وتفوّق فيه فهو المتفوِّق، ومَن لم يدركه فليس كذلك.

ولما تستوعبه الحياة الدراسية من واقع أبنائنا فقد أخذت حيزًا كبيرًا من الأهمية لدينا في تقويمهم.

ولا جدال في أن التعليم يمثّل مدخلاً مهمًا في بناء شخصية الجيل وفي إعدادهم للحياة، وفي تربيتهم وتوجيههم، ولا جدال في أن وظيفة التعليم تتجاوز التعامل مع مجموعة من الكتب والمقررات التي يدرسها المتعلم في الفصل الدراسي.

لكنَّ الواقع اليوم أن معيار التفوّق والنجاح في التعليم قد ارتبط إلى حدّ كبير بمدى قدرة المتعلم على حفظ مجموعة من المعارف، ثم التعبير عنها بعد ذلك في أوراق الامتحان.

ومن هنا فإن التفوّق في التعليم ليس بالضرورة تفوقًا في كافة مجالات الشخصية.

هل يصح أن نرسّخ لدى أولادنا أن من فاته التفوق في التعليم فهو لا يساوي شيئًا، وأن التفوّق في التحصيل الدراسي هو العاملُ الوحيد للتفوّق في مجالات الحياة المختلفة؟

إن أولادنا بحاجة إلى أن يعوا أن مجالات النجاح والتفوق مجالات عدة، وأن افتقاده لأحدها لا يعني بالضرورة أنه لا يملك مقومات النجاح.

ومن الوقفات التربوية المهمة في هذا الحديث أن عدم صلاحية فرد ما لمهمة معينة، وعدم نجاحه في مجال معين لا يعني وصفه بالفشل والبوار.

فأبو ذر ﷺ لم يكن صالحًا للإمارة، ونهاه ﷺ عن ذلك، ومع هذا فقد كان ﷺ صاحب فضائل لا تخفى؛ فقد أثنى عليه ﷺ بما يرويه لنا هو بقوله: «قال لي رسول الله ﷺ: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم عليه السلام».

(رواه الترمذي ٣٨٠٢ وانفرد به عن أبي ذر، وله رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص).

حين يواجه أبناؤنا مواقف لم يحالفهم فيها النجاح، وحين يخفقون في مهمة ما، أو ينهارون أمام عقبة ما؛ فهم بحاجة إلى أن نأخذ بأيديهم فنقول لهم: إنّ مجالات النجاح عدَّة، وحين لا تكتشف نجاحك في هذا المجال فقد تكون مؤهلاً للنجاح في المجال الآخر، وحين لا تنجح في مهمة فقد تنجح في أخرى.

كما أنهم يحتاجون منا إلى أن نوقف إصرارهم على مجال لا يلائمهم، ولا نتوقع أن ينجحوا فيه.

جاء يونس إلى الخليل بن أحمد ليتعلّم منه علم العَرُوض، ورأى الخليل أنه لا يلائم هذا العلم؛ فكان من أمره معه ما حكاه الخليل بقوله:

«فقلت له يومًا: كيف تُقطِّع هذا البيت؟

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوِزْه إلى ما تستطيع

فشرع معي في تقطيعه على قدر معرفته، ثم إنه نهض من عندي فلم يعد إليَّ، وكأنه فهم ما أشرت إليه» (البداية والنهاية ١٠/ ١٦١).

وهذا التوجيه لا بد أن ينى على اقتناع كافٍ بنتيجته، لا أن يكون ردة فعل لموقف أو موقفين.

فالطالب الذي لا يتفوّق في دراسته لقصور مثابرته، أو تقصيره في بذل جهده لا يعني أنه لا يملك مقومات التفوق، ولا ينبغي أن نستنتج من إخفاقه عامًا أو آخر أنه لا يلائم هذا المجال.

وبقدر ما يخطئ الذين يُصرِّون على دفع أولادهم وتلامذتهم إلى مجال بعينه؛ فالذين يتسرعون في إصدار الأحكام، أو يمنحون أنفسهم حق تصنيف قدرات تلامذتهم دون أن يستجمعوا مقوّمات هذا التصنيف، هؤلاء ليسوا بأقل خطيئة من أولئك.

إننا جميعًا لا نجهل أهمية العلم الشرعي، وحاجة الأمة إليه، وأن كل فرد مسلم بحاجة لقدر من العلم الشرعي يصح به دينُه، ويعبد به ربه على بصيرة.

ولا نشك أنّا مهما تحدثنا عن أهمية طلب العلم والاعتناء به فلن نستوعب فضائله، ولكن طائفة من طلاب العلم أو طالبات العلم يتحدثون مع تلامذتهم بدافع التحفيز على طلب العلم الشرعي حديثًا يوحي بالاستخفاف بأيّ مجال آخر سوى هذا المجال، وبأن من حفظ قدرًا من العلم الشرعي فهو وحده المستحق للإشادة والثناء بخلاف غيره.

ومع الإيمان بفضيلة العلم الشرعي على ما سواه إلا أن الاعتدال مطلوب.

ها هو ﷺ يصف لنا أصحابه بتفاوت مراتبهم وقدراتهم، فها هو خالد بن الوليد ﷺ والذي يثني عليه ﷺ ويصفه بأنه سيف من سيوف الله، ها هو حين أمّ

الناس ﷺ أخطأ في قراءته. وقد روى عنه قيس ابن أبي حازم أنّه قال: «لقد منعني كثيرًا من القراءة الجهادُ في سبيل الله» (رواه أبو يعلى في مسنده ٧١٨٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٩٤٢٠. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٥٠: رجاله رجال الصحيح).

وها هو حسان ﷺ يثني عليه ﷺ ويدعو له أن يؤيده روح القدس، وأن شعره في هجاء الكفّار أشد وقعًا عليهم من النبل، فعن عبد الرحمن بن عوف: أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله؛ هل سمعت النبي ﷺ يقول: «يا حسان؛ أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيِّده بروح القدس؟»، قال أبو هريرة: نعم. (رواه البخاري ٤٥٣، ومسلم ٢٤٨٥). وهو مع ذلك ﷺ ليس معدودًا في المفتين أو المقرئين من أصحاب النبي ﷺ.

إنّ أولادنا وبناتنا يتفاوتون في قدراتهم وإمكاناتهم، فأحدهم في الحفظ والعلم، والآخر في القيام بشؤون المنزل، والثالث في العلاقات الاجتماعية، والرابع في التواصل مع الآخرين.

وحين تضيق معايير التفوق لدى الوالدين فسيضطر كثير من أولادنا إلى تكلّف ما لا يحسنون، كما أن ذلك سيقودهم إلى النظرة السلبية لذواتهم حين لا يستوعب مجالُ تفوقهم طموحَ والديهم.

كما أنه يقودهم إلى الشعور بالغيرة من إخوانهم والحسد لهم، وبالأخص حين يتكرر على سمعهم عبارات الثناء من والديهم.

إن أولادنا وطلابنا بحاجة إلى أن نُشعِرهم بالنجاح، وبحاجة إلى أن نُسمعهم ما يعينهم على اكتشاف ذواتهم أكثر من حاجتهم إلى تكرار اللوم والمقارنة بالآخرين.

من كالمربي الأول؟

على مدى التاريخ تميز العديد من الناس في التأثير وإقناع الآخرين، لكنَّ هؤلاء ليسوا على نمط واحد أو وتيرة واحدة.

فمنهم من يمتاز بالوعظ والقدرة على تحريك القلوب.

ومنهم من يمتاز بالقدرة على توظيف القصة، ونقل المستمعين إلى التفاعل معها والعيش في أجوائها.

ومنهم من يملك القدرة على الإقناع المنطقي، فيوظّف الحُجَّة والمنطق، ويصل إلى الحقائق والنتائج من خلال مقدّمات يُسلّم بها المستمعون.

ومنهم من يقدر على تصوير المعاني المجردة وتقريبها من خلال النموذج المحسوس.

ومنهم من يخاطب الطفل، ومنهم من يخاطب الشاب، ومنهم من يخاطب المرأة.

منهم من يلائم حديثه عامةَ الناس، لكنه غير قادر على إقناع المثقفين وأهل الرأي، ومنهم من يلائم المثقفين والمتعلمين، لكن العامّة لا يفقهون من حديثه شيئًا.

ومهما امتلك امرؤ من قدرة على الإقناع والتأثير، ومهما تسيَّد ساحة من ساحات الإقناع فلا بد أن يفقد غيرها.

لكن الذي حاز ذلك كله، وأدرك ذلك جميعه هو المربي الأول ﷺ.

لقد كان خطاب المربي الأول ﷺ خطابًا يلائم الصغير والكبير، والمرأة والرجل، يلائم الجاهل الأعرابي والأديب البارع، فسبحان من علَّمه وأكرمه!

يعيش عمر بن أبي سلمة في حَجْره ﷺ فيتعلم منه ويسمع منه الكثير؛ فعن وهب بن كيسان أنه سمع عمر بن أبي سلمة يقول: كنت غلامًا في حَجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام؛ سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك». فما زالت تلك طِعْمَتي بَعْدُ. (رواه البخاري ٥٠٦١، ومسلم ٢٠٢٢).

ونرتقي درجة فنرى غلامًا من أصحاب النبي ﷺ يتعلم منه ما ينفعه وينفع الأمة من بعده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام؛ إني أعلّمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلامُ وجفّت الصحف». (رواه أحمد ٢٦٦٤، والترمذي ٢٥١٦).

ثم يأتيه شاب يافع فيحاوره ﷺ ويقنعه، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «إن فتًى شابًّا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه. قالوا: مه مه! فقال: ادنه، فدنا منه قريبًا. قال: فجلس. قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال:

«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهمّ اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصّن فرجه»؛ فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء. (رواه أحمد ٢١٧٠٨).

ويأتيه ﷺ رجل غريب جاهل لا يعرف شيئًا من دينه فلا يعجز أفصح العرب عن أن يخاطبه بما يلائمه ويصلح له؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب. فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتك». فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فقال: «سل عمّا بدا لك». فقال: أسألك بربّك، ورب من قبلك؛ آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم». قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم». قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم». قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم». فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. (رواه البخاري٦٣، ومسلم ١٢).

ويتحدث ﷺ مع النساء فيخصّهن بالحديث حين ينصرف من صلاة العيد، بل يخصّص لهن يومًا يلقاهنّ فيه فيعلمهنّ مما علمه الله؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ:

أن النساء قلن لرسول الله ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فواعدهنّ، يومًا فلقيهنّ فيه، فوعظهنّ وأمرهنّ، فكان مما قال: «ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار. فقالت امرأة: واثنين فقال: واثنين» (رواه البخاري ١٠١، ومسلم ٢٦٣٣).

ولهذا لا يجد أحدهم حاجزًا أن يسأله أو يستفتيه أو يحاوره ويستشيره، فعن أنس ﷺ قال : أُقيمت الصلاة ورجل يناجي رسول الله ﷺ، فما زال يناجيه حتى نام أصحابه، ثم قام فصلى. (رواه البخاري ٦٢٩٢، ومسلم ٣٧٦).

وتأتيه امرأة تجادله في شأن زوجها وتحاوره حتى ينزل القرآن في شأنها، كما في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١).

عن عروة عن عائشة ﷺ أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾. الآية.

(رواه البخاري معلقًا، وأحمد ٢٣٦٧٥، والنسائي ٣٤٦٠، وابن ماجه ١٨٨).

ومع هذا التواصل مع العامة والصغير والكبير فقد كان فقهاء الصحابة وفحول العلم منهم يجدون عنده ﷺ الكثير ويتعلمون منه ما لا يتعلّمه غيرهم.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «إنّ عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده»؛ فبكى

أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له. وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ؛ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله ﷺ: «إن مِن أمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خُلَّة الإسلام، لا يَبْقَيَنَّ في المسجد خَوْخَة إلا خوخة أبي بكر» (رواه البخاري ٣٦٥٤، ومسلم ٢٣٨٢).

إن هذا الأمر جليّ واضح، لا يحتاج مدّعيه إلى مزيد برهان واستدلال، بل إن أدنى الناس إحاطة بسيرة النبي ﷺ وسُنته لن يعجزه أن يجد العديد من الشواهد على ذلك. فكيف بالباحث ومن هو متبحّر ومتضلع بالسنة والسيرة المطهرة؟

لكن السؤال المهم: ماذا يعني ذلك؟

إنه يزيد المؤمن محبة للنبي ﷺ وإجلالاً، ويدرك كيف أن محبة النبي ﷺ استولت على قلوب عامة المسلمين لم يتخلف عنها فئة من الفئات، يحبه الصغير والكبير، يحبه الرجل والمرأة، يحبه العامي والعالم، يحبه التقي والمذنب، أولم يقل ﷺ عن شارب الخمر: «إنه يحب الله ورسوله»؛ فعن عمر بن الخطاب ﷺ: أنّ رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يُلقّب حمارًا، وكان يُضْحِك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلِدَ، فقال رجل من القوم: اللهم العنه؛ ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه؛ فوالله ما علمتُ إلا أنَّه يحب الله ورسوله» (رواه البخاري ٦٧٨٠).

ولم يفرض الله على الناس محبته إلا أنهم قادرون عليها جميعًا.

إنه أمر لم يحصل لغيره ﷺ.

فمن حظِيَ بهذا القدر من محبة الجميع غيره ﷺ؟

إنّك تجد من يحبه الصغار دون الكبار، أو الأتقياء دون الفجار، أو الأدباء والبلغاء دون سواهم من الناس.

لكن أن تجد شخصًا يحبّه الجميع دون استثناء فأنّى يكون ذلك لغير من اصطفاه -تبارك وتعالى- واختاره لهداية الناس.

وهو يعني ثانيًا عظمة هذا المربي ﷺ والإمكانات التي يمتلكها، فمن الذي يحسن خطاب الجميع؛ الصغير والكبير، والجاهل والمتعلم؟!

لكن هاهنا سؤال مهم:

هل يقتضي مثل هذا الأمر أن يسعى المربي أو العالم والداعية إلى أن يمتلك ذلك كله؛ إلى أن يكون قادرًا على مخاطبة الجميع والحديث مع الجميع؟

ربما يبدو لهذا الأمر بريق أول وهلة، وربما يشعر فئة من الناس أن الاقتداء بالنبي ﷺ يتطلب أن يسعى الإنسان لخطاب الجميع والحديث مع الجميع.

إنه مطلب لو أمكن لكان صحيحًا، لكن هل يستطيع أحد أن يبلغ ما بلغه النبي ﷺ؟

إن النبي ﷺ مكلَّف بالتبليغ للناس جميعًا، ومن هنا آتاه الله -عز وجل- ما يعينه على أداء هذا البلاغ للناس كافة، فلم يكن عمق علمه ووفور عقله ﷺ عائقًا للجهال والصغار عن وعي ما يقول، ولم يكن خطابه ﷺ للعامة مانعًا عن أن يجد فيه الخاصة ما يحتاجون إليه.

لكن غيره ليسوا مثله، كما بين ﷺ حال أصحابه -رضوان الله عليهم- وتفاوتهم

فيما آتاهم الله من علم وقدرة في حديث «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر...» وقد سبق تناوله مع عدد من الشواهد حول هذا المعنى.

وبعد عصر الصحابة -رضوان الله عليهم- بقي هذا الأمر نسمعه كثيرًا في تقويم علماء المسلمين وتفاوت مجالات نبوغهم.

والشواهد على ذلك عديدة، وكلها ناطقة بأن الأجيال التي جاءت بعد النبي ﷺ من قادة الأمة ورجالاتها كان لكل منهم مجال من مجالات التميُّز يفوق فيه غيره، ويفوقه غيره فيما سواه.

إن قدراتنا محدودة، وإمكاناتنا لا تفي بكثير مما نطلب ونريد، ومهما تأمل المربي والمعلم في مجال من مجالات النبوغ والتميز فسيجد فيه جاذبية عالية تقوده إلى أن يطمع بتحصيله وإدراكه، لكن هل هو مُطِيق لذلك كله؟

وهذا يدعو إلى الاعتناء بالتخصُّص التربوي سواء في المجال النظري والفكري، أو في المجال العملي والتطبيقي.

إن التخصُّص هو الخيار اللائق بأمثالنا الذين لا يمكن أن يصلوا إلى كل شيء ويحققوا كل شيء.

فنحن بحاجة إلى أن يتخصّص بعضنا في مجال ما؛ كأن يقدّم مادة تربوية للطفل سواء أكانت هذه المادة مسموعة أم مرئية أو مكتوبة، وبحاجة لمن يتخصّص في تقديم المادة التربوية للشباب، وللفتيات، وللصغار والكبار.

إن التخصُّص يعمّق الخبرات ويركّزها، ويحقّق تميزًا لصاحبه ربما تجاوز التميز في القدرات الشخصية؛ فكثير ممن اعتنوا بجانب من الجوانب وأَوْلَوْهُ جهدهم واهتمامهم استطاعوا أن يحقِّقُوا إنجازًا يفوق ما ينتظره الناس ويتوقعونه منهم

بالنظر إلى قدراتهم، ويفوق كثيرًا من أقرانهم الذين امتازوا عليهم في القدرات والإمكانات الشخصية.

وحين نلقي نظرة عاجلة على الإنتاج المقدَّم لبعض فئات المجتمع، وبالأخص تلك الفئات التي تختلف في مرحلتها وتكوينها عمن يكتبون لها -كما يُكتَب ويُعَدّ للأطفال أو الشباب مِن قِبَل الراشدين-؛ فإننا نرى أن كثيرًا من هذا الإنتاج لا يلائم الفئة المستهدَفة ولا يتناسب مع قدراتها أو يثير اهتماماتها.

إن مجرد الرغبة وحدها لا تكفي لتأهيل المربي للتأثير على فئة بعينها، وما نسميه تجربة أو خبرة قد يكون في بعض حالاته مجرد ممارسات شخصية اعتدنا عليها وألفناها، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنها تجربة صحيحة.

إننا نرى عددًا من الآباء دخلوا دائرة الأبوة لسنوات عدة، وتعاملوا مع أطفالهم لعقود وليست سنوات، ومع ذلك تتكرر منهم الأخطاء والممارسات غير التربوية، ولا يشفع لهم لتجاوز ذلك طول الوقت أو ما يسمونه تجربة وخبرة وهو في الأغلب انطباعات وتعميمات فردية لا ترقى لأن تكون تجربة يُعتمد عليها ويُبنى عليها.

وهذا يؤكد أن التخصُّص العملي في ميدان تربوي ما أو في فئة ما يجب أن يجمع بين أمرين:

الأمر الأول: الأساس النظري، والبناء المعرفي، واستيعاب الأسس التي تحكم مجال التخصص والاهتمام.

الأمر الثاني: الممارسة العملية والخبرة المنظمة، التي تنطلق من الأُسس العلمية المعرفية، أما التجارب الشخصية المجردة فرغم فائدتها إلا أنها قد لا تخلو في حالات كثيرة من القصور والخلل، أو التعارض مع الأسس التربوية السليمة.

أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟

ثمة أمور تبدو للناس على غير وجهها، وثمة صفحات لايقرأ الناس حقيقتها إنما يقرؤون وجهًا آخر غير الوجه الحقيقي لها.

يألف الناس الحياة ويتفاعلون معها فتنسيهم الحياة كثيرًا من الحقائق والأمور البدهية.

كثيرًا ما نسمع واعظًا يشدّنا بوعظه ويحرِّك مشاعرنا.

كثيرًا ما نقرأ كلامًا جميلاً فنرى أنه يعبّر تعبيرًا صادقًا عمَّا في داخلنا.

وحين نتساءل بموضوعية وواقعية: ما الجديد فيما سمعنا؟

تكرر علينا هذا الحديث مرارًا، وسمعناه غير مرة، فهل نقول: لا جديد فيه؟

كيف يكون كذلك وقد غيَّر الكثير في حياتنا؟

نعم، لا جديد في محتواه ومضمونه فقد سمعناه وقرأناه، لكن الجديد في التأثير والفاعلية.

وبقدر ما نحتاج إلى الجديد في المعرفة والمضمون فنحن بحاجة إلى الجديد في العمل والتأثير، فما قيمة معرفةٍ لا عمل وراءها، وما معنى العلم إذا لم يثمر العمل؟

حين يستهدف المربي تقديم المعرفة لذاتها؛ كالتعريف بما هو مجهول، أو تحديد معنى غامض، أو الإجابة عن سؤال مشكل فقد لا يحتاج إلى مزيد جهد وإقناع.

لكن حين يريد المربي إيقاظًا من غفلة، أو تذكيرًا بأمر كثيرًا ما يتكرر نسيانه؛ فهو بحاجة إلى منطق آخر.

ولقد كان المربي الأول ﷺ أسعد الناس بهذه الوسائل والأساليب، كيف لا، وهو القائل ﷺ عن نفسه: «إنما بُعِثتُ معلّمًا» (رواه ابن ماجه ٢٢٩، والدارمي ٣٤٩).

عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس كَنَفَتَهُ، فمرَّ بجَدْيٍ أَسَكَّ ميّت فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟، قال: «أتحبُّون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسَكّ، فكيف وهو ميّت؟. فقال: «فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» (رواه مسلم ٢٩٧٥).

كان ﷺ كثيرًا ما يضرب الأمثال لأصحابه، والأمثال مع إيجازها واختصارها تُوصّل رسالة يصعب إيصالها من خلال التناول المعرفي للقضايا المجرّدة.

ليس كل الناس يستهويهم المنطق أو يحرّكهم ويؤثر عليهم.

وحتى أولئك الذي يمتلكون هذه الصفة؛ فالمنطق إنما يُكسبهم معرفة جديدة، أو يقنعهم بفكرةٍ ما.

لكن حين نريد تكوين اتجاه ما نحو فكرة من الأفكار أو قضية من القضايا فليس بالضرورة أن يكون المنطق وحده هو الأسلوب الأنسب للتعامل مع ذلك.

يتعلّق الناس بالدنيا ويؤثرونها على كثير من أمور دينهم، تخدعهم بزينتها وبريقها فتبدو لهم حسناء جذَّابة؛ فسرعان ما يهوي أحدهم صريعًا بين يديها، ولكن حين يحكِّم أحدهم عقله ومنطقه يدرك أنها سراب خادع.

كم هم الذين يملكون ثروة لو بقوا ينفقون منها في غاية البذخ والإسراف لما استهلكوها طوال حياتهم؟ ومع ذلك لا يزالون يركضون ويلهثون وراء الدنيا، وكلما ازداد أحدهم ثراءً وغنًى ازداد تعلقًا بالدنيا.

كم هم الذين يتجرأون على الشبهات بل المحرمات من المكاسب فيما لا يحتاجون، بل قد أغناهم الله عن ذلك؟

كم هم الذين يكدحون وقد مضى بهم العمر وتقدمت بهم السنّ، فيُهلكون أنفسهم، ويُنهكون أجسادهم التي لم تَعُد تطيق كل ذلك لأجل دنيا لو فكّروا لعلموا أنهم يجمعونها لغيرهم.

هكذا الإنسان؛ ابتلاه الله بحب المال والسير وراء الدنيا؛ قال الله -تعالى-: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ١٧- ٢٠).

وقال -سبحانه-: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٦- ٨).

ومن هنا يدرك المربي الأول ﷺ -وهو يسعى لتزهيد المخاطبين في الدنيا- أنهم في هذا المقام بحاجة إلى الصورة الحيّة والمثل الواقعيّ أكثر من حاجتهم إلى المنطق الذي لا يجهلونه ولا يخفى عليهم.

لقد صوَّر لهم ﷺ الدنيا بهذه الصورة التي يراها الحاضر لخطابه بعينه، ويراها الغائب عنه بخاطره وخياله؛ فيدرك أن الدنيا أهون من هذه الجيفة، فهل تستحق ما يبذل الناس من أجلها؟ وهل تساوي ما يقدمون لها من قرابين من دينهم وحياتهم؟

وهذا التصوير يقود سامعه إلى مزيد من التفاعل مع الموقف، وإلى تأثر واستجابة، قال ابن القيم -رحمه الله-: «فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله ﷺ لتقريب المراد وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مُثِّلَ به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقُّله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النّفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التامّ وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت له الأمثال ازداد المعنى ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له، فهي ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، وهي خاصة العقل ولبّه وثمرته». (إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٢٨).

وقد جاء ضرب الأمثال كثيرًا في كتاب الله -عز وجل- وسُنّة نبيه ﷺ، جاء يحقق وظائف عدة، ومنها:

التذكّر: قال الله -تعالى-: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٥).

ومن أغراضها التفكّر؛ قال -سبحانه-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

ومنها الاعتبار بما أصاب الآخرين؛ قال -جل وعلا-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

والوعي بالأمثال ومعانيها ليس متاحًا لمن يتعامل معها تعاملاً عابرًا، ولا لمن يمر عليها مرور الكرام؛ إنّها بحاجة لأن يمتلك الإنسان القدرة على الفهم والاستنتاج وربطها بواقعه، وأن يمارس التفكر فيها والتأمل.

ولهذا أثنى -تبارك وتعالى- على مَن يعقلون عنه ما ضرب من أمثال، وأخبر أنّ مَنْ مَنَّ عليهم -سبحانه- بالعلم هم الذين يعقلون ويعون الأمثال ويُنزلونها منزلتها، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

إنّ هذا يتطلب من المربين أن يسعوا لأن يعلّموا أولادهم وطلابهم الأمثال القرآنية والنبوية، وأن يُعينوهم على فهمها والوعي بها، وربطها بواقعهم، ويمكن أن يكون موضوع هذه الأمثال والاستنباط والاستنتاج منها مجالاً للعديد من الأنشطة والتفاعلات التعليمية بين المعلم وتلامذته.

إنّ مجرّد ضرب المثل، أو الإشارة إليه لا يكفي في تحقيق الوظيفة التربوية له، وحتى نكون أكثر دقّة يمكن أن نقول: إنّ وعي المربي بالأسلوب التربوي في توظيف الأمثال سيزيد من فاعليتها؛ لتتجاوز مجرد التشويق والتوضيح.

كان ﷺ ينوِّع في أسلوب ضرب المثل:

فهو تارة ينصّ على وجه الشبه ويبيِّنه، ومن ذلك حديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة» (رواه البخاري ٥٥٣٤، ومسلم ٢٦٢٨).

وهو ﷺ حين يبيّن وجه الشبه بأوجز لفظ وأتمه دون أن يُخلّ ذلك بسياق حديثه ﷺ.

وتارة أخرى لم يكن ﷺ يذكر وجه الشبه، بل يترك ذلك للناس ليستنبطوا وجه المثل والتشبيه، سواء من سمعوه منه ﷺ مباشرةً أو سمعوه بعده.

ومن ذلك ما في الصحيحين عن مجاهد قال: «صحبت ابن عمر ﷺ إلى المدينة فلم أسمعه يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا، قال: كنا عند النبي ﷺ فأُتِيَ بجُمّار، فقال: إن من الشجر شجرةً مثلها كمثل المسلم، فأردت أن أقول: هي النخلة؛ فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ. قال النبي ﷺ: هي النخلة» (رواه البخاري ٧٢، ومسلم ٢٨١١).

وفي مثل هذه النماذج يجد القارئ لشروح الأحاديث النبوية كيف أن أهل العلم اجتهدوا وبذلوا وسعهم في اكتشاف وجه الشَّبَه والتمثيل.

قال ابن حجر حول حديث النخلة السابق:

«قال القرطبي: فوقع التشبيه بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت، وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قُوت للأرواح مستطاب، وأنه لا يزال مستورًا بدينه، وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حيًّا وميتًا. انتهى. وقال غيره: والمراد بكون فرع المؤمن في السماء رفع عمله وقبوله، وروى البزار أيضًا من طريق سفيان بن حسين عن أبي بشر عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن مثل النخلة؛ ما أتاك منها نفعك»؛ هكذا أورده مختصرًا وإسناده صحيح، وقد أفصح بالمقصود بأوجز عبارة» (فتح الباري ١/ ١٤٧).

إن الإبهام لوجه الشبه يحقق فوائد وأغراضًا عدَّة، منها:

- أن يكون ثمة أكثر من وجه للشبه؛ فيفتح المجال في ذلك لتنوُّع أسباب التشبيه، وقد يكون وجه الشبه واحدًا، لكن له تطبيقات وصور عدة كما في حديث النخلة؛ حيث علَّل بعضهم بعموم النفع وتعدّيه، فوجه الشبه هنا واحد لكنَّ تطبيقاته عديدة، فتَعدِّي نَفْع النخلة له أكثر من صورة، وهكذا تعدِّي نَفْع المؤمن.
- ومن ذلك أيضًا أن يكون وجه الشبه واضحًا يفهمه السامع لا يحتاج إلى تعليل أو بيان؛ فيكون حينئذ بيانه على خلاف مقتضى البلاغة.

ومن أمثلة ذلك حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «مَثَل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مَثَل الحي والميت» (رواه البخاري ٦٤٠٧، ومسلم ٧٧٩).

ومن هنا فإن إرسال المتحدِّث للأمثال دون تعليق أو توضيح، قد يكون هو الأبلغ، وحين يسعى المتحدث إلى بيانها وتوضيحها ينخرم اتساق حديثه ويقطع سلاسته.

ومن أغراض الإبهام أيضًا أنه يقود السامع لأن يبذل جهدًا في اكتشاف وجه الشبه والعلاقة بين الصورتين وهو مطلب تربوي له أهميته.

إننا بحاجة لأن نجعل تلامذتنا والمستمعين لنا يتفاعلون مع مواقف التعليم والتوجيه؛ وحين نقدِّم لهم كل شيء في صورة نهائية فستنتهي مهمتهم عند حفظ ما يسمعون واستحضاره، ولم يكن كذلك منهج المعلم الأول ﷺ.

ووظيفة ضرب المثل أو أي توجيه تربوي ليست قاصرة على مجرد تقديم محتوى الفكرة للمستمع، وإن كان هذا مطلوبًا ومستهدَفًا.

ولكن ينبغي أن تتجاوز ذلك لتحقيق الأغراض الأخرى في بناء شخصيته، ومن أهم هذه الأغراض قدرته على معالجة المعلومات بالفهم والتحليل، وبالاستنباط والاستنتاج، وبالربط والمقارنة، وأخيرًا بتنزيلها على واقعه الشخصي وواقع مجتمعه.

فحينما نحدّثه مثلاً عن حديث النبي ﷺ الذي ضرب فيه مثل الجليس الصالح والجليس السوء فينبغي أن نسعى لتحقيق هذا الهدف، وهو التنفير من الجليس السوء والترغيب في الجليس الصالح، ثم نضيف إلى ذلك أن ننمِّي الجوانب الأخرى في شخصية هذا المتعلم، ويكون هذا من خلال تحليل هذا الموقف النبوي، وفهمه والاستنباط منه، وتطبيقه على واقع المتربي.

وهذه الأهداف لا يمكن أن تتحقق من خلال تناولها هي باعتبارها محتوى تربويًّا، بمعنى أنه لا يكفي أن نحدّث المتربي عن أهمية الفهم، وعن أهمية الاستنتاج والربط؛ فغاية ما نحقّقه في ذلك هو أن يدرك أن هذا الأمر مهم.

لكن مهمة المربي ينبغي أن تتجاوز مجرد التأكيد والتوجيه إلى إكسابه هذه المهارات، وهذا يتحقق من خلال أسلوب التعليم والتوجيه، وطرق الخطاب والمحاورة.

والهدف لن يتحقق من خلال سرد مجموعة من الأمثال أو القصص والأخبار في حديثنا إنّما يتطلّب أن نقدّمها بطريقة تستثير تفكيره، وتقوده للمقارنة والتحليل والاستنتاج والربط.

وهذا يعني أن يفكّر المربي جيدًا وهو يُعِدّ لما سيقول، وأن يستحضر في ذهنه هذه الأهداف، وأن يدير الحديث والحوار والموقف التربوي التعليمي بما يحقّق هذه

الأهداف وهذه الأغراض، أما مجرد الاكتفاء بذكر الأمثال وسردها هكذا؛ فقد لا يحقّق مثل هذا النوع من الأهداف المهمة المرجوّة في بناء شخصية أولادنا.

كما أن الإبهام أيضًا يحقّق التنويع، والتنويع له أثره في التشويق وإذهاب الملل، وله أثره في استيعاب كافة فئات المخاطبين؛ فمن الناس مَن يميل إلى التفصيل والتحديد، ومنهم من يميل إلى الإجمال والإيجاز، ومنهم مَن يفهم بالإشارة، ومنهم مَنْ يحتاج إلى مزيد من التوضيح حتى يفهم المراد.

ومن صور التنوع في ضرب الأمثال لدى المربي الأول ﷺ: أنه تارة يضرب المثل لصورتين أو أكثر؛ فيقارن بين هذه الصُّوَر، وهذا كثيرٌ في السُّنة، ومنه ما أُشير إليه من تشبيه المؤمن بخامة الزرع والمنافق بالأرزة، والجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، والذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه بالحي والميت.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:«مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق شيئا إلا مادت على جلده، حتى تجن بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد ينفق إلا لزمت كل حلقة موضعها، فهو يوسعها فلا تتسع» ويشير بإصبعه إلى حلقه (رواه البخاري ٥٢٩٩، ومسلم ١٠٢١).

فما مضى كان لصورتين، وتارة تزيد الصور: ومن ذلك ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر» (رواه البخاري ٥٤٢٧، ومسلم ٧٩٧).

ومنها أيضًا ما رواه أبو موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (رواه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢).

إن ضرب المثل لصورتين متقابلتين أو لأكثر من صورة يتيح مجالاً للمقارنة بين هذه النماذج، فهي إمّا صورتان متقابلتان فيتضح الضدّ بضدّه، وبضدها تتميز الأشياء، وإما أكثر من صورة فتكون متدرِّجة وليست قسمة ثنائية.

وحين يضرب ﷺ مثلاً لصورتين أو أكثر فالمشبَّه به يختلف؛ فهو تارةً يكون شيئًا واحدًا اختلفت صفته كما حديث المنفق والبخيل؛ حيث كان المشبَّه به رجل عليه جُبَّة من حديد لكن اختلف وصفها وأثرها.

وتارة يكون المشبَّه به شيئين متناقضين مختلفين؛ كنافخ الكير وحامل المسك، وكالحي والميت، والأَرْزَة وخامة الزرع، والأُترجة والريحانة والتمرة، وأنواع الأرض التي ينزل عليها الماء فيختلف أثره عليها.

وتارةً يمثّل ﷺ لصورة واحدة؛ إذ المقارنة ها هنا غير مقصودة ولا مرادة، إنما المراد الحديث عن هذه الصورة وحدها، ولذلك أمثلة كثيرة في السنة، ومن ذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «بينا أنا أوعك في المسجد إذ جاء رسول الله ﷺ حتى

دخل المسجد فقال: من أحسَّ الفتى الدوسي ثلاث مرات؟... الحديث؛ وفيه أنه خطب الرجال فقال: «هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه، وألقى عليه ستره واستتر بستر الله» قالوا: نعم، قال: «ثم يجلس بعد ذلك فيقول فعلت كذا فعلت كذا»، قال: فسكتوا، قال فأقبل على النساء، فقال: «هل منكن من تحدث؟» فسكتن فجثت فتاة قال مؤمل، في حديثه فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها فقالت: يا رسول الله، إنهم ليتحدثون، وإنهن ليتحدثنه، فقال: «هل تدرون ما مثل ذلك؟» فقال: «إنما مثل ذلك مثل شيطانة، لقيت شيطانًا في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه، ألا وإن طيب الرجال ما ظهر ريحه، ولم يظهر لونه، ألا إن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه» (رواه أبو داود ٢١٧٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعَقَّلَة؛ إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» (رواه البخاري ٥٠٣١، ومسلم ٧٨٩).

وحين يضرب ﷺ المثل لصورة واحدة يتنوّع الغرض والهدف؛ فهو تارة يهدف إلى التنفير من صورة سلبية، ومن هنا يكون المشبّه به مكروهًا لدى السامع ومنفرًا، ومن ذلك حديث أبي هريرة السابق فيمن يتحدّث عمّا بينه وبين أهله.

ومنه أيضًا: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه، ليس لنا مثل السوء» (رواه البخاري ٦٩٧٥، ومسلم ١٦٢٢).

وعن أبي حبيبة الطائي قال: «أوصى إليَّ أخي بطائفة من ماله، فلقيت أبا الدرداء

فقلت: إن أخي أوصى إليَّ بطائفة من ماله، فأين ترى لي وضعه؟ في الفقراء أو المساكين أو المجاهدين في سبيل الله؟ فقال: أمّا أنا فلو كنت لم أعدل بالمجاهدين، سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل الذي يُعْتِق عند الموت كمَثَل الذي يُهْدِي إذا شَبِعَ»

(رواه أحمد ٢١٢١٢، وأبو داود ٣٩٦٨، والترمذي ٢١٢٣، وقال حسن صحيح، والنسائي ٣٦١٤).

فما أحوجنا إلى العودة إلى الأمثال في القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة دراسةً وفهماً وتعليماً، ونستضيء بنورها في التربية والإرشاد وتقريب المعاني الكبيرة في صورة محسوسة يفهمها المتربون.



مثل ما بعثني الله

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (رواه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢).

في بلاغة نبوية، ومنطق فصيح يختزل النبي ﷺ هذه المعاني العظيمة في هذا التوجيه النبوي. يشبّه ﷺ الوحي الذي أرسله الله به بالغيث الكثير الذي أصاب الأرض، ويشبه القلوب بالأرض على اختلاف أنواعها.

وقد ضرب الله -تعالى- المثل للوحي بالغيث وللقلوب بالأرض في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧).

إن القلوب مادة خام أشبه ما تكون بالأرض الميتة، ولن تحيا هذه القلوب إلا بما جعله الله وسيلة وسببًا في إحيائها، وهو الوحي بقسميه؛ الوحي المتلو وهو القرآن، والوحي غير المتلو وهو السُّنَّة النبوية.

وفي تشبيه علاقة الوحيين بالقلوب بالماء للأرض الميتة بيانٌ لأثرهما في إصلاح القلوب وحياتها، وفيه دعوة للناس أجمع أن يبحثوا عن حياة قلوبهم من خلال هذين المصدرين القرآن والسُّنَّة.

ولقد تنوَّعت دلائل القرآن الكريم في بيان أثر القرآن على القلوب المؤمنة، فقلوب المؤمنين تلين له؛ قال الله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

والقلوب تطمئن به؛ قال -سبحانه-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

وتزداد إيمانًا وهدًى؛ قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢)؛ والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن الكريم يضيق المجال عن حصرها.

إن في هذا توجيهًا للمربين لأن يتخذوا من القرآن وسُنَّة النبي ﷺ منهجًا تربويًّا ووسيلة لإصلاح القلوب وربطها بخالقها -سبحانه وتعالى-.

إننا نرى اليوم يقظةً وصحوةً في الاعتناء بالقرآن والسُّنة؛ هذه الصحوة تمثَّلت في الاعتناء بحفظ القرآن الكريم؛ فغدا البدء بحفظ القرآن سُنَّة مُتَّبَعَة لمن يسلك طريق العلم الشرعي من الشباب والفتيات وهو مُؤَشِّر خَيْر وبشير توجُّه صالح.

وانتشرت مؤسَّسات العناية بالقرآن الكريم وتحفيظه في أرجاء العالم الإسلامي، وصارت أرقام المنتسبين إليها وتقارير إنجازاتها في صعود مستمر، والحمد لله.

كما انتشر الاعتناء بحفظ السنة النبوية، وصارت سُنّة حسَنة يتَّجه إليها غيرُ قليل ممن أتقن حفظ القرآن الكريم.

ومع ما نراه من أثر إيجابي على سلوك المنتسبين لتعليم القرآن وحفظه، وما تتركه هذه المؤسسات من أثر تربوي يبقى سؤال مهم:

هل الآثار التربوية التي تتركها برامج العناية بالقرآن والسُّنة تتلاءم مع ما هو متوقع ومنتظر؟ إن تخلّف الأثر المرجو من تعلم القرآن وحفظه ليس مصدره أن القرآن لا يؤثر في النفوس، فقد بيَّن الله -تبارك وتعالى- في كتابه أن النفوس تتفاوت في تلقّيها لأثر القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤- ١٢٥).

والسؤال المهم الذي ينبغي أن يسأله كلّ مُرَبّ لنفسه:

هل مُعلِّم القرآن الكريم ومُعلِّمته يسعون ويستهدفون إلى تحقيق هذا الأثر؟

أليس الهدف الأغلب لدى كثير منا أن يحفظ الطالب أو تحفظ الطالبة قدرًا من القرآن، وأن يطبق أحكام التجويد في تلاوته؟

إن شعور مُعلِّم القرآن بأن من مهمته في تعليم القرآن والسنة أن يُعلِّم الطالب محبة القرآن والسنة، والتأثر بالنصوص، وفهمها، وتدبرها، وشعوره بأن من أهدافه أن يخرِّج جيلاً يتربى على القرآن والسنة، وجيلاً يظهر عليه أثر نصوص الوحي فيحيا القلب والفؤاد به، إن هذا الشعور سيقود إلى مراجعة كثير مما يتَّصل بالتعليم؛ فيظهر أثر

ذلك في الأهداف، ويظهر في طرق التعليم، وفي بيئة التعليم، وفي أساليب التقويم.

إن الخطاب النبوي الذي تضمّن ثناءه ﷺ على من فقُه في دين الله، وبيانه ﷺ لاختلاف أثر الوحي على القلوب لا يقتصر على خطاب المستمع للحديث بشخصه، إنما هو خطاب له ولمن يتولى التربية والتعليم.

إنه يتضمَّن خطابًا لمن يسعون لتربية الناس على الوحيين، ألا يكون الحفظ والتحصيل لألفاظهما هو نهاية المطاف.

إن عامَّة الناس اليوم يستقبحون أن يروا خللاً في سلوك حافِظ للقرآن الكريم، أو منتسِب للعلم الشرعي، وحين يرون من سلوكه وخُلُقه ما يعيب فإنهم يذكِّرونه بحفظه للقرآن والسنة، وبانتسابه للعلم الشرعي.

وهذه النظرة ليست من فراغ، وهي تتطلب من القائمين بشؤون تعليم الوحيين أن يسعوا لغرس هذه المعاني وتحقيقها لدى المتربين.

وهذا الغرس لا يكفي فيه مجرد التأكيد على المتعلم بين وقت آخر بضرورة التأثر بالوحيين، ولا بمجرد الوصايا العابرة أو المتكررة، وإن كان ذلك مطلوبًا ومهمًا.

إنه يتطلب أن نعلّمه هذه المعاني بدلاً من أن نكتفي بوصيته بها أو أمره بتحقيقها، وهو ما يحدثنا عنه من تلقَّى علوم الوحي عن أصحاب النبي ﷺ، قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي ﷺ، أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل (رواه أحمد ٢٣٤٨٢).

وعن أنس ﷺ قال: وكان الرجل إذا قرأ: البقرة وآل عمران، يُعَدّ فينا عظيمًا.

(رواه أحمد ١٢٢١٦، وأصله في البخاري).

وفي هذا الحديث -غير ما سبق- عدة وقفات تربوية، منها:

أولاً: التأكيد على أهمية الفقه والفهم، فقد أثنى النبي ﷺ على الذين يفقهون، وجعلهم أعلى الطائفتين، والفقه مرحلة أعلى من مجرد العلم بالنص وحفظه؛ فهي تعني فهم المراد وإدراكه، كما تعني فهم الواقع الذي يُرَاد تطبيق النص عليه.

وامتلاك الإنسان للفقه أمارة على إرادة الله الخير بصاحبه؛ فعن حميد بن عبد الرحمن قال: سمعت معاوية ﷺ خطيبًا يقول سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن يُرِد الله به خيرًا يُفقّهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» (رواه البخاري ٧١ ومسلم ١٠٧٣).

وقد وصف الله تعالى المنافقين بقلّة الفقه فقال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الفتح: ١٥).

كما وصف أهل النار بذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وهذا يؤكّد على المتعلمين أن يعنوا بالفقه، وألا تقصر همتهم على مجرد استحضار النصوص وحفظها.

كما أنه يُمثّل توجيهًا للمربين والمعلمين أن يعنوا بهذا الأمر، فكما أن من الفقه ما هو سجية وطبيعة لدى صاحبها فهناك قدر يمكن اكتسابه وتعلّمه.

وهذا يتطلّب الاعتناء بإكساب المتعلمين أدوات الفقه والفهم للنصوص الشرعية.

وهو يتطلب أن تكون طرق التدريس والتعليم مؤدية لاكتساب المتعلم للفقه وأدواته، وهذا لا يتحقّق في الطرق التقليدية التي تقتصر على الإلقاء من المعلم أو الشيخ بينما يبقى دور المتعلم قاصرًا على السماع والحفظ فحسب.

ومن تأمل مجالس النبي ﷺ وأسلوبه في التعليم رأى هذا الأمر واضحًا جليًّا، فكثيرًا ما كان ﷺ يسأل أصحابه: أتدرون؟، أرأيتم؟

وفي مجالسه ﷺ يسأل كثيرًا فلا يقتصر ﷺ على إجابة السائل عن سؤاله بشكل مباشر، فهو يوجّه له السؤال الذي يقوده إلى استنباط الحكم.

فحين سأله رجل عن امرأته التي ولدت ولدًا لا يشبهه؛ سأله ﷺ عن ماله، ثم قاس الحالة بحالة الإبل.

وحين سألته امرأة عن أمها التي ماتت وعليها صيام؛ سألها ﷺ عما لو ماتت الأم وعليها دَيْن.

واستعراض نماذج التعليم النبوي أكثر من أن يُحْصَر، والمقصود الاستشهاد على ضرورة أن يراعي المعلمون والمشايخ في تدريسهم وتعليمهم تحقيق الفقه للمتلقين والمتعلمين، وألا يقف الأمر عند مجرد تحفيظ النصوص أو إلقاء مسائل العلم، ولا يكفي في الأمر مجرد التأكيد على أهمية الفقه، فليست وظيفة المعلم والمربي التأكيد والوصية فحسب، بل وظيفته مع ذلك إكساب المتربي الأدوات الصحيحة وتنمية شخصيته.

ثانيًا: من الوقفات التربوية حول هذا التوجيه النبوي بيان تنوُّع الناس واختلافهم، وأن مجال النجاح والإسهام في الخير للناس ليس مجالاً واحدًا فحسب.

قال الحافظ ابن حجر: «قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه؛ فكما أن الغيث يحيي البلد الميت؛ فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم شبَّه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه؛ غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقّه فيما جمع، لكنَّه أدَّاه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فأدَّاها كما سمعها»، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه، ولا يعمل به ولا ينقله لغيره؛ فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها، وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأولين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها، والله أعلم» (فتح الباري ١/ ١٧٧).

ولهذا أثنى النبي ﷺ في أحاديث أُخر على من لا يملكون الفقه، لكنهم يؤدّون الخير للناس.

عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان نصف النهار، قلنا: ما بعث إليه في هذه الساعة إلا لشيء سأله عنه، فسألناه، فقال: نعم؛ سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ،

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضَّر الله امرأً سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلِّغه غيره، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورُبّ حامل فقه ليس بفقيه» (رواه أحمد ٢١٠٨٠، وأبو داود ٣٦٦٠، والترمذي ٢٦٥٦).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها؛ فرُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغِلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتَهُمْ تحيط من ورائهم» (رواه الترمذي ١٦٥٨).

وهذا يتطلب من المربين والمعلمين أن يسعوا لفتح أبواب بناء النفس وعطائها أمام أبنائهم، فلا يقفون عند مجال أو باب واحد.



إنا قافلون غدًا

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما كان رسول الله ﷺ بالطائف قال: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله»، فقال ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: لا نبرح أو نفتحها، فقال النبي ﷺ: «فاغدوا على القتال»، قال: فغدوا فقاتلوهم قتالاً شديدًا وكثر فيهم الجراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله» قال: فسكتوا، فضحك رسول الله ﷺ (رواه البخاري ٦٠٨٦، ومسلم ١٧٧٨).

وقعت غزوة الطائف في العام الثامن من الهجرة، فبعد أن فتح النبي ﷺ مكة، واستقر له الأمر فيها اتجه بأصحابه إلى الطائف، وكان أهل الطائف قد أحكموا حصونهم فاستعصى على المسلمين فتحُها.

واستشار ﷺ -كعادته- أهل الشأن في ذلك، قال الواقدي: «حدثني كثير بن زيد بن الوليد بن رباح عن أبي هريرة قال: لما مضت خمس عشرة من حصار الطائف استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال: يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟ قال: يا رسول، ثعلبٌ في جحرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته؛ وإن تركته لم يضرّك» (البداية والنهاية ٤/ ٣٥٠).

وقد رأى النبي ﷺ رؤيا فسّرها أبو بكر رضي الله عنه بامتناع حصن الطائف عليه.

قال ابن إسحاق: «وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وهو محاصر ثقيفًا: يا أبا بكر، إني رأيت أني أهديت لي قعبة مملوءة زبدًا فنقرها ديك فهراق ما فيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: وأنا لا أرى ذلك» (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٤).

قال: «ثم إن خولة بنت حكيم السلمية وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله، أعطني إن فتح الله عليك حُلِيّ بادية بنت غيلان بن سلمة، أو حُلِيّ الفارعة بنت عقيل - وكانت من أحلى نساء ثقيف- فذكر أن رسول الله ﷺ قال لها: وإن كان لم يؤذن في ثقيف يا خويلة؟

فخرجت خولة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ ما حديث حدَّثتنيه خولة زعمت أنك قلته؟ قال: قد قلته، قال: أو ما أُذن فيهم؟ قال: لا. قال: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال: بلى» (سيرة ابن هشام ٢ / ٤٨٤).

وحين نادى منادي رسول الله ﷺ أصحابه بالرحيل كان طموح أصحاب النبي ﷺ لم ينته وأملهم لا يزال قائمًا في فتح الحصن؛ فقال بعضهم مقولته: «لا نبرح أو نفتحها».

فترك لهم النبي ﷺ المجال فقاتلوا فأصابهم ما أصابهم فاقتنعوا بالرحيل.

قال ابن حجر -رحمه الله-: «وحاصل الخبر أنهم لما أخبرهم بالرجوع بغير فتح لم يعجبهم، فلما رأى ذلك أمرهم بالقتال فلم يُفتح لهم، فأُصيبوا بالجراح؛ لأنهم رموا عليهم من أعلى السور، فكانوا ينالون منهم بسهامهم ولا تصل السهام إلى من على السور، فلما رأوا ذلك تبيَّن لهم تصويب الرجوع، فلما أعاد عليهم القول بالرجوع أعجبهم حينئذ» (فتح الباري ٨/ ٤٥).

لقد كان باستطاعة النبي ﷺ أن يأمر أصحابه أمرًا جازمًا بالرحيل فيرتحلوا طاعةً له ﷺ واستجابةً له، إلا أنه ﷺ لم يشأ أن يحسم الأمر بهذه الصورة، بل تركهم حتى صاروا هم المطالبين بالقفول.

إنّ في هذا التعامل النبوي وقفات تربوية عدة، منها:

أولًا: الاعتناء بإقناع الناس، وبالأخص في المواقف التي يتعاملون معها عمليًا، أو في التخلّي عن مطالب كانت مُلِحَّة لديهم، ويرون أنها تُحقّق أهدافهم وما يتطلعون له، ولا بد أن نستوعب المسافة بين الاقتناع النظري والمواقف العملية.

بعض الذين يذمون الظلم والإيذاء بصدق هم من أكثر الناس إيذاءً، وبعض من يدعون الناس دعوة صادقة إلى الاعتدال هم من أكثر الناس تطرفًا وحدَّة، وهكذا فالاقتناع النظري إنما هو خطوة مهمة وليس كل شيء.

في مواقف عدة يطلب التلاميذ أو الأبناء من معلمهم أو والدهم مطلبًا ما، ويشكّل هذا المطلب أهمية لديهم، وقد يرى المربي من خلال خبرته أنّ المطلب لن يتحقّق، فماذا يضير لو ترك الأمر لهم ليقتنعوا بالنتيجة، وبخاصة حين لا يترتب على ذلك نتائج سلبية؟

في رحلة عائلية، في الصف الدراسي، في البرنامج التربوي مواقف عدة يعلو فيها صوت المتعلمين والأبناء بمطالب تشكّل أهمية من وجهة نظرهم، فبدلاً من أن تتحول إلى صراع بينهم وبين المربي فليترك لهم الأمر ليقتنعوا بأنفسهم.

ثانيًا: ومن الوقفات في هذا التعامل النبوي: عدم إصراره ﷺ على رأيه، وللمربين من بعده أسوة، فكثيرًا ما يُصرُّ المربّي على رأيه في قضايا شكلية أو إجرائية، ويغلف ذلك الإصرار بدعوى الحرص على مصالح المتربين، وبأنه يدرك ما لا يدركون، ولو صح ذلك كله أو شيء منه، فالأمر لا يستحق هذا الإصرار الذي يربي هؤلاء على التشبث بآرائهم ومواقفهم في المستقبل، ويعلمهم ألا يروا لأنفسهم قيمة ووزنًا.

ثالثًا: ومنها أيضًا: أنه ﷺ كان ينظر إلى المستقبل نظرة أوسع وأرحب، فلم يكن ثمة ما يدعو للإلحاح على حسم الموقف في هذه اللحظة؛ إذ لم يتم العام حتى جاء أهل الطائف مسلمين متابعين له ﷺ.

إن المربين وهم يرعون أبناءنا وبناتنا الشباب -الذين يتقدون حماسة وعاطفة- بحاجة ماسة إلى أن يمتلكوا الحكمة وبُعد النظر التي ترشد وتوسّع الآفاق وتعطي النظرة البعيدة دون الاصطدام بمشاعرهم وعواطفهم الجيَّاشة التي ليست دومًا عاطفة مندفعة.

المربي الناجح ليس من يصطدم بالعواطف، أو يقابلها بالاستخفاف والنقد اللاذع، وليس من يستجيب لها.

إنّ منطق بعضهم لو تعامل مع مثل حادثة الطائف: لِمَ ننصرف ونتخاذل عن عدونا؟ فليُقْتَل منا مَن يُقتل، وليَمْضِ للشهادة من يمضي، وليحصل لنا من الجراح ما يحصل، فنحن في ميدان الجهاد والصراع مع عدوّنا.

لم نر هذا المنطق من النبي ﷺ ولا من أصحابه؛ إنه النموذج الناضج في التربية والبناء، النموذج الذي يبني النفوس بناء متوازنًا فلا هو يلغي التعاطف مع قضايا الأمة ومشكلاتها بل يستثمره ويثمّنه، وفي الوقت نفسه يربّي الناشئة على أن يتفاعلوا مع المواقف بكافة جوانب شخصياتهم لا بعواطفهم فحسب.

فما أحوجنا اليوم للمربّي الناضج الذي لا يختزل القضايا أمام الآخرين في أزمة أو مشكلة؛ بل يضع الأزمات والمشكلات والتطلُّعات في موقعها الملائم في خارطة الاهتمامات.

ينكأ لك عدوًا

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء الرجل يعود مريضًا قال: اللهم اشفِ عبدك؛ يَنْكَأ لك عدوًّا، ويمشي لك إلى الصلاة» (رواه أحمد ٦٥٦٤، وأبو داود ٣١٠٧).

وفي رواية أنه أمر بذلك؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إذا جاء الرجل يعود مريضًا فليقل: اللهم اشفِ عبدك؛ يَنْكَأ لك عدوًّا أو يمشي لك إلى جنازة». قال أبو داود: وقال ابن السرح: «إلى صلاة» (أبو داود ٣١٠٧).

كان ﷺ يعيش هموم أصحابه، يشاركهم في الأفراح والأحزان، وكان مما يشاركهم فيهم أن يعود مريضهم.

وكانت تربية النبي ﷺ لأُمّته ليست قاصرة على مجال الوعظ والتوجيه فحسب، وليس مصدرها ما يسمعونه منه في المنبر، بل كان ﷺ يعيش الواقع التربوي في تعامله مع أصحابه في كافة مواقفهم وأحوالهم.

إنّ هذا الدعاء الذي كان ﷺ يدعو به للمريض يصوِّر واقع المسلم وحياته؛ إنه رجل فاعل إيجابي، رجل إيجابي في ذاته فهو يتقرّب إلى ربه -تبارك وتعالى- فيما بينه وبينه، كما يتقرب إلى ربه -عز وجل- في الأعمال التي يتعدَّى نفعها للمسلمين.

الصلاة تمثل أهم عمل بدني يتقرب به العبد إلى ربه؛ فهي عمود الإسلام، وهي الحدّ بين الكفر والإسلام، وهي العمل الذي كان أصحاب النبي ﷺ يُكفِّرون من

تركه، ويوم القيامة تكون الصلاة أول عمل يُحاسَب عنه العبد؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر.

فنبَّه بها ﷺ على ما دونها من الأعمال؛ كالصوم والذكر والدعاء، ونحو ذلك.

والعمل الآخر ينتمي إلى الجهاد في سبيل الله -عز وجل- بمفهومه الواسع، والجهاد أفضل الأعمال المتعدية بعد الفرائض؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلّني على عملٍ يعدل الجهاد قال: «لا أجده»، قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟»، قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إنَّ فَرَس المُجاهِد لَيَسْتَنُّ في طِوَلِه، فيُكْتَبُ له حَسَناتٍ» (رواه البخاري ٢٧٨٥، ومسلم ١٨٧٨).

والنكاية بالعدو ليست قاصرة على مباشرة القتال، بل هي تتَّسع مع اتساع مفهوم الجهاد في سبيل الله -عز وجل-؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

(رواه أحمد ١١٨٣٧، وأبو داود ٢٥٠٤، والنسائي ٣٠٩٦).

وعلى هذا نصَّ شارح الحديث، ففي عون المعبود: « (يَنْكَأ): بفتح الياء في أوله وبالهمزة في آخره مجزومًا أي يجرح. (لَك عَدُوًّا)؛ أيْ: الكفار، أو إبليس وجنوده، جاهدوا المشركين ويكثر فيهم النكاية بالإيلام وإقامة الحجة والإلزام بالجزم» (عون المعبود ٨/ ٢٥٨).

ومن هنا فالنكاية للعدو تتنوَّع وتتعدَّد مجالاتها؛ فمنها:

- القتال في سبيل الله، والإثخان بالقتل في أعدائه.
- النكاية بهم من خلال الحُجَّة والبيان، وذلك ببذل الجهد في الحديث عن

الإسلام ومحاسنه، وفي الدعوة إليه وإبرازه أمام الناس بالصورة التي تدعوهم إلى الإيمان به وقبوله، ولا نزال نرى الأعداء اليوم يتبرّمون مما يرونه من جهد من المؤسسات والجميعات الإسلامية في الدعوة إلى الإسلام، واحتلال مواقع كانت من قبل حِكْرًا على دعاة الكفر الضلالة.

- ومن أهم صور النكاية بالأعداء: ما يرونه من جدّية شباب المسلمين وفتياتهم في كافة مجالات الحياة؛ فحين يرون أبناء المسلمين وبناتهم متميزين في تحصيلهم العلمي، جادين في حياتهم، يقودون مجتمعهم نحو اقتصاد قويّ، ونهضة صناعية، واستقرار اجتماعي؛ فإن هذه المؤشرات من أهم ما يثير القلق لدى هؤلاء على مستقبل صراعهم الحضاري مع أمة الإسلام.

إنَّ المربين اليوم وهم يتأسون بنبيهم ﷺ بحاجة إلى أن يغرسوا لدى أبنائهم وبناتهم الشعور بقيمة الدور الحقيقي الذي يُنْتَظر منهم في الحياة.

إنهم بحاجة إلى أن ينشئوهم على أن تكون لهم قيمة إيجابية في الحياة؛ فيعبدون ربهم -تبارك وتعالى- فيما بينهم وبينه، ويعبدونه بالأعمال التي يتعدى نفعها إلى مجتمعاتهم وإخوانهم المسلمين.

وهذا الشعور الذي ننتظره من أبنائنا وبناتنا ينبغي أن يمتد ويتَّسع مجاله في تفكيرهم، فيعيش المريض وهو ينتظر الشفاء على هذا الهاجس والمطلب؛ إذ هو يرى أن قيمة حياته أن يكون فاعلاً ومنتجًا وإيجابيًّا، فهو حين يمرض يسأل الله الشفاء والعافية، ومن أهم مقاصده في هذا الشفاء أن يكون إيجابيًّا فاعلاً في حياته الشخصية، وفي صلته بمجتمعه.

ولهذا فأولئك الذي يصرفون ما متَّعهم الله به من صحة ورخاء في غير هذه الوظيفة العالية خاسرون، بل هم من أكبر الناس خسارة في حياتهم.

عن ابن عباس ﵄ **قال:** قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ» (رواه البخاري ٦٤١٢).

كثيرًا ما يسمع منا أبناؤنا وبناتنا اللوم والتقريع لهم على ضعف همهم، وعلى دُنُوّ اهتماماتهم، وعلى انشغالهم بالتوافه من الأمر، ولهذا اللوم رصيدٌ من الواقع.

لكن هل باللوم وحده نستطيع بناء الأجيال؟

حين نريد بناء جيل إيجابي فاعل فلا بد أن ينشأ لديه الشعور بأهمية الإيجابية.

ثم ينشأ لديه الشعور بقيمته ومكانته، وبأنه يستطيع أن يكون فاعلاً وإيجابيًا.

ثم تتضح له معالم الإيجابية: ما الفرص المتاحة، وما المجالات المنتجة الفاعلة في الحياة؟

ثم يعيش التفاؤل والشعور بالقدرة على النجاح والإسهام الإيجابي في الواقع.

ثم يكتسب المهارات والأدوات التي تعينه على أداء هذا الدور والمهمة.

إن اتساع هذه المهمة التربوية لدى المربين ووضوح الصورة يعينهم على أدائها بشكل أفضل.

ومع ذلك لا بد من الفصل بين اشتراط الإيجابية في واقع الأمة، وبين تحقيق قدرٍ كافٍ من التديُّن والتربية.

إن المربين اليوم بحاجة إلى أن يفتحوا المجال مع شباب المسلمين وفتياتهم أيًا كان تديُّنهم، أن يفتحوا المجال أمامهم ليكونوا إيجابيين في واقعهم ولو كان لديهم قصور في التديُّن، وأن يعينوهم على التخلُّص من الشعور بأنَّ الإيجابية مرتبطة بتحقيق كمال التدين الشخصي، مع التوازن الذي يحول دون أن يكون هذا المطلب سببًا لتهميش شأن التدين في نفوسهم.

أعطوا الطريق حقه

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس بالطرقات» فقالوا: يا رسول الله؛ ما لنا من مجالسنا بُدّ؛ نتحدّث فيها، فقال: «إذ أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (رواه البخاري ٢٤٦٥، ومسلم ٢١٢١).

ووقع في حديث أبي طلحة عند مسلم وأحمد بيان سبب النهي؛ فعن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه قال: قال أبو طلحة: كنا قعودًا بالأفنية نتحدث فجاء رسول الله ﷺ، فقام علينا فقال: «ما لكم ولمجالس الصُّعُداتِ! اجتنبوا مجالس الصُّعُداتِ». فقلنا: إنّما قعدنا لغير ما بأس؛ قعدنا نتذاكر ونتحدّث، قال: «إما لا فأدُّوا حقها؛ غضّ البصر، وردّ السلام وحسن الكلام» (رواه مسلم ٢١٦١ وأحمد ١٥٩٣٢).

في هذا الحديث وقفات عدة:

الوقفة الأولى: أن النبي ﷺ نهى أصحابه عن الجلوس في الطريق، وعلّل ذلك بأنهم سيتعرضون للتقصير في واجب من الواجبات، ومن ذلك غضّ البصر، وقد أورده البخاري في الاستئذان.

إنّ هذا التوجيه النبوي فيه بيان لطبيعة النفس البشرية، وأن مصدر السلوك البشري ليس قاصرًا على علم الإنسان بصحة هذا السلوك أو عدم صحته؛ فكثير

من الناس يعلمون الحق لكن نفوسهم تضعف عن القيام به، ويعلمون طريق الباطل لكن نفوسهم تضعف عن الامتناع عنه.

ولهذا جاءت الشريعة بسدّ الذرائع وإغلاق الأبواب التي تقود الناس إلى الوقوع في المعصية، فقد حرَّم الشرع سفر المرأة دون محرم، وحرَّم خلوة المرأة بالرجل الأجنبي، ومنع اختلاط النساء بالرجال، وحرّم الغناء، وحرّم سفور المرأة.. إلخ تلك الأحكام.

وهذه الأمور التي حرَّمها الشرع لا تتضمن المفسدة بذاتها، بل إنما حُرِّمت لكونها وسيلة للوقوع في المحذور.

وحين نعود إلى التربية المعاصرة نرى أنها في تعاملها مع السلوك الإنساني تركّز على المعرفة وحدها، وترى أن معرفة الإنسان بإيجابية سلوك ما أو سلبية آخر كافية في صرفه عن السلوك السيئ أو دفعه للسلوك الإيجابي.

ولهذا تقلل التربية المعاصرة من شأن حماية الإنسان من المؤثرات، وترى أن البناء الصحيح للإنسان أن يُتْرَك ليواجه الواقع بكلّ ما فيه.

هذا الموقف فيه قَدْر من المصداقية، وفي المقابل فيه قصور في مراعاة الطبيعة الإنسانية، فالإنسان بحاجة في بنائه وتربيته إلى أن تنشأ عنده الدوافع الداخلية، فيواجه الفساد، ويقابل المواقف السلبية فلا يتأثر بها.

وفي المقابل مهما بلغ الإنسان من العلم والمعرفة والإرادة يبقى بشرًا تهوي به نفسه ونوازعه، حينها فالتربية الصحيحة السليمة هي التي تأخذ بالأمرين معًا؛ تلكم التربية التي تُعنَى ببناء الإنسان من داخله بتقوية إيمانه، وتقوية إرادته،

بإكسابه المعرفة الصحيحة التي تعينه على تمييز الحق من الباطل، فلا يقع في الفساد حين يتعرَّض له.

وهي أيضًا مع ذلك لا تكتفي بهذا وحده، بل تراعي الضعف والقصور البشري، فتبعد الإنسان قدر الإمكان عن مواجهة المواقف التي قد تكون سببًا في استسلامه لضعفه وقصوره.

إنّ هذا يقتضي من رَبّ الأسرة أن يجتهد في إبعاد كلّ ما يؤثر سلبًا على أبنائه وبناته، من أدوات لهو، أو مواطن ترفيه سيئ، أو سفر إلى أماكن يتعرّضون فيها للفساد.

وفي الوقت نفسه لا يكون هذا وحده أداة التربية، بل لا بد مع ذلك من بناء النفوس من الداخل حتى تكون قادرة على مواجهة الفساد حين تتعرَّض له، وهو أيضًا يتطلّب من المؤسسات التربوية أن تُعْنَى بتهيئة البيئة التي تعين على ممارسة ما ينبغي ممارسته والبعد عمّا لا يليق بالمنتسبين إليها الوقوع فيه.

إنّ التربية السليمة هي تلكم التربية التي تحقّق التوازن في محتواها، والتوازن في أدواتها، والتوازن في تعاملها مع الطبيعة البشرية.

وقد ضرب ﷺ لذلك مثلاً بليغًا، فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشبّهات، لا يعلمها كثيرٌ من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعِرْضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكلِّ مَلِك حِمًى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمُه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب» (رواه البخاري ٥٣، ومسلم ١٥٩٩).

وكانت وصايا السلف العارفين بالله تؤكّد على أهميَّة التقوى والورع لدى الشخص، وأن انشغاله بالطاعة لا يعفيه من الحذر على نفسه من الوقوع فيما يقود إلى الزلل.

روى الخطيب في تاريخ بغداد عن ميمون بن مهران قال: «أوصاني عمر بن عبد العزيز: فقال يا ميمون، لا تخلُ بامرأةٍ لا تحل لك، وإن أقرأتها القرآن، ولا تتَّبع السلطان، وإن رأيت أنك تأمره بمعروفٍ وتنهاه عن منكرٍ، ولا تجالسْ ذا هوى فتُلْقِي في نفسك شيئًا يسخط الله به عليك».

إنّ الأحكام الشرعية التي جاءت لسدّ ذرائع الفاحشة لم يُستثنَ منها الصالحون والأتقياء، ولم تخصّص بمن لديهم ضعف أو رقّة في الديانة، بل جاءت عامة بالمخاطبين والمكلفين.

إن بعض من لا يفقهون مقاصد الشريعة، ولا يلتفتون إلى طبيعة الإنسان وما جُبل عليه من قصور وضعف قد لا يروق لهم التحذير أو الدعوة إلى إغلاق أبواب الفساد، ويرون أنّ هذا يتنافى مع الثقة بالناس، وينبئ عن نظرة اتهام لهم.

إنّ سوء الظن بالناس إنما يعني إصدار الأحكام عليهم واتهامهم بالسوء، أما اتخاذ أسباب الوقاية الشرعية فلا يعني الاتهام وسوء الظن، بل هو أخذ بالمنهج الشرعي الذي جاء من عند خالق النفوس، وهو -سبحانه وتعالى أعلم- بمكنوناتها.

إنّ الله -عز وجل- هو الذي حذّرنا من سوء الظن، ودعانا إلى أن نُحْسِن الظن بإخواننا المسلمين، وهو -سبحانه وتعالى- الذي شرع لنا الأخذ بهذه الأسباب التي تقود الإنسان إلى أن يكون حازمًا وصارمًا مع نفسه في إبعادها عن الأبواب التي تقوده إلى الزلل والوقوع في الخطيئة.

إنّ الدعوة للاعتناء بهذا الأمر ينبغي أن تلتزم منهج الاعتدال والوسط، فهي تعني أخذ النفس بهذه الآداب، ودعوة الناس للالتزام بها.

وحين يقع التقصير من أحد من الناس في الاعتناء بهذه التوجيهات؛ فاللوم ينبغي أن يتَّجه ويُركِّز على الإخلال بالأدب الشرعي، وعلى ترك الواجب عمله، لكن لا ينبغي أن يمتد ذلك إلى اتهام الناس بما وراء ذلك.

وقد وجَّه النبي ﷺ الوالدين إلى حماية الأولاد مما يكون ذريعة للمحظور؛ فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع» (رواه أبو داود ٤٩٥، وأحمد ٦٦٥٠).

قال المناوي تعليقًا على هذا الحديث: «أي: فرِّقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشرًا؛ حذرًا من غوائل الشهوة وإن كن أخواته» (فيض القدير ٥/ ٥٢١).

وهذا يقتضي أن يراعي الآباء والأمهات تجنُّب الخلوة الطويلة لأولادهم الذكور المراهقين مع أخواتهم كبقائهم في منزل واحد لمدة طويلة، أو نومهم في مكان واحد.

ومن تأمل الواقع اليوم وجد عددًا من الحالات التي يكون فيها انتهاك العرض بين المحارم، والأمر وإن لم يصل إلى درجة الظاهرة، لكنه يستوجب الأخذ بالأسباب الشرعية.

والأخذ بذلك ينبغي ألا يتجاوز الاعتدال الشرعي؛ فالشرع قد أعطى المحارم

أحكامًا ليست لغيرهم، ومع ذلك نهى عما يكون سببًا لدخول الشيطان كالاشتراك في المضاجع.

ومن أهم ما ينبغي رعايته في ذلك: حمايتهم مما يثير الفتن والشهوات المحرَّمة عن المنازل، كالأجهزة التقنية والكفية، ونحوها، وإحاطة التعامل معها بسياج يقلّل من مفاسدها وتأثيرها.

وقد بدأت تتضاءل فرص إغلاق الأبواب أمام تعرُّض الأولاد للمثيرات والمتغيرات، أو الشبهات التي يُخْشَى عليهم منها؛ فالمجتمعات، ومن ثَمَّ الأُسَر لا تستطيع السيطرة التامة على ما يتلقاه أبناؤها وبناتها.

وفي ظل هذا الواقع الذي تعاني منه المجتمعات والأُسَر ينبغي أن يراعى أمران يُعينان -بإذن الله- على الوقاية من هذه المؤثرات:

الأمر الأول: تقليل فرص التعرُّض للمؤثرات قدر الإمكان، وحَجْب ما يمكن حجبه، وهذا وإن لم يمكن تحقيقه كما يريد الأبوان إلا أن: (ما لا يُدرك كله لا يُترَك جلّه)، وكذلك (الميسور منه لا يَسقط بالمعسور)، والتقليل أهون من فتح الباب على مصراعيه.

وهذا يتَّفق مع نهي النبي ﷺ أصحابه عن الجلوس في الطرقات؛ حتى لا يتعرَّضوا للفتنة بالنظر الحرام، رغم أن طرقات المدينة كانت محافظة، والنساء كنَّ لا يخرجن إلا محتشمات، ولم يكن مصدر هذا التوجيه النبوي اتهام أصحابه -رضوان الله عليهم-، أو الشكّ في تقواهم وإيمانهم بل هذه طبيعة البشر.

ومن الشواهد على هذا ما رواه علي بن الحسين أنّ صفية بنت حيي زوج النبي

ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الغَوَابِر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة من العشاء، ثم قامت تَنْقَلِب، فقام معها النبي ﷺ يَقْلِبها، حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج النبي ﷺ مرَّ بهما رجلان من الأنصار، فسلّما على رسول الله ﷺ، ثم نَفَذَا، فقال لهما رسول الله ﷺ: «على رِسْلكما، إنّما هي صفية بنت حيي»، قالا: سبحان الله يا رسول الله؛ وكبر عليهما ذلك؛ فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا». (رواه البخاري ٦٢١٩، ومسلم ٢١٧٥).

سيبقى المنع والحجب التام غير ممكن بالكلية، ومهما اجتهد الأبوان في ذلك فسيتعرّض أولادهم لهذه المؤثرات، وسيلتقون بالآخرين في مجتمعات الأقارب والمدارس؛ مما يؤكّد على الأمر الثاني.

الأمر الثاني: الاعتناء بالبناء الداخلي؛ من خلال غرس الإيمان وتقوى الله -عز وجل- ومراقبته، ومن خلال تنمية الإرادة والقدرة على السيطرة على النفس وسياستها، ومن خلال القدرة على التفكير والتقويم لما يراه الأولاد ويسمعونه من مؤثرات.

ولقد اعتنى النبي ﷺ بهذا الأمر؛ ففي حديثه ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، أشار إلى هذا المعنى، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سبعة يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عادل، وشابّ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكَر الله خاليًا ففاضت عيناه» (رواه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١).

وحين أتاه الشاب يستأذنه بالزنا سعى ﷺ إلى تقوية المانع الداخلي لديه من خلال الاقتناع بسوء هذا العمل، كما سبق.

إن الإفراط في التعامل مع أحد الأمرين يقود إلى خلل في بناء الشخصية؛ فالإفراط في الحماية وحدها دون تربية يُنْشِئ جيلاً هشًّا قابلاً للتأثُّر حين تزول عنه الرقابة، والإفراط في الثّقة دون حماية أو وقاية يتعارض مع طبيعة النفس البشرية ومع المنهج الشرعي في تربية النفس.

كما أن التعامل مع جانبٍ واحدٍ من النصوص الشرعية قد قاد بعض الطوائف للغُلُوّ والانحراف، وقاد بعض المسلمين إلى فَهْم خاطئ للشرع، فهو كذلك يقود المربين إلى خلل في التربية.

والتربية المتوازنة هي تلك التي تراعي كل الاعتبارات، وتتعامل مع كافة المواقف دون أن تختزل التربية في جانب واحد أو فكرة واحدة.

ومن الوقفات المهمة حول حديث حقّ الطريق أن في حياة الناس أحوالاً تتطلّب مواقف صارمة محددة لا تقبل مجالاً للتنازل والنقاش، وهكذا في الأنظمة التي ينشئونها ليسوسوا بها حياتهم، كما أن هناك مواقف أخرى فيها قَدْر من السعة والمرونة، ويتسع فيها المجال للأخذ والعطاء.

والشرع الإسلامي أيضًا قد جاء بهذا وذاك، فثمة أحكام شرعية بالحِلّ والحرمة، والوجوب والندب والتحريم، وصحة العبادة وبطلانها، وصحة العقود وعدم صحتها، وهذه الأحكام لا مجال للناس أن يناقشوا فيها، أو يترددوا في الامتثال لأمر الله -عز وجل- المتعلّق بها.

ومع ذلك ففي الشرع قَدْر من الأحكام فيه سَعَة ومرونة؛ فدائرة فضائل الأعمال، وأنواع التقرب إلى الله تعالى، ودائرة الورع والبُعد الاختياري عن المشتبه دائرة واسعة.

إنّ النفس البشرية تحتاج لهذا وذاك، تحتاج لقدر من الإلزام والصرامة، وتحتاج لقدر من السعة والمرونة.

وهذا ما كان يرعاه ﷺ في تربيته لأصحابه، كان يأمرهم أمرًا جازمًا بما يقتضي ذلك، كان يفتيهم بصحة العبادة، أو عدم صحتها، بصحة العقود والمعاملات وبطلانها.

ومع ذلك فقد كان ﷺ فيما يتّسع الأمر فيه يعطيهم الخيار والسعة.

في هذا الحديث نهاهم ﷺ عن الجلوس في الطرقات، وحين أبدوا لهم -رضوان الله عليهم- عذرهم في ذلك لم يصرّ ﷺ على هذا الأمر، بل نقلهم إلى الحال الثانية وهي الجلوس في الطريق مع مراعاة إعطائه حقه.

بينما نراه ﷺ يحسم الأمر في موقف آخر؛ حيث كان الموقف يقتضي ذلك؛ فعن أبي المثنى العبدي قال: سمعت السدوسي، يعني ابن الخصاصية، قال: «أتيت النبي ﷺ لأبايعه، قال: فاشترط عليّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله؛ أما اثنتان فوالله ما أطيقهما؛ الجهاد والصدقة؛ فإنهم زعموا أنه من ولّى الدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسي وكرهت الموت، والصدقة فوالله ما لي إلا غُنَيْمَةٌ وعَشْرُ ذَودٍ، هنَّ رِسْلُ أهلي وحَمولتُهم، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده، ثمّ حرّك

يده، ثم قال: فلا جهاد ولا صدقة، فَبِمَ تدخل الجنة إذًا؟ قال: قلت: يا رسول الله؛ أنا أبايعك. قال: فبايعت عليهن كلهنّ» (رواه أحمد ٢١٤٤٥).

وهكذا في تعامله ﷺ مع زوجاته كان يرعى ذلك، ففي موقف يتطلب الصرامة والحزم، فعن عائشة ﵂: «أن رسول الله ﷺ ذكر أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فاستأذنته عائشة فأذن لها، وسألت حفصة عائشة أن تستأذن لها ففعلت، فلما رأت ذلك زينب ابنة جحش أمرت ببناء فبُنِيَ لها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى انصرف إلى بنائه فبَصُرَ بالأبنية، فقال: ما هذا؟ قالوا: بناء عائشة وحفصة وزينب، فقال رسول الله ﷺ: ألبِرّ أرَدْنَ بهذا؟ ما أنا بمعتكف، فرجع، فلما أفطر اعتكف عشرًا من شوال» (رواه البخاري ٢٠٤٥، ومسلم ١١٧٣).

في هذا الموقف لم يسمح لهنّ النبي ﷺ بالاعتكاف بهذه الصورة، بل قطع اعتكافه لحسم الأمر وقضاه في شوال.

بينما في موقف آخر نرى له ﷺ تعاملاً مختلفًا؛ ففي حجة الوداع قالت له عائشة ﵂: يا رسول الله إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت. قال: فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم. وذلك ليلة الحصبة...» (رواه البخاري ١٧٨٥، ومسلم ١٢١٣).

وفي رواية: «... وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت الشيء تابعها عليه» (مسلم ١٢١٣).

وفي بعض الأحيان يعطي النبي ﷺ الخيار في التوجيه ابتداءً دون نقاش ممن وجّه له؛ فعن حذيفة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع الإزار إلى أنصاف الساقين والعضلة، فإن أبيت فأسفل، فإن أبيت فمن وراء الساق، ولا حق للكعبين في الإزار» (رواه النسائي ٥٣٢٩).

إنّ بعضًا من المربين يعطي هالة واسعة لشخصه، ويفترض أن يكون صوته الأعلى دائمًا، فحين يأمر لا مجال للنقاش في أمره، وحين يعطي توجيهًا فمهمّة الآخرين أن يجتهدوا في فهم التوجيه واستيعابه ثم التنفيذ.

والأمر في مثل هذه الحالات لا ينتهي عند الموقف الفكري فحسب؛ فالخلاف في هذا الأمر فيه سعة، إلا أن الخلاف في هذا الموقف الفكري يتحول عند صاحبنا إلى معيار للتقويم، والمحاسبة.

إنّ المربي لا ينطلق في كل مواقفه وتعاملاته مع أولاده من قضايا محسومة لا تقبل الأخذ والعطاء، بل ثمة مساحة واسعة تتَّسع للمرونة، وتتقبل الأخذ والعطاء؛ إذ هي مجرد اجتهاد في تحرير الموقف الأصلح، والموقف الأصلح في الغالب يتَّسم بمرونة ومدى أكثر من أن يكون نقطة حاسمة.

وهذه المواقف المرنة أكثر اتساعًا للاختلاف بين المربي وطلابه؛ فيعمد المربي ضيِّق الأُفُقِ إلى حَسْم الموضوع، واتخاذ قرارات صارمة لا تقبل الأخذ والعطاء، مُعلِّلاً ذلك بمراعاة المصلحة، وبأنه أعلم بما هو أولى وأجدر.. إلخ هذه القائمة.

إن بناء شخصية المتربي وتنمية جوانبها كافة أولى وآكد من مجرد الإصرار على القبول بتوجيه غاية ما فيه أنه رأي شخصي للمربي.

والمرونة في التعامل مع هذه المواقف تُكْسِب المتربي الشعور بقيمته ومكانته، وهو مطلب لا غِنَى عنه لبناء الشخصية السوية.

وهي تسهم في بناء علاقة ودّية مع المربي تتجاوز التسلُّط والصرامة غير المقبولة.

وهي تسهم في تنمية قدرة المتربي على التفكير واتخاذ القرار الصحيح، وحسن التعامل مع المواقف.

أنا رسول الله

عن أبي جري جابر بن سليم ﷺ قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئًا إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: «لا تقل: عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك»، قال: قلت: أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته، أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء -أو فلاة- فضلَّت راحلتك فدعوته، ردّها عليك»، قال: قلت: اعهد إليَّ، قال: «لا تَسُبنَّ أحدًا» قال: فما سببت بعده حرًّا، ولا عبدًا، ولا بعيرًا، ولا شاة، قال: «ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك؛ إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعَيَّرَك بما يعلم فيك، فلا تُعَيِّره بما تعلم فيه، فإنما وَبَال ذلك عليه» (رواه أحمد ١٥٥٢٥، وأبو داود ٤٠٨٤ واللفظ له، والترمذي ٢٧٢١).

كان المربي الأول ﷺ يتعامل مع كافة الناس؛ مع الصغير والكبير، مع الرجل والمرأة، مع خاصة أصحابه ومع أهل البادية وحديثي العهد بالإسلام.

وكان ﷺ في تعامله مع الناس وتربيته لهم يُعطي كُلاً ما يناسبه ويحتاجه.

في هذا الموقف يسأله الأعرابي عن نفسه فيخبره أنه يدعو إلى الله -عز وجل-، ثم بعد ذلك يُعرِّفه بربه -تبارك وتعالى-، يُعرِّفه به مراعيًا أمرًا له أهميته؛ حيث تلاءم

محتوى التعريف مع طبيعة الأعرابي وما يفهمه ويعيه، يعيش الأعرابي في الصحراء القاحلة، تواجهه مشكلات عدة؛ أبرز تلك المشكلات أن تَضِلّ راحلته في الفلاة؛ فيكون عُرضَة للهلاك والانقطاع، أو العوادي والسباع.

أو أن يصيبه عام سَنة وقَحْط، فتجوع سوائمه وتَضْمُر، أو تموت وتهلك، وهي في الغالب رصيده في الدنيا، وحاله معها كحال عبد المطلب الذي قال لأبرهة حين استولى على إبله: «أنا رَبّ هذه الإبل، وللبيت رَبّ يحميه».

أو أن يصيبه ضر ومصيبة، يمرض هو، أو زوجه، أو أحد أولاده؛ فلا يجد الدواء، ولا العلاج والطبيب.

لم يحدّثه النبي ﷺ عن تفاصيل أسماء الله وصفاته، ولا عن دقائق مسائل التوحيد والإيمان، عرّفه بربه -تبارك وتعالى- بلغة يفهمها، حدّثه عن ربّه -عز وجل- بما يتلاءم مع حياته ومشكلاته وطبيعته.

وهذا يقودنا إلى سؤال مُهِمّ:

كيف نُحَدِّث الناس عن ربهم -تبارك وتعالى-؟

كيف نُعرِّفهم بخالقهم -عز وجل-؟

هل المدخل الصحيح لتعليمهم ذلك هو الخوض في تفاصيل أمور معرفية بعيدة عن حياتهم؟

هل هو استعارة أنماط من التفصيل وأساليب من التناول أفرزتها بيئة معينة بملابساتها وظروفها؟

هل ما يحتاجه طالب العلم المُتَخَصِّص هو ما يحتاجه غير المتخصص؟

هل ما يُعلّم للطفل هو ما يُعلّم للكبير؟

إنّ حقائق الدين لا تتغير وأحكامه راسخة ثابتة، فضلاً عن أمور الإيمان ومعرفة الله -عز وجل-، لكنَّ المتغير هو حجم التفاصيل التي يحتاجها كلّ متعلّم، والمتغير هو اللغة والوعاء الذي يمكن من خلاله تعليم الناس وتعريفهم بالله -سبحانه وتعالى-.

ما أحوج الآباء والأمهات، والمعلمين والمربين إلى أن يعرِّفوا أطفالهم وناشئتهم بخالقهم -سبحانه وتعالى-، باللغة التي يفهمون، وبما يُعمّق لديهم محبة الله -سبحانه وتعالى-، والتلذّذ بعبادته.

ولا ينطلق في هذا الأفق الرَّحْب إلا من يفصل بين محتوى المعرفة والوعاء الذي تقدم من خلاله؛ فالمحتوى لا يتغير، لكنَّ القوالب والأوعية أرحب وأوسع مما نظن.

ولا ينطلق في هذا الأفق إلا مَن يُعنَى بالحقائق أكثر من اعتنائه بالأدوات والرسوم، ومن يضع الوسائل والأدوات في إطارها الطبيعي بعيدًا عن الغلو في تجاهل التجارب الناجحة، أو الغلو في تحويل الوسائل إلى مقاصد.

وما أحوجنا اليوم إلى جهود علمية في تعريف المسلمين بربهم -تبارك وتعالى-، في تبسيط الحقائق باللغة التي يفهمون، في خطاب فئات متنوعة تشمل الصغير والكبير، الذكر والأنثى، الرجل والمرأة.

في خطاب يستهدف المسلم، وخطاب يستهدف غير المسلم، في خطاب يستهدف أهل الكتاب، كما يستهدف مَن لا يؤمنون بالدِّين.

في خطاب يُعنَى بالتفاصيل ويعالجها لمن يحتاجون إليها، وفي خطاب يُعنى بالقضايا الكلية والإجمالية لمن لا يحتاجون إلى التفاصيل أو لا يعونها ويدركونها.

وهو المنهج القرآني في تعريف الناس بربهم -تبارك وتعالى-؛ ففي كتاب الله -عز وجل- الحديث عن مخلوقاته التي يراها الناس ويدركونها ويعايشونها يومًا بعد آخر.

قال -عز وجل-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ (النحل: ٤٨).

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية، الآيات: ١٧- ٢٠).

وهذه الأمثلة في كتاب الله -عز وجل- كثيرة يصعب حصرها. والمقصود أن القرآن الكريم خاطب الناس بحقائق الإيمان والتوحيد، موظِّفًا بيئتهم وواقعهم، وما يعيشونه ويرونه.

وثمة وقفة أخرى حول هذا الحديث:

في ميدان التعليم تحتل المعرفة حيزًا كبيرًا واسعًا، وهي بلا شك تستحق الكثير من الاهتمام والاعتناء، ومهما اتسعت الحاجات الأخرى لبناء الشخصية فستبقى المعرفة مطلوبة لذاتها في حالات كثيرة، وتبقى أداةً مهمة في بناء كثير من الجوانب الأخرى في الشخصية.

إلا أن الواقع العملي، وتطوّر البيئة العلمية في الأمة ومرورها بكثير من المؤثرات قاد إلى ترسُّخ منطلقات تحتاج إلى مزيد مراجعة وتقويم.

ومن ذلك: الفصل بين العلم وجوانب بناء الشخصية الأخرى، مما قاد إلى أساليب تربوية تركت آثارًا سلبية في بناء الشخصية.

لقد قاد ذلك الفصل إلى قَصْر العلم على دائرة المعرفة المجردة، وكان من نتائجه الفصل بين الوعظ والسلوك وبين العلم، فصار ذلك ميدانًا غير ميدان العلم.

ولعل من نتائج ذلك رواج سوق التصوُّف الذي يرى أن العلم يقسِّي القلب.

لقد كان التوجيه النبوي توجيهًا يتعامل مع الشخصية بكيانها كله دون أن يشطر هذه الشخصية، كان ﷺ يوظِّف المعرفة في بناء الإيمان، يوظِّفها في تقويم السلوك، يوظِّفها في ربط القلوب بالله -عز وجل- في بنيان متَّسق متكامل لا يجتزئ الشخصية ويفصلها.

فحينما حدّث النبي ﷺ الأعرابيَ عن الله -تبارك وتعالى- وعرّفه بخالقه -عز وجل-، لم يكن هذا الحديث معرفة مجردة، بل تحقّقت فيه أمور عدة:

- التعريف بالله -تبارك وتعالى- وفضله وإحسانه لخلقه.
- توجيه الأعرابي إلى أن يلجأ بقلبه إلى الله -تبارك وتعالى-.
- ربط هذا الرجل بخالقه -عز وجل- في كافة أمور حياته، فهو يتَّصل به حين يصيبه القحط والجدب، ويتَّصل به حين تضلّ ناقته، ويتَّصل به حين يصيبه ضُرٌّ آخر.
- تنمية محبة الله -تعالى- في قلب هذا الرجل؛ فهو يعرف الله -تبارك وتعالى- بفضله وكرمه على عباده.

إن الفصل بين المعرفة وبناء الجوانب الأخرى في الشخصية -بالإضافة لمخالفته

للمنهج النبوي في التربية- فهو مخالف لمنهج القرآن الكريم، ومن تأمل في كتاب الله وجد ذلك واضحًا جليًا؛ ففي آيات كثيرة تأتي مخاطبة القلب والوجدان متصلةً ببيان تفاصيل الأحكام الشرعية.

ففي آيات الظهار التي بيَّنت أحكامًا تفصيلية في حقّ مَن يظاهر من امرأته، وماذا عليه من كفارة، يقول -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٣- ٤).

وفي الآيات التي تحدَّثت عن تفاصيل أحكام الطهارة، وبيان كيفيتها يمتنّ الله -تبارك وتعالى- على عباده بنعمته عليهم، قال -عز وجل-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾(المائدة: ٦).

كما يأتي في آيات أخرى مخاطبة العقل والفكر، ودعوة الناس إلى إدراك مقاصد التشريع وحكمته؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ

أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (النور: ٦١).

كما يأتي ربط الأحكام بأسماء الله وصفاته، وهذا كثير في القرآن، كما في آية مصارف الزكاة التي ختمها الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

وكما في آيات المواريث التي ختمها -سبحانه- بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١)، وكما في آية قطع السارق التي ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (المائدة: ٣٨).

إن إدراك المربين وأهل العلم للخلل في بعض جوانب الشخصية كثيرًا ما يُشْعِر بالحاجة إلى الوعظ والتوجيه، وهذا مطلب لا غنَى عنه، لكنَّ الحلّ الأشمل هو في اتباع منهج القرآن والمنهج النبوي في التربية، ذلك المنهج الذي يتعامل مع الشخصية الإنسانية باعتبارها كيانًا متكاملاً.

ذلك المنهج الذي يربط بين المعرفة والوجدان.

ويربط بين الحقائق المعرفية والوعظ والتذكير.

وبين الأحكام الشرعية وأسماء الله وصفاته.

وبين الأحكام والتخويف بالله -سبحانه-، والتأكيد على الامتثال.

وبين الإيمان ومسائله وقضايا السلوك والآداب، كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» (رواه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧).

لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا

حدَّث جابر بن سليم الهجيميّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ بحديث طويل؛ وفيه: ... وسألته عن المعروف، فقال:« لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تنزع من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض، وإن سبك رجلٌ بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه فلا تسبه، فيكون أجره لك، ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه». (رواه أحمد ١٥٥٢٥، واللفظ له، وأبو داود ٤٠٧٥، ٤٠٨٤، ٥٢٠٩، والترمذي ٢٧٢١، ٢٧٢٢).

في هذا التوجيه النبوي يربي النبي ﷺ أصحابه وأُمّته من بعده على الروح الإيجابية؛ تلك الإيجابية التي تجعل من المرء عنصرًا فاعلاً في مجتمعه وواقعه، وتبدو هذه الإيجابية من خلال أمور عدة:

أولها: عدم احتقار العمل اليسير؛ فثمة أعمال تبدو لدى الناس ليست ذات شأن وبال لكنها ترفع صاحبها عند الله درجات.

أليس النبي ﷺ قد قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخّره فشكر اللهُ له، فغفر له...» (رواه البخاري ٦٤٥، ومسلم ١٩١٤).

وقال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» (رواه البخاري ١٤١٣، ومسلم ١٠١٦).

والجزاء من الله معياره التقوى وليس مرتبطًا بصورة العمل الذي يتقرب به

الإنسان كما قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الحج: ٣٧).

ثانيها: تنوُّع المجالات التي أرشد إليها النبي ﷺ؛ فمنها ما يتطلَّب مالاً، ومنها ما يمارسه الإنسان بأدواته وآلاته التي يقضي بها حاجته؛ صلة الحبل، الدلو، شِرَاك النعل. ومنها ما يتعلق بالتواصل مع الآخرين والتعامل معهم؛ كالطلاقة والابتسامة، وإفشاء السلام وردّه.

ومنها ما يتَّصل بإزالة الهمِّ عن الآخرين وتسليتهم وتسريتهم؛ كما في إيناس الوحشان.

قال ابن بطال: «قال أبو سليمان الخطابي: وقيل في تأويل أُنْس الوحشان وجهان: أحدهما: أن تلقاه بما يؤنسه من القول الجميل، والوجه الآخر: أنه أريد به المنقطع بأرض الفلاة المستوحش بها، تحمله فتبلغه مكان الأنس، والأول أشبه». (شرح البخاري لابن بطال ١٣/ ١٤٨).

ثالثها: أن هذه الأعمال يجمعها الإحسان إلى الناس وبذل الخير والمعروف لهم بأنواعه، وهو مما يربي النفس على العطاء والبذل والتواصل الإيجابي مع الآخرين.

إنّ في واقع الأمة اليوم انتشارًا للأنانية والأثرة وحبّ الذات، وانتشارًا للاستئثار حتى في عبور الطريق، أو السبق لقضاء حاجة ما.

هذه المظاهر كثيرًا ما تلقى النقد والتنديد، وهي تستحق الانتقاد، لكننا ننقدها وقد نمارسها أحيانًا، ننقدها وقد نلجأ لها؛ لأننا انشغلنا بصورة العمل عن حقيقته، وانشغلنا بمظاهره عن جذوره.

فوق انتقادنا لهذ المظاهر حري بنا أن نُعنَى ببناء النفوس على البذل والسخاء والعطاء، وعلى التخلّي عن الحظوظ، والتعامل مع الآخرين بمنطلق العطاء والإحسان، وعدم احتقار ما يقدّمه الإنسان للآخرين.

هذه الوصايا النبوية تنوعت منه ﷺ لأصحابه، فأوصى به خاصة أصحابه كأبي ذر ﷺ؛ فعن عن أبي ذر قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» (رواه مسلم ٢٦٢٦).

وفي رواية عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرنّ أحدكم شيئًا من المعروف، وإن لم يجد فليلقَ أخاه بوجه طليق، وإن اشتريت لحمًا أو طبخت قدرًا فأكثر مرقته واغرف لجارك منه» (رواه الترمذي ١٨٣٣).

وأوصى النبي ﷺ بذلك النساء؛ فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمات؛ لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» (رواه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠).

وعن عمرو بن معاذ الأشهلي عن جدّته أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المؤمنات، لا تحقرن إحداكن لجارتها ولو كُرَاعُ شاة مُحْرَقٌ» (رواه أحمد ٢٦٩٠٣).

إنّ مما يعوق الناس عن تقديم الإحسان القليل: ضعف شعورهم بقيمته، وربطهم بين الأجر وبين صورة العمل الذي يقدِّمونه، والأجر إنما هو بيد الكريم المنَّان يضاعفه لمن يشاء.

والذين يحتقرون القليل يحتقرون ما هو أكبر منه، وهؤلاء الذين يحتقرون القليل لا يتقدمون؛ إنهم ينشغلون بتهوين ما يعمله الآخرون والتقليل من شأنهم وجهدهم، ينشغلون بذكر الفرص الأكبر تأثيرًا تلك التي ضاعت على من شغلوا

بالقليل، وحينها لا يعملون شيئًا لا من القليل الذي احتقروه، ولا مما هو فوقه.

إنّ القضية ليست في كون الإحسان قليلاً أو كثيرًا، القضية روح تعيش البذل وتعشقه، روح تبذل من وقتها، ومالها، وجهدها، تبذل ما يُتَاح لديها؛ فيصبح البذل سجية وسمة، والإمساك مذمَّة ومنقصة.

وحين يكثر من يقدِّمون القليل ويبذلونه في مجتمعات تُعدّ بالآلاف، بل بآلاف الآلاف يصبح القليل كثيرًا، والصغير عظيماً.

إنّ المربين الذي يعنون ببناء الروح الإيجابية، ويهمّهم أن يروا أن الناس يتفاعلون ويشاركون وينطلقون في حياتهم الاجتماعية، هذا النوع من المربين هو القادر على إيجاد ذلك المنتج الإيجابي الفاعل.

هذا النوع من المربين لا ينشغل برسم النماذج المثالية أمام الآخرين، لا يبالغ في ذكر الصور المشرقة العالية في العطاء لتكون عائقًا للآخرين عن بذل اليسير.

حين يعتاد الناس سماع المواقف التي بلغ أصحابها منازل عالية في البذل والعطاء فبقدر ما تحفّزهم هذه النماذج، فهي تقودهم في حالات من التفكير إلى المقارنة بينها وبين أنفسهم فيرون المسافة شاسعة والبون كبيرًا، فربما كان ذلك معوِّقًا بدل أن يصبح محفِّزًا ودافعًا.



ألا أعلمك خير سورتين

عن عقبة بن عامر ﷺ **قال:** كنت أقود برسول الله ﷺ ناقته في السفر، فقال لي: «يا عقبة؛ ألا أعلمك خير سورتين قُرئتا؟» فعلمني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال: فلم يرني سررتُ بهما جدًّا، فلما نزل لصلاة الصبح صلى بهما صلاة الصبح للناس، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة التفت إليَّ فقال: «يا عقبة، كيف رأيت؟» (رواه أحمد ١٦٨٤٥، وأبو داود ١٤٦٢، والنسائي ٥٤٣٦).

إن التربية والتعليم النبوي لم يكونا مرتبطين بزمان محدّد أو مكان مُعيّن، ولم يكونا قاصريْن على تلك المجالس التي يعيشها الصحابة معه ﷺ في المسجد متحلِّقين حوله؛ بل كان النبي ﷺ يمارس التعليم في المسجد، والبيت والسوق، في السفر والإقامة، للصغار والكبار، للرجال والنساء.

في مواقف عديدة يسأله أحد أصحابه سؤالاً فيبادره ﷺ بالإجابة عن سؤاله، وقد يزيده فائدة لم تكن موضع السؤال، ومن ذلك إجابته للذي سأل عن ماء البحر، فأجابه، وزاده ببيان حكم ميتته، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سأل رجل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا! أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطّهور ماؤه، الحِلُّ ميتته» (رواه أبو داود ٨٣، والترمذي ٦٩، والنسائي ٣٣٢).

أو يقع أحدهم في خطأ فيعلّمه ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله

ﷺ: «أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟»، قال: لا والله يا رسول الله، إنّا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: لا تفعل، بِعْ الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا» (رواه البخاري ٢٢٠٢، ومسلم ١٥٩٣).

أو يرى موقفًا مناسبًا للتعليم؛ فيعلمهم ﷺ ما يرتبط بهذا الموقف، ويتّصل به، ومن تلك المواقف ما رواه زيد بن خالد الجهني ﷺ: «صلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فأمّا من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب» (رواه البخاري ٨٤٦، ومسلم ٧١).

لكنَّ الموقف الذي وقع مع عقبة بن عامر ﷺ حيث علَّمه النبي ﷺ أفضل سورتين يعتبر نموذجًا آخر؛ والسبب في ذلك أنَّ النبيّ ﷺ هو الذي ابتدأ تعليمه دون سؤال منه أو مناسبة قادت لذلك.

وهذا يرد كثيرًا في مواقفه ﷺ مع أصحابه، ومنها:

حديث ابن عباس ﷺ المشهور، الذي رواه حنش الصنعاني عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتْ الأقلامُ وجفّت الصحف». (رواه أحمد ٢٦٦٤، والترمذي ٢٥١٦).

ومن ذلك أيضًا ابتداؤه تعليم معاذ ﷺ حق الله على عباده، وحق العباد على الله عز وجل. (رواه البخاري ٥٩٦٧، ومسلم ٣٠).

وفي موقف آخر يبادر النبي ﷺ بتعليم أبي بن كعب ﷺ؛ فعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر؛ أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟»، قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «والله؛ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر». (رواه مسلم ٨١٠).

وعلّم النبي ﷺ الحسن بن علي ﷺ دعاء القنوت؛ في الحديث المشهور (رواه أحمد ١٧٢٠، وأبو داود ١٤٢٥، والترمذي ٤٦٤، والنسائي ١٧٤٥، وابن ماجه ١١٨٧).

وكما ابتدأ النبي ﷺ تعليم الصغار والكبار؛ فقد ابتدأ تعليم المرأة؛ فعن ابن عباس عن جويرية بنت الحارث -رضي الله عنهم جميعًا- أنّ النبي ﷺ مرّ عليها وهي في المسجد تدعو، ثم مرّ بها قريبًا من نصف النهار، فقال لها: «ما زلت على حالك؟» قالت: نعم. قال: «ألا أعلّمك يعني كلمات تقولينهن؟؛ سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته». (رواه أحمد ٢٦٨٧٥، النسائي ١٣٥٢، والترمذي ٣٥٥٥، وأصله في مسلم ٢٧٢٦).

كما علّم ﷺ أسماء بنت عميس، قالت ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب، أو في الكرب؟ الله الله ربي؛ لا أشرك به شيئًا» (رواه أبو داود ١٥٢٥، وابن ماجه ٣٨٨٢).

وهناك نماذج كثيرة يصعب حصرها، والقصد من إيراد تلك النماذج إبراز أنّ هذا الهدي النبوي لم يكن حالةً فردية، أو موقفًا خاصًّا له طبيعته وظروفه، بل كان هديًا عامًّا له ﷺ.

إنّ المربي بحاجة أن يعيش هذه الروح، أن يُعلِّم أولاده وتلامذته ما يناسبهم ويلائمهم، أن يبذل التعليم والتوجيه في كلّ وقت ومكان، ولكلّ مَن احتاجه دون انتظار طلب أو مناسبة.

ومع ذلك كان ﷺ يراعي ألا يقود هذا التعليم إلى النفور؛ فهو ﷺ يستثير اهتمام المتعلّم لما يلقى إليه سائلاً إياه: «ألا أعلمك؟».

إن سؤال الأب أو الأم لولده أتدري لم يحدث هذا الأمر؟ هل تتوقع ماذا يكون لو صار كذا وكذا؟... إلخ، إن هذا النوع من الأسئلة بمثابة التمهيد للمتعلم ليستعدَّ ويدرك الإجابة ويتهيأ لها.

إننا نقضي أوقاتًا طويلة مع أولادنا في السفر، في السيارة داخل المدينة، في السوق، في المتنزهات، وكثير من هذه الأوقات تتحول إلى أزمة نسعى للتخلص منها، ونعاني فيها من صراعات الأطفال وشجاراتهم.

إن حسن استثمار هذه الأوقات بالتعليم المناسب يريحنا من هذه المشكلات، وليست هذه الثمرة القصوى لاستثمار المواقف في التعليم فقط؛ بل إنّه مدخل مهمٌّ لتعليمهم ما ينفعهم ويرتقي بهم، ولبناء شخصياتهم وتنمية مهاراتهم.

ومن المستحسن أن تُتاح لهم الفرصة في البحث عن الحلّ والوصول إليه، كما فعل ﷺ حين سأل أصحابه قائلاً لهم: «إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها؛ وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟...) إلخ الحديث. (رواه البخاري ٦١، ومسلم ٢٨١١).

ومن المهم هاهنا أن يتّسع مجال التعليم فلا يكون قاصرًا على الأحكام الشرعية بصورة مباشرة، فمن المجالات المهمَّة تعليم المهارات الاجتماعية، والتعامل مع مشكلات الحياة اليومية، وتوظيف الحديث عن الأمور التقنية والمادية في توسيع أُفُق الأولاد وتنمية تفكيرهم، وزيادة وعيهم بما حولهم.

إنّ المربي الحصيف يمكن أن يستثمر مروره بطريق تحت الإنشاء، أو بحادث مروري، أو بائع متجوّل، أو رجل أمنٍ في السوق ليعلِّم أولاده كثيرًا من مهارات التعامل مع المشكلات، وليوسِّع خيالهم وآفاقهم.

لازلت أتذكر تعليقًا لأستاذ لي حين كنت صغيرًا ومررنا بـ(تحويلة) في الطريق كيف فتحت لي آفاقًا في التفكير بغضّ النظر عن استنتاجه، وكيف حوّلت مسار تفكيري بما أحسبه لم يكن في حسبانه أو يَدُرْ في خلَده.



مرحبًا بطالب العلم

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم؛ فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا، مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، واقنوهم.

قلت للحكم: ما «اقنوهم»؟ قال: علّموهم». (رواه ابن ماجه ٢٤٧).

وقد كان النبي ﷺ يطبّق هذا المعنى على من يأتيه ممن يطلبون العلم؛ فعن زر بن حبيش عن عبيد الله بن مسعود ﷺ قال: حدّث صفوان بن عسال المرادي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متكئ في المسجد على بُرْد له، فقلت له: يا رسول الله؛ إني جئت أطلب العلم، فقال: «مرحبًا بطالب العلم، إنَّ طالب العلم لتحفّه الملائكة وتظله بأجنحتها ثم تركب بعضها بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب. فما جئت تطلب؟».

قال: قال صفوان: يا رسول الله؛ لا نزال نسافر بين مكة والمدينة فأفتنا عن المسح على الخفين؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ثلاثة أيام للمسافر ويوم وليلة للمقيم» (المعجم الكبير ٧٣٤٧).

وعن ابن عباس ﷺ قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ قال: «مرحبًا بالوفد الذين جاءوا غير خزايا ولا ندامى». فقالوا: يا رسول الله؛ إنا حيّ من ربيعة، وبيننا وبينك مُضَر، وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام فمُرنا بأمر فصل ندخل به الجنة وندعو به من وراءنا، فقال: «أربع وأربع؛ أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا خمس ما غنمتم، ولا تشربوا في الدباء والحنتم والنقير والمزفت»(رواه البخاري ٥٢٣، ومسلم ١٧).

وقد اعتنى أصحاب النبي ﷺ والأئمة من بعدهم برعاية هذا المعنى، فصاروا يُبْدُونَ ترحيبهم واحتفاءهم بطالب العلم ويوصون بذلك غيرهم.

روى البيهقي عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أنه كان إذا رأى الشباب قال: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ؛ أوصانا رسول الله ﷺ أن نوسِّع لكم في المجلس، وأن نفهمكم الحديث؛ فإنكم خلوفنا وأهل الحديث بعدنا، وكان يقبل على الشاب يقول له: يا ابن أخي: إذا شككت في شيء فسلني حتى تستيقن، فإنك إن تنصرف على اليقين أحب إليَّ من أن تنصرف على الشك».

(رواه الترمذي ٢٦٥٠، وابن ماجة ٢٤٧، والحاكم ٢٩٨، والبيهقي في شعب الإيمان ١٧٠٠، واللفظ له).

وعن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء ﷺ في مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديثٍ بلغني أنك تحدّثه عن رسول الله ﷺ، ما جئتُ لحاجة. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَن في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»

(رواه أبو داود ٣٦٤١، والترمذي ٢٦٨٢، وابن ماجه ٢٢٣، والدارمي ٣٤٢).

وفي رواية أنه: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟

فقال: حديث بلغني أنك تحدّثه عن رسول الله ﷺ.

قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا.

قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا.

قال: ما جئتَ إلا في طلب هذا الحديث؟

قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله له طريقًا إلى الجنة».

وممن كان يحتفي بمن يأتيه طالبًا للعلم مَن تلقى هذا التوجيه عمليًّا من رسول الله ﷺ؛ ألا وهو صفوان بن عسال ﷺ؛ فعن زر بن حبيش قال: «أتيت صفوان بن عسال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: ابتغاء العلم. قال: بلغني أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يفعل.

قال: قلت له: إنه حاك أو حكّ في نفسي شيء من المسح على الخفين، فهل حفظت من رسول الله ﷺ فيه شيئًا؟ قال: نعم. كنا إذا كنّا في سفر أو مسافرين أمرنا أن لا نخلع خفافنا ثلاثًا إلا من جنابة، ولكن من غائط وبول ونوم... الحديث (رواه أحمد ١٧٦٢٣، وأبو داود ٤٠٢٣، والترمذي ٣٥٣٦ واللفظ له، والنسائي ١٢٦، وابن ماجه ٤٧٨).

وحين تتأمل في كتب أدب العالم والمتعلم؛ فإنك ستجد مدى اعتناء أهل العلم بهذا الأدب ورعايته مع المتعلمين.

لقد عدَّ الحافظ ابن جماعة في كتابه (تذكرة السامع والمتكلم) من آداب المعلم «أن يحب لطالبه ما يحب لنفسه كما جاء في الحديث، ويكره له ما يكره لنفسه. ثم أورد أثر ابن عباس ﷺ: «أكرم الناس عليَّ جليسي الذي يتخطى رقاب الناس إليَّ، لو استطعت أن لا يقع الذباب عليه لفعلت». وفي رواية: «إن الذباب ليقع عليه فيؤذيني»

(رواه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٩١. برقم ١١٤٥، ١١٤٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٩٢٤٥).

ويؤكد ابن جماعة على هذا المعنى في موضع آخر فيقول: «وكذلك ينبغي أن يترحّب بالطلبة إذا جلسوا إليه، ويؤنسهم بسؤالهم عن أحوالهم، وأحوال مَن يتعلق بهم بعد درسهم، وليعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البِشْر، وحسن المودة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة» (تذكرة السامع والمتكلم من آداب المعلم، ص٧٠).

إن بيئة طلب العلم، وتواصُل المتعلم مع المعلمين بيئة تتشكّل فيها كثير من جوانب شخصية طالب العلم، ويتعلّم فيها الآداب والقِيَم التي توجّهه في سائر مواقف حياته.

وما يتعلّمه من القيم والآداب ليس مصدره الوحيد ما يتلقاه صراحة أو تلقينًا من حديث حول الآداب وتعداد لها ووصية بها وتأكيد عليها -وإن كان هذا له قيمته- لكن الجانب الأهم في ذلك هو ما يتلقّاه بصورة عملية من خلال معايشته لأستاذه وشيخه؛ فهو أبلغ في التأثير وآكد في التعلم.

وهكذا فإن ما يتلقاه المتربّي بصورة عملية يمثل لديه معيارية يحكم من خلالها على ما يراه لدى الآخرين، ويفهم من خلالها المعاني العامة.

فالتواضع معنى عام لا يختلف على الثناء عليه ومدح أهله أحدٌ، لكنَّ مفهوم التواضع يختلط بعزة النفس، ويختلط بحفظ المقام والقدر، فكم نرى من مستكبر وهو من أكثر الناس حديثًا عن التواضع!، وهكذا سائر الآداب والقيم.

حين يُعنَى المعلم والمربي بالترحيب بطلابه وحسن استقبالهم؛ فإنه يغرس لديهم هذه القِيَم، ويربّي فيهم مكارم الأخلاق، ويعلّمهم كيف يتعاملون مع الآخرين.



أتعجبون من غيرة سعد؟

عن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة ﷺ: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله، لأنا أغير منه، والله أغير مني؛ ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش؛ ما ظهر منها، وما بطن، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المِدْحَة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة» (رواه البخاري ٧٤١٦، ومسلم ١٤٩٩).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال سعد بن عبادة ﷺ: يا رسول الله، لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أمسّه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال: كلا، والذي بعثك بالحق، إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا إلى ما يقول سيدكم؛ إنه لغيور، وأنا أغير منه، والله أغير مني» (مسلم ١٤٩٨).

وعن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٤). قال سعد بن عبادة؛ وهو سيد الأنصار: أهكذا نزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟» قالوا يا رسول الله: لا تلمه؛ فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته. فقال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنها حقّ، وأنها من الله تعالى، ولكني قد تعجبت، أني لو وجدت لَكَاعًا تفخّذها

رجل، لم يكن لي أن أَهِيْجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاءً فوجد عند أهله رجلًا، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه، فلم يَهِجْهُ حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلًا، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه ... الحديث» (رواه أحمد ٢١٣٢، واللفظ له، والبخاري ٢٦٧١ والبيهقي في السنن الكبرى ١٥٠٦٩). وفيه نزول آية الملاعنة، وقصة ملاعنة هلال بن أمية لزوجته.

لم يكن الدور التربوي الذي يقوم به ﷺ مع أصحابه قاصرًا على ما يقدمه لهم ابتداءً، بل كانت التربية قضية حية يعيشها ﷺ مع أصحابه في كافة مواقفهم، ومنها تعليقه ﷺ على ما يصدر منهم من مواقف وأقوال.

كان سعد بن عبادة ﷺ رجلاً مشهورًا بالغيرة، بل إن الغيرة لديه ﷺ قد تجاوزت ما كان عليه قومه وأصحابه.

هذه سُنة الله في البشر يتفاوتون ويختلفون، وكلٌّ منهم يبرز في مجال يختلف فيه عن غيره، بل ربما يصبح عَلَمًا في هذا المجال.

لقد أشاد النبي ﷺ بهذه الصورة والسمة الإيجابية لدى سعد ﷺ، واستنكر كيف يتعجبون من غيرته ﷺ، وهي صفة موجودة لدى النبي ﷺ الذي هو أغيرُ من سعد ﷺ، والله -سبحانه وتعالى- أغيرُ من نبيه ﷺ.

إن الإشادة بالصفات الحسنة والإيجابية تعزّز هذه الصفة وترسّخها لدى صاحبها، كما أنها تقود الآخرين إلى التأسي به والاقتداء.

ولقد كان ﷺ كثير الإشادة بما يراه من مواقف أصحابه -رضوان الله عليهم-؛ فقد وصف عمر ﷺ بأنه ما رآه الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك آخر. (رواه البخاري ٣٢٩٤، ومسلم ٢٣٩٧).

ووصف أشج عبد القيس ﷺ بالحلم والأناة اللتين يحبهما الله -سبحانه- ورسوله ﷺ. (رواه البخاري ٥٣، ومسلم ١٧)

ووصف أبا موسى ﷺ في حسن تلاوته القرآن بأنه قد أُوتي مزمارًا من مزامير آل داود. (رواه البخاري ٥٠٤٨، ومسلم ٧٩٣).

الوقفة الثانية حول هذا التوجيه التربوي الكريم: طبيعة البشر وأنهم مهما بلغوا من التميز والارتقاء لا يمكن أن يتجاوزوا بشريتهم.

فالبشر يسمون ويرتقون، يبلغون قمة التميز البشري والكمال الإنساني، يغدون مضرب المثل، ومع ذلك كله يبقون بشرًا، يحملون قصور البشر، وضعف البشر، وأخطاء البشر.

إنّ وعي المربي بهذه الحقيقة يقوده إلى الواقعية؛ الواقعيةِ فيما يطلبه من المتربين، والواقعيةِ في طموحاته نحوهم، والواقعيةِ في تقويمهم وإصدار الأحكام عليهم، بل يقوده إلى أن يعلّمهم أن يكونوا هم واقعيين فيما يتطلعونه من أنفسهم.

بل إنّ القصور البشري ليس قاصرًا على مجال آخر من مجالات تكوين الإنسان، فربما ارتبط في مجال تميزه ونبوغه.

إنّ من يبلغ غاية في الشجاعة والقوة، ربما أدى به ذلك إلى أن يتجاوز فلا يضبط نفسه، فيندفع في مواقف كان ينبغي أن يحجم فيها.

ومن يبلغ غاية في السخاء والكرم، ربما قاده ذلك إلى دائرة السرف وإضاعة المال.

ومن يبلغ غاية في الحلم والصفح، ربما قاده ذلك إلى الضعف وإضاعة حقه.

ومن يبلغ غاية في العقل وقدرة على توظيف مهاراته، ربما قاده ذلك إلى جفاف عاطفي.

ومن هنا، فلا ينبغي أن يشغلنا إعجابنا بالتميز في خصلة ما عن ضرورة الاعتدال فيها، وأنها قد تقود صاحبها إلى فعل ما يُلام عليه، لذا نبّه النبي ﷺ سعدًا ﷺ ألا تقوده الغيرة إلى التجاوز وفعل ما لا يسوغ له فعله.

حكى القرطبي في «المفهم» عن بعض أهل المعاني قال: «إنّما قال النبي ﷺ: لا أحد أحب إليه العذر من الله، عقب قوله: لا أحد أغير من الله، منبّهًا لسعد بن عبادة على أنّ الصواب خلاف ما ذهب إليه، ورادعًا له عن الإقدام على قتل من يجده مع امرأته، فكأنه قال إذا كان الله مع كونه أشد غيرة منك يحبّ الإعذار، ولا يُؤاخِذ إلا بعد الحجّة، فكيف تقدم أنت على القتل في تلك الحالة؟» (فتح الباري ١٣/ ٤٠٠).

وقال أيضًا: «ذكر المدح مقرونًا بالغيرة والعذر تنبيهًا لسعد على أن لا يعمل بمقتضى غيرته ولا يعجل، بل يتأنّى ويترفّق ويتثبت، حتى يحصل على وجه الصواب، فينال كمال الثناء والمدح والثواب؛ لإيثاره الحق وقمع نفسه وغلبتها عند هيجانها، وهو نحو قوله: «الشديد من يملك نفسه عند الغضب»، وهو حديث صحيح متفق عليه» (فتح الباري ١٣/ ٤٠٠).

وفي هذا الموقف لم يواجه المربي الأول ﷺ سعدًا بالاستنكار الصريح المباشر،

بل أشاد بغيرته ثم تنّبه إلى أنه ليس أغير من رسول الله ﷺ، ولا من الله، ومن هنا فلا يمكن أن تُتَصور الغيرة السليمة في مخالفة أمرهما.

إنّ الكبار لهم شأنهم ومنزلتهم، وهم مع ذلك يبقون بشرًا؛ فحين سأل النبي ﷺ أصحاب سعد رضي الله عنه عن مقالته اعتذروا لهم بما يعلمون من حميته وغيرته؛ فالكبار كغيرهم لهم هفوات وفيهم قصور، لكنَّ هذا القصور وتلك الهفوات لا ينبغي أن تكون مبرِّرًا للتنقّص والذم، فلا بد أن يُعرَف لهم قدرهم وتُحْفَظ لهم منزلتهم.

هذا الحفظ لمنزلة سعد رضي الله عنه تمثَّل في اعتذار قومه له، ووصفهم لحاله في غيرته، كما تمثّل في أسلوبه ﷺ في تقويم موقفه رضي الله عنه.



ليتمن الله هذا الأمر

حين جاء النبي ﷺ بدعوته لأهل مكة شَرِقَ المكذّبون بهذه الدعوة، ولم تقبل نفوسهم الاستجابة لها.

تابع النبيَّ ﷺ مَن اختار الله لهم الخيرَ، ومن هؤلاء ثُلّة لا زالوا في ريعان شبابهم، بل إن معظم الذين بادروا بإجابة هذه الدعوة هم من الشباب.

كان من بين هؤلاء شابّ لم يبلغ العشرين من عمره حين أسلم، إنه خباب بن الأرت ﷺ.

لقد أغرى شبابُه وصِغرُ سنّه المشركين أن يسوموه سوء العذاب، وأن يتسلطوا عليه، فأصابه ما أصابه حتى جاء إلى النبي ﷺ يشكو له ما لقي من المشركين؛ فعن خباب بن الأرت ﷺ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (رواه البخاري ٦٩٤٣).

قال ابن حجر : «قوله: (حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمَوْت) يحتمل أن يريد صنعاء اليمن وبينها وبين حضرموت من اليمن أيضًا مسافة بعيدة نحو خمسة أيام، ويحتمل أن يريد صنعاء الشام، والمسافة بينهما أبعد بكثير، والأول أقرب.

قال ياقوت: هي قرية على باب دمشق عند باب الفراديس تتصل بِالْعَقِيبَةِ.

قلت: وَسُمِّيَتْ باسم من نزلها من أهل صنعاء اليمن» (فتح الباري ٦/ ٦١٩).

وفي هذا الحديث وقفات تربوية عديدة، نشير إلى أبرزها:

كان ﷺ جالسًا في ظل الكعبة، ألمت المشكلة بخباب ﷺ، شعر أنه بحاجة إلى من يقف معه، مسليًا، ومسدِّدًا ومعينًا، فجاء إلى رسول الله ﷺ.

يحتاج أولادنا وطلابنا إلى أن نكون قريبين منهم: تلمّ بهم أحداث، وتواجههم مشكلات، وتبدو لديهم تساؤلات ؛ فإلى أين يلجؤون؟!

وهنا تبدو أهمية قرب المربي من أولاده وطلابه، وقرب المربي له بُعْدَان:

البعد الأول: النفسيّ، وذلك بألا تحمل العلاقة والصلة بينه وبينهم حواجز وعوائق نفسية.

إن من المربين من يسعى لإحاطة نفسه بهالة من الوقار المتكلَّف، هذا الوقار يريحه من جرأة طلابه، لكنه يصنع حاجزًا نفسيًا يحول بينه وبينهم.

شاعت ثقافة لدى مجتمعاتنا حول دور المعلم ترسم صورة للمعلم الناجح بأنه ذلك المعلم الذي يمتلك شخصية صارمة قاسية، لا يجرؤ عليه طلابه، يصمتون قبل أن يروه، حين يرسل نظراته يبادرون إلى الصمت خوفًا لا حبًا في الاستماع أو توقعًا لما يفيدهم.

كثيرًا ما نتباكى على ذلك الزمان الذي كان المعلم فيه يملك الهيبة والصرامة، ومن أهم دلائل تلك الهيبة أن الطلاب حين يرونه في الطريق ينصرفون من الجانب الآخر.

إن هذا المعلم ينجح في إدارة صفّه إدارة صارمة، ينجح في تلافي مشكلات سلوكية من طلابه، ولكن: هل يمكن أن يلجأ إليه طلابه مستشيرين مستعينين سائلين ومحاورين؟!

من حقّ كل شخص أن يرسم الصورة التي يراها تليق به، وأن يحدّد الرؤية الملائمة لمواقف التعليم من وجهة نظره.

لكن يبقى نموذج المربي الأول ﷺ خير نموذج، يبقى ذلك النموذج هو المعيار الذي تُحاكَم إليه الأفكار والآراء، وتُقَاس به المواقف.

فكيف كان قربه ﷺ من أصحابه؟

كان هذا التبسط يعيشه ﷺ مع أصحابه في مجالسهم؛ فعن سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قال: قلت لجابر بن سَمُرَةَ ﷺ: أكنتَ تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: «نعم كثيرًا؛ كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلّي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسّم» (رواه مسلم ٦٧٠).

وفي رواية: فيتحدث أصحابه يذكرون حديث الجاهلية، وينشدون الشعر، ويضحكون، ويتبسّم ﷺ. (رواه النسائي ١٣٥٨).

إن مشاركته ﷺ لأصحابه هذا الحديث تعني تبسُّطه وقربه منهم.

وجرأة أصحابه -رضوان الله عليهم- على الحديث بحضرته في مثل ذلك ليس مصدرها سوء أدبهم معه ﷺ، بل لأنهم ألفوا ذلك منه؛ يشاركهم السماع، وربما كان في بعض ما يقولون ما هو في دائرة المباح الذي يترفّع عنه بعض المتنطعين.

كان يشاركهم ﷺ التفاعل مع هذه المواقف، فيتبسّم حين يرد ما يدعوهم -رضوان الله عليهم- للضحك.

بل إنه ﷺ كان يسعى لإزالة ما قد يعوق هذا التواصل النفسي، فحين توجد لدى أحدهم مشاعر القلق والخوف كان يبادر ﷺ لإزالتها؛ فعن أبي مسعود ﷺ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فكلَّمه فجعل ترعدُ فرائصه، فقال له: «هوّن عليك؛ فإني لست بمَلِك، إنّما أنا ابن امرأة تأكل القديد[1]». (رواه ابن ماجه ٣٣١٢).

إن هذا التبسّط منه ﷺ لأصحابه قاد العامّة من أصحابه إلى أن يجدو لهم نصيبًا منه ﷺ؛ فعن أنس ﷺ: أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «يا أم فلان، انظري أيّ السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك. فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها» (رواه مسلم ٢٣٢٦).

إذًا فالبعد النفسي المتمثل في التبسُّط مع المربين هو البعد الأول من أبعاد قرب المربي.

أمّا البعد الثاني: فهو البعد المادي، وذلك بأن يجد الأولاد والمتعلمون من والدهم وقتًا يسعهم لأن يتواصلوا معه.

هذا البُعد يتطلب أن يشعر المربون أن ما يبذلونه من وقت لطلابهم خارج الوقت الرسمي للتدريس هو جزء من عملية التربية والتعليم وليس خارجًا عن إطارها.

وهو يتطلّب أن تكون لدى المربي وسائل اتصال تتيح للمتلقين عنه أن يتواصلوا معه فيسمعونه ويسمعهم.

(١) قال ابن الجزري: «القديد: اللحم المملوح المجفّف في الشمس؛ فَعِيلٌ بمعنى مفعول» (النهاية في غريب الأثر ٤/ ٢٢).

كان أجود الناس

عن ابن عباس ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرَسُول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة. (رواه البخاري ٦، ومسلم ٢٣٠٨).

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ أجود البشر، فما هو إلا أن يدخل شهر رمضان فيدارسه جبريل ﷺ، فلهو أجود من الريح» (رواه أحمد ٣٤٥٩).

يتحدث ابن عباس ﷺ في هذا الحديث عن جُود النبي ﷺ وسخائه وكرمه، ويشبّه ﷺ هذا الجود بهذا التشبيه البليغ، يشبّهه بالريح المرسلة.

«(والمرسلة)؛ أي: المطلقة، يعني أنه ﷺ في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبّر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، وإلى عموم النفع بجوده، كما تعمّ الريح المرسلة جميع ما تهب عليه.

ووقع عند أحمد في آخر هذا الحديث: «لا يُسأل شيئًا إلا أعطاه». وثبتت هذه الزيادة في الصحيح من حديث جابر: «ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئًا فقال: لا». (فتح الباري ١/ ٣١).

هكذا كان ﷺ جوادًا سخيًا كريمًا.

حينما نريد الحديث عن جود النبي ﷺ، ونسعى لنتلمس مظاهر الجود في شخصيته ﷺ؛ فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت، ومهما أوتي الإنسان من وقت ومنطق وفصاحة، وسعى لأن يبرز صورة جوده ﷺ للناس فلن يفي بما يستحقه ﷺ.

كيف لا، وهو ﷺ أجود الناس؟

وحسبنا ها هنا أن نشير إلى بعض مظاهر الجود في حياته ﷺ، والتي يمكن أن يراها كل من يطّلع على سيرة النبي ﷺ، وكلّ مَنْ يقلّب صفحة من صفحات سيرته وسنته ﷺ؛ فلن تخطئه مظاهر هذا الجود.

فمن مظاهر الجود في شخصيته ﷺ ما يلي:

أولاً: الجود بالمال:

عن جبير بن مطعم ﷺ:أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ، فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا، ولا كذوبا، ولا جبانا» (رواه البخاري ٢٨٢١).

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: جاءت امرأة ببردة -قال سهل: هل تدري ما البردة؟ قال: نعم؛ هي الشملة؛ منسوج في حاشيتها- قالت: يا رسول الله، إني نسجت هذه بيدي؛ أكْسُوكَها، فأخذها رسول الله ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره فجسَّها رجلٌ من القوم، فقال: يا رسول الله اكْسُنِيهَا. قال: «نعم» فجلس ما شاء الله في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه. فقال له القوم: ما أحسنت! سألتها إياه وقد عرفت أنه لا يرد سائلاً. فقال الرجل: والله، ما سألتها إلا لتكون كفني يوم أموت. قال سهل: فكانت كفنه. (رواه البخاري ٥٨١٠).

ها هنا نرى النبي ﷺ يجود بلباسه الذي يلبسه، وهو ﷺ محتاجٌ إليه، ثم حينما يعتب أصحاب النبي ﷺ على الذي سأله، عتبوا عليه واصفين للنبي ﷺ بأنه لا يردّ سائلاً.

ثانياً: الجود بالجاه:

قد لا يملك الإنسان مالاً لكنه يملك جاهًا يستطيع من خلاله أن يحلّ كثيرًا من مشكلاتهم.

وقد كان صاحب الجاه لعظيم ﷺ أسخى الناس بجاهه، ومن أمثلة جوده ﷺ بجاهه: ما رواه ابن عباس ﷺ: أن زوج بريرة كان عبدًا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته. فقال النبي ﷺ لعباس: يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثًا؟! فقال النبي ﷺ: لو راجعته! قالت: يا رسول الله: تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع. قالت: لا حاجة لي فيه» (رواه البخاري ٥٢٨٣).

ويتسع جود النبي ﷺ ليشمل بجاهه رجلاً كان يمتهن الحجامة، فعن أنس ﷺ: أنه سُئل عن أجر الحجّام، فقال: احتجم رسول الله ﷺ؛ حجمه أبو طيبة، وأعطاه صاعين من طعام، وكلّم مواليه، فخفّفوا عنه.. (رواه البخاري ٢٢١٠، ومسلم ١٥٧٧).

وفي رواية: وأمر له بصاع أو صاعين أو مُدٍّ أو مُدَّيْنِ، وكَلَّمَ فيه فَخُفِّفَ من ضريبته. (رواه البخاري ٢٢٨١).

ثالثًا: الجود بالعلم:

فقد كان ﷺ كما وصفه أصحابه -رضوان الله عليهم- يعيش معهم؛ يعلّمهم ويعظ جاهلهم، ويرعي صغيرهم وكبيرهم.

لقد قضى ﷺ أوقاتًا طويلة في تعليم أصحابه -رضوان الله عليهم-، ويكفى دليلاً على ذلك ما حفظته دواوين السنة من مرويات الصحابة عنه ﷺ، وكلها ناطقة بذلك الجهد الذي بذله ﷺ في تعليمهم.

كم يحتاج الإنسان من وقت حتى يقرأ ويحيط بما دُوِّنَ ونُشِرَ من سُنّته ﷺ؟ فكيف بتلك المجالس التي قضاها ﷺ مُعلّمًا لأصحابه.

هذا المظهر هو أحد مظاهر جوده ﷺ، بل إنّ هذا الجود لا يستوعب الحالات الفردية التي قد لا يستوعبها ما يقدّم لعامة الناس.

عن أبي رفاعة قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته، حتى انتهى إلى فأُتِيَ بكرسي، حسبت قوائمه حديدًا قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ، وجعل يعلّمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها" (رواه مسلم ٨٧٦).

رابعاً: الجود بالوقت:

فقد كان ﷺ يبذل وقته لأصحابه في التعليم، في صحبته ﷺ إياهم في الحضر والسفر يبذل وقته ﷺ فيبقى مستمعًا ومنصتًا لهم، يستمع ﷺ إلى زوجته وهي تحدثه، يستمع إلى الإعرابي وهو يسأله، يستمع إلى الصغار ﷺ وهو يلاعبهم ويضاحكهم، يستمع إلى خاصة أصحابه -رضوان الله عليهم- وهم يتعلمون منه، ويسألون عمّا خفي عليهم.

ولئن كان المال يمثّل أهم ثروة عند فئة من الناس فإن الوقت يمثل ما هو أهم من ذلك بكثير لدى آخرين، ومن هنا يأتي الجود؛ أن يجود المربي بوقته، لا زهدًا فيه، ولا رغبة في إضاعته، لكن جودًا على من يستحقون أن يُصرَف هذا الوقت في تربيتهم وتعليمهم.

خامساً: الجود بالنفس:

قد يجود الإنسان بماله، لكنه يجبن عن الجود بنفسه.

وقد يجود بوقته، لكنه يجبن عن الجود بنفسه.

أما النبي ﷺ فحاشاه، فقد كان ﷺ أشجع الناس وأكرم الناس وأجود الناس.

فها هو ﷺ يسرع وسيفه في عنقه يبتغي نجدة من ظنّ أنه بحاجة للمعونة؛ فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ليلةً فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا...» (رواه البخاري ٢٩٠٨، ومسلم ٢٣٠٧).

أرفع مظاهر الجود ومجالاته قد وُجِدَتْ في سيرة النبي ﷺ، بل كان ﷺ هو المثل الأعلى في ذلك، كيف لا وقد اختاره ربه -تبارك وتعالى- وزكّاه -عز وجل-، وشهد له -تبارك وتعالى- بأنه على خُلُق عظيم؟

حينما نتحدث عن الجود فنحن لا نتحدث عنه حديثًا عامًّا مطلقًا، إنّما نتحدث عنه في إطار شخصية المربي الأول ﷺ.

حين يتسم المربي بالجود فما آثار هذا الجود على شخصيته؟ وما آثاره على تلك الصلة بينه وبين من يربيهم؟

إن هذا الجود بأنواعه ومجالاته يترك آثارًا عدة، منها:

الصلة بين المربّي وبين المتربي: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

إن العملية التربوية ليست عملية آلية، ليست تلك العلاقة بين رجل يكبر سنًا وآخر دونه، ليست تلك العلاقة بين من يحمل علمًا ومن هو محتاج إلى هذا العلم والتوجيه.

إنها فوق ذلك علاقة وصِلَة إنسانية، لا يخرج فيها كل طرف من أطراف هذه العلاقة عن بشريته وطبيعته، ولهذا فإن الله -عز وجل- قد امتنَّ على المربي الأول بقوله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

حين يصبح المربي جوادًا كريمًا فإن هذا يقود إلى مزيد من الصلة الإيجابية بينه وبين من يربيهم، والصلة الإيجابية شرط مهم لتلقي التربية الصحيحة، وهي في الوقت نفسه تهيئ الأرضية اللازمة لقبول ما يتلقّاه المتربي ويسمعه ممن يربيه.

ومن آثار الجود أن يشعر المتربي بقيمته، فإنه حين تُقضَى حوائجه، وحين يُعطَى من المال، حينها سيشعر أن والده أو معلّمه يعطيه قدرًا من وقته، يصغي إليه ويستمع إليه، يبذل له جزءًا من ماله ووقته وجزءًا من جهده؛ مما يُشعره بقيمته، وشعور الإنسان بقيمته ومنزلته له أثره على تكوينه الشخصي، وله أثره على بناء شخصيته، فيشعر بقدر من الثقة، ويشعر بأنه قادر على أن ينجز في الحياة.

وإنّ أولئك الذين يفتقدون ثقتهم بأنفسهم، وشعورهم بقيمتهم لا يُتوقع منهم أن يؤدوا أعمالاً إيجابية، سواء في حياتهم الشخصية أو في حياة مجتمعهم وأمتهم.

ومن آثار الجود: اكتساب المتربي صفة الجود والإحسان؛ فإنّه حينما يتعامل مع مُرَبٍّ يتسم بهذه الصفة فسيقتدي ويتأسى به، وهذه القدوة تنقل هذا التأثير نقلاً طبيعيًا وآليًا، فإنه سيجود سجيةً وطبيعةً، وليس تكلفًا.

إنّ المربي يستطيع أن يتكلف الكلام والحديث وينمّقه، لكن ما هو أبلغ تأثيرًا هو أثر تلك الشخصية التي تتَّسم بالجود طبيعة وسجية لها.

حينما نتوقع من الناس أن يمتلكوا صفة الجود والإحسان؛ فإن أول شرط لذلك أن يتَّسم بالجود من يربيهم ويعلمهم.

ومن آثار جود المربي: استجابة الناس له؛ فإن الناس بشرٌ، والناس يستحيون ممن يحسن إليهم؛ فعن أنس ﷺ: أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: أيْ قوم، أسلموا؛ فوالله، إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر. فقال: أنس: إن كان الرجل لَيُسْلم، ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها (رواه مسلم ٢٣٢١).

إنَّ إعجاب الإنسان وانقياده لشخصية رجل يربّيه ربما يكون حظًّا نفسيًّا في البداية، لكنه ما يلبث بعد ذلك أن يترك آثارًا أخرى على شخصيته، كما كانت الحال مع أولئك الذين كانوا يُسْلِمُون لا يريدون إلا الدنيا.

ومن آثار الجود: أن يبعد المربي عن الطمع بما لدى المتربين؛ وهي آفة تنخر في عطاء المربي والداعية، ولهذا وصف الله -تبارك وتعالى- نبيه ﷺ، بل وصف سائر أنبيائه بأنهم لا يريدون جزاءً ولا شكورًا من الناس، ولا يريدون أجرًا مقابل دعوتهم، يقول -عز وجل-: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف: ١٠٤)، ويقول -سبحانه-: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴾ (الشورى: ٢٣).

وحينما يسعى المربي أو المعلم إلى أن يلتمس الأجر من الناس؛ فإنهم يحتقرونه، وحين يترفَّع عن تلمُّس الأجر من الناس فإنهم يُجلِّونه ويرفعون منزلته، ولهذا أوصى أهل العلم المعلِّمَ أن يبتعد عن أن يطمع برفق وإحسان ممن يربيهم.

يقول الحافظ ابن جماعة: «وكذا ينزّهه -علمه- من طمع في رفق من طلبته بمال أو خدمة أو غيرهما بسبب اشتغالهم عليه وترددهم إليه».اهـ.

وهذا أيضًا يترك أثرًا على المتربين فيبتعدون عن البحث عن جزاء لما يقدمونه من عمل، وقد وصف الله -عز وجل- عباده المحسنين الكرماء بأنهم لا يريدون إلا ما عنده -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: ٩).



أعطيت مفاتيح الشام

عن البراء بن عازب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرةٌ في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول. قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ. قال عوف: وأحسبه قال: وضع ثوبه، ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول، فقال: «بسم الله» فضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر. وقال: «الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله، إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا». ثم قال: «بسم الله»، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر. فقال: «الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح فارس، والله، إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا»، ثم قال: «بسم الله» وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر. فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا» (رواه أحمد ١٨٢١٩).

موقف تربوي آخر للنبي ﷺ حين كان مع أصحابه في غزوة الخندق، تلك الغزوة التي أطبق فيها الأعداء، وقد آلوا على أنفسهم ألا ينصرفوا منها إلا وقد قضوا على محمد ﷺ وأصحابه، وقد بلغ الخوف والقلق بالمؤمنين كل مبلغ، يُصوّر ذلك القرآن الكريم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب:١٠).

في ذلك الموقف الذي كان أحد أصحاب النبي ﷺ لا يستطيع أن ينصرف لقضاء حاجته لوحده، في ذلك الموقف ينظر النبي ﷺ إلى ما وراء هذا الأفق القريب، فيعدهم ﷺ وعدًا صادقًا، فهو ﷺ لاينطق عن الهوى، هكذا كان ﷺ يعيش هذا الأفق الواسع في دعوته.

نلمس أيضًا هذا الأفق في رجائه ﷺ، فيما يحدّث به عائشة رضي الله عنها؛ فعن عروة أنّ عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم مَن يَعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا» (رواه البخاري ٣٢٣١).

مع التكذيب والصَّدّ والأذى الذي واجهه ﷺ، حتى وصفه بأنه أشدّ ما لقى من قومه، مع ذلك لا يزال ﷺ يعيش هذا الأفق؛ يعيش تلك النظرة البعيدة، فحتى لو يئس من استجابة قومه الذين يدعوهم، فإنه لم ييأس ﷺ من ذرياتهم، فلعل الله أن يخرج من أصلاب هؤلاء المكذبين مَن يعبد الله -عز وجل-.

وفعلاً: كان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن العاص -رضوان الله عليهم- وغيرهم، كان هؤلاء أبناء صناديد قريش الذين عادَوْا رسول الله ﷺ وآذوه.

إن المربي بحاجة ماسَّة إلى أن يملك هذه النظرة البعيدة التي كان يملكها النبي ﷺ؛ فحين يملك المربي هذه النظرة تتَّسع لديه مساحة العمل، تتَّسع لديه دائرة الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها في نفوس مَن يربيهم.

إن كثيرًا من الناس تأسره النظرة القصيرة، ويستولي عليه واقعه الذي يعيش فيه، وتحجب عنه تلك النظرة القصيرة ما وراء ذلك، ولو امتد نظره إلى الأفق الواسع لرأى أن الأمر أوسع بكثير مما كان يحسب.

في إحدى الدورات التربوية كنت أتحدث مع عدد من الآباء والأمهات، فأرسل لى أحد الآباء رسالة طويلة مفادها: إن زوجتي ترى أنه لا فائدة أن نعيش مثل هذا الحديث، ما جدوى أن نتحدث عن بناء شخصية الطفل، وعن تنمية مهارته النفسية والاجتماعية والعقلية، إلى متى ونحن نعيش هذا الهاجس؟ وأزمات المسلمين قد بلغت ما بلغت! ودماء المسلمين تنزف! فماذا عسانا أن نصنع ونحن نعيش ذلك؟

قرأت هذه الورقة وعلّقت عليها، ودار بي الوقت والزمن، وها نحن قد قضينا عقدين بعد ذلك الموقف، فيا ترى ماذا فعلت تلك المرأة؟ وماذا فعل ذلك الوالد؟ ماذا فعل ذلك المتحدث؟ ماذا فعلنا خلال هذه السنوات؟

ربما يسيطر علينا ما نعيشه في واقعنا ولحظتنا فيغيب عنا المستقبل المهم، وحينها فإنّ مساحات التأثير المتاحة لنا في شخصية المتربي تبقى ضئيلة محدودة، تبقى محصورة فيما نراه ونشاهده، ويغيب عنا ذلك الأفق البعيد.

إنّ التربية بطبيعتها لا تبدو نتائجها سريعة، فلا تظهر آثار التوجيه والبناء التربوي، وبالأخص ما يتصل ببناء شخصية المتربي، هذه الآثار لا تظهر عاجلة، بل ربما لا يستطيع المربي أن يدرك آثار هذا العمل التربوي؛ لأنه يتحوَّل إلى جزء من شخصية هذا المتربي وتكوينه، وحينها فإنَّ كثيرًا من المربين لا يستهويهم ذلك العمل الذي لا تظهر أو تبدو نتائجه سريعة بادية للعيان، وحينها يغيب عنهم ذلك الأفق الذي كان يملكه المربي الأول ﷺ.

إن امتلاك المربي للأفق الواسع في رؤيته للموقف التربوي يقوده إلى أن يتقبّل ما يراه من نقص بشري، فإن المتربين مهما بلغوا من المنزلة والمكانة فهم بَشَر.

وها هم أصحاب النبي ﷺ تغلبهم بشريتهم ذات يوم؛ فعن جابر بن عبد الله ﷺ: أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عِير من الشام، فانفتل الناس إليها، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الجمعة: ١١)» (رواه البخاري ٩٣٦، ومسلم ٨٦٣).

وقد جاء الحديث عنهم في القرآن في قول الله -عز وجل-: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

عن عبد الله بن الزبير ﷺ قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال: أبو بكر أَمِّر القعقاعَ بن معبد بن زرارة، قال عمر: بل أَمِّر الأقرعَ بن حابس، قال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (الحجرات: ١) حتى انقضت (رواه البخاري ٤٣٦٧).

إنهم نموذج سامق عالٍ متميّز، لكنهم -رضوان الله عليهم- يبقون بشرًا، وهذا لا يُسوِّغ أن يكون مجالاً للتنقص.

جدير بالمربي ألا تشغله التطلُّعات عن الواقع، وألا يصرفه المثال عن النموذج العملي الممكن.

واعتكفنا معه

عن أبي سلمة قال: انطلقت إلى أبي سعيد الخدري ﷺ، فقلت: ألا تخرج بنا إلى النخل نتحدّث؟ فخرج، فقال: قلت: حدثني ما سمعت من النبي ﷺ في ليلة القدر. قال: اعتكف رسول الله ﷺ عشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: إن الذي تطلب أمامك. فاعتكف العشر الأوسط، فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. فقام النبي ﷺ خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف مع النبي ﷺ فليرجع، فإني أُريتُ ليلةَ القدر، وإني نسيتها، وإنها في العشر الأواخر، في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء»، وكان سقف المسجد جريد النخل، وما نرى في السماء شيئًا فجاءت قزعة فأمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته؛ تصديق رؤياه. (رواه البخاري ٨١٣).

في هذا الموقف التربوي اجتمع النبي ﷺ مع أصحابه على العبادة، وعلى طاعة الله -عز وجل-، وقد أثنى ﷺ على من فعل ذلك؛ فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة،

وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يُسْرِع به نسبه». (رواه مسلم ٢٦٩٩).

وقد صلى النبي ﷺ صلاة التطوع في جماعة؛ فصلى معه ابن عباس، وصلى معه حذيفة، وصلى معه جابر -رضي الله عنهم جميعًا-، وصلى بأصحابه جماعة في بيت رجل من الأنصار. وبوَّب البخاري على هذا الحديث: (باب صلاة النوافل جماعة).

قال ابن حجر في فوائد هذا الحديث: «وفيه ما تُرْجِم له هنا، وهو صلاة النوافل جماعة، وروى ابن وهب عن مالك أنه: لا بأس بأن يؤم النفر في النافلة، فأمّا أن يكون مشتهرًا ويجمع له الناس فلا. وهذا بناه على قاعدته في سدّ الذرائع؛ لما يخشى من أن يَظن مَن لا علم له أن ذلك فريضة» (فتح الباري ٣/ ٦٢).

وقد حثّ النبي ﷺ الزوجين على ذلك؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». (رواه أبو داود ١٣٠٨).

وفعل الرسول ﷺ ذلك عمليًا؛ فعن حسين بن علي، أن علي بن أبي طالب ﷺ أخبره: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي -عليه السلام- ليلة، فقال: «ألا تُصلّيان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ (الكهف: ٥٤). (رواه البخاري ١١٢٧، ومسلم ٧٧٥).

إنّ هذه المواقف وغيرها دليل على الاجتماع المشروع على الطاعة والعبادة، والاجتماع على الطاعة والعبادة يترك آثارًا تربوية منها:

أنه يُعْلِي همّة الإنسان ويرفع حماسته؛ فإنه حين يرى الآخرين من إخوانه قد سبقوه في العبادة والطاعة واجتهدوا فإن ذلك يقوده إلى أن يتأسّى، ويتأثر بما يراه منهم.

وقد كان ﷺ حين يلقى جبريل يزداد جودًا، رغم أنه ﷺ كان أجود الناس.

إنّ هذا الأمر يفتح المجال للقدوة والتأسي، فإن الرجل حين يجتمع بمن هو أفقه منه في العبادة؛ فإن هذا يقوده إلى أن تعلو همته، ويقوده أيضًا إلى أن يتأسى به في كيفية العبادة والطاعة، فيتعلم من فعله ما لم يكن قد تعلمه من قوله.

وهو أيضًا ﷺ يُبْرِز النموذج الإيجابي مقياسًا ومرآةً أمام المتربين، فإنّ المواقف النظرية والحديث المجرد يبقى نموذجًا قد لا يصل إلى الواقع كما يحب الإنسان وكما يريد، لكن حينما يرى الإنسان صورةً ونموذجًا واقعيًّا أمامه فإنه يجعله مرآة يقيس من خلالها تقصيره.

إنّ الإنسان حينما يجتمع بالمتقين العُبَّاد الطائعين ويلتقي بهم، ويرى أحوالهم في العبادة، فإن ذلك يقوده إلى أن يقيس حاله بحالهم، ويقارن ما هو عليه بما هم عليه، فيقوده ذلك إلى أن يحتقر ما يعمل، احتقارًا لا يقوده إلى اليأس، بل يدفع إلى الاجتهاد في الطاعة والتأسي.

إن الاجتماع على الطاعة أيضًا يحقّق للإنسان فضلاً لا يتحقّق له بالأعمال الفردية، فإنه يحقّق للناس فضائل الاجتماع وبركة الاجتماع؛ فإنّ النبي ﷺ قد أثنى على أولئك الذين يجتمعون يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، وأخبر أنهم تتنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، ويذكرهم الله -عز وجل- فيمن عنده.

وقد ثبت أيضًا في الصحيح أن الملائكة يتتبعون مجالس الذكر؛ فإذا رأوا قومًا مجتمعين على طاعة الله -عز وجل- وعبادته صعدوا إلى ربهم -تبارك وتعالى-، فأشهدهم الله -عز وجل- بمغفرته ورحمته لهؤلاء.

والحديث رواه أبو هريرة ﷺ مرفوعًا، وفيه: «... فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأَجَرْتُهم مما استجاروا. قال: فيقولون: ربّ، فيهم فلان؛ عبد خطَّاء، إنما مرَّ فجلس معهم! قال: فيقول: وله غفرتُ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» (رواه البخاري ٦٤٠٨، ومسلم ٢٦٨٩، واللفظ له).

تدرك هؤلاء رحمةُ الله -عز وجل- وفضله وإحسانه -تبارك وتعالى-، كما تدرك هذه الرحمة والفضل والإحسان أولئك الذين كانوا مقصّرين، وهؤلاء إنما رحمهم الله -عز وجل- بصحبتهم لهؤلاء الذين لا يَشْقى بهم جليس.

غنيّ عن التأكيد في مثل هذا الباب أن نؤكّد على أن المقصود ها هنا الاجتماع على المشروع لا الممنوع، فإن مِنْ المسلمين مَنْ يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، قد اجتهدوا في اختراع أوضاع ورسوم لم تكن على عهد النبي ﷺ، ولم يكن يفعلها رسول الله ﷺ ولا صحابته -رضوان الله عليهم-.

ولا شكَّ أنّ أصل الاجتماع على الطاعة مشروع، لكن ينبغي أن يكون هذا الاجتماع في إطار المشروع.

وإنّ مشروعية أصل الاجتماع لا تبيح للناس أن يبتدعوا ما يحلو لهم، وأن يفعلوا ما تستحسنه نفوسهم بحجة أن أصل هذا الاجتماع مشروع.



إذا رأيناك رقت قلوبنا

عن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، إنَّا إذا رأيناك رقَّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد. قال: «لو تكونون – أو قال-: لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» (رواه أحمد ٧٩٨٣، والترمذي ٢٥٢٥).

وعن حنظلة الأسيدي -وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا. قال: أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا!. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟»، قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فُرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة، ثلاث مرات» (رواه مسلم ٢٧٥٠).

يكثر إيراد هذا الحديث، وكثيرًا ما يُستشهدُ به على إعطاء النفس حظّها من

الراحة واللهو المباح، وعلى ضرورة بُعد الإنسان عن التعمُّق في العبادة والغلوّ فيها، وعلى طبيعة الإنسان، وأنّه مهما سمت نفسه، ومهما بلغ من الإيمان والتقوى والعبادة فلا بد أن يغفل ويسهو.

وهذا الاستدلال صحيح، لكن يبقى معنًى مهمٌّ في هذا الحديث؛ ألا وهو وصف مجالس النبي ﷺ.

تلك المجالس التي كانت ترتقي بأصحابه -رضوان الله عليهم-، فكانت قلوبهم ترق، فيكونون من أهل الآخرة، كانوا يعيشون الجنة والنار كأنما يرونها رأي العين، تلك المجالس كان لها أثرها البالغ في تربية أصحاب النبي ﷺ.

وقد كانت المجالس المملوءة بالإيمان، والمعمورة بطاعة الله -تبارك وتعالى-، هي مجالس أصحاب النبي ﷺ بعده، فعن علقمة أنّه كان يقول لأصحابه: «امشوا بنا نزدد إيمانًا» (ابن أبي شيبة في الإيمان ١٠٤).

وروى الإمام أحمد، وأبو عبيدة في الإيمان، والبخاري تعليقًا، وصحح ذلك الحافظ ابن حجر عن معاذ ﷺ أنه قال: «اجلس بنا نؤمن ساعة؛ يعني نذكر الله» (ابن أبي شيبة في الإيمان ١٠٥).

وعن الأسود بن هلال قال: «كان معاذ يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله ويحمدانه» (رواه ابن أبي شيبة في الإيمان ١٠٧).

هكذا كانت مجالس النبي ﷺ، وهكذا كانت مجالس أصحابه.

إننا بحاجة إلى أن نُعيد النظر في مجالسنا، ولنتساءل: هل نحن نرى في مجالسنا ما يقوِّي الإيمان ويصل القلوب بالله -عز وجل-؟، ولماذا يكون الحديث في ذلك حكرًا على أرباب التنسُّك المخالف لمنهج النبي ﷺ؟

إن من الناس من سعى للتنسُّك وإصلاح النفس، ولا شكَّ أن المقصد صحيحٌ، والنفس بحاجة إلى ذلك، لكنَّ هؤلاء قد جفوا عن سُنة النبي ﷺ، كما جفا غيرهم عن التنسُّك والعبادة، جفوا عن سنة النبي ﷺ فابتدعوا أوضاعًا ورسومًا تخالف سُنته ﷺ.

إن ابتداع هؤلاء لتلك الصور المحدَثة من العبادة والتنسُّك لا ينبغي أن يصرفنا نحن عن العناية بمجالسنا، وأن يكون فيها ما يقوي الإيمان والصلة بالله -عز وجل-، وليس بالضرورة أن يكون ذلك مرتبطًا بالصور المحدَثة، بل بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

لماذا يرتبط الحديث عن الإيمان وما يرقّق القلوب ويحرّكها بمن نصنّفهم على أنهم من الوعاظ؟

إنّ الوعّاظ فيهم خيرٌ كثير، لكنَّ هذا التصنيف بقدر ما يوحي للناس بأنّ هؤلاء يحرّكون القلوب ويؤثرون فيها، فهو أيضًا يعطي صورة تقليدية عن هؤلاء: بأنهم لا يملكون علمًا، ولا وعيًا ولا معرفةً، إنما هم يجيدون الحديث عن الرقائق وأمور القلوب.

حينما يعطي الله -عز وجل- أحدًا من عباده قدرةً على الوعظ فلا حرج في ذلك، بل إنّ الناس ينتفعون من وعظ هؤلاء، وربما كان ذلك أكثر من انتفاعهم من حديث بعض أهل العلم، لكن أن يكون هذا الأمر قاصرًا على أولئك؛ فإن هذا يُحدِث خللاً في التربية.

يعيش طالب العلم في حِلَق العلم وفي مجالسه وهو بعيد عن ذلك، بعيد عمَّا يقوي إيمانه، بعيد عمَّا يصله بربه -تبارك وتعالى-، يعيش هذه المجالس في جدل وحديث علمي، في: (قال فلان، أو قال غيره).

إنّ هذا ليس أمرًا مذمومًا ولا معيبًا في ذاته، ولا ينبغي أن نُهوِّن منه، لكن طالب العلم بحاجة للتوازن في بناء شخصيته.

لقد غدت الحال ألا يُستنكر أن ترى طالب العلم حافظًا، ومع ذلك ترى عليه آثار القسوة والجفاء والبُعد عن منهج النبي ﷺ.

حينما نريد أن تكون مجالسنا عامرة بالإيمان وطاعة الله -عز وجل-؛ فليس شرطًا في ذلك أن يكون الوعظ فيها من خلال موعظة تُلْقَى بافتتاح وخاتمة، من خلال سكوت هؤلاء وإنصاتهم إلى مَن يتحدث أمامهم.

من أبواب الموعظة أن يكون الحديث الذي يتداوله الناس بينهم بعفوية وتلقائيَّة حديثًا يدور حول ما يرقّق القلب، ويقوِّي الإيمان، ويصل النفوس بالله -عز وجل-.

إنّ مجالات مجالس الإيمان واسعة تشمل تلاوة القرآن الكريم؛ فعن ابن شهاب قال: حدثني أبو سلمة: «أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى أبا موسى قال: ذكِّرنا ربَّنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده» (رواه الدارمي ٣٤٩٣).

فحين يجتمع فئة من الناس فَلِمَ لا يطلبون من أحدهم أن يتلو عليهم آيات من القرآن من كتاب الله -عز وجل-، وربما تدارسوها فيما بينهم.

ومن ذلكم أيضًا تذاكر نعمة الله، ونسبة الفضل إليه؛ فعن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آلله، ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله، ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا

مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا. قال: «آلله، ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله، ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله -عز وجل- يباهي بكم الملائكة» (رواه مسلم ٢٧٠١).

إنّ مواقف الحياة متنوعة، وهي تعصف بالناس، تشغلهم في شأن الدنيا وأمورها، وحينها يحتاجون إلى مجالس الإيمان التي تربطهم بربهم -تبارك وتعالى-.

حين نعمر مجالسنا بحديث الإيمان، وما يرقّق القلوب؛ فإن هذا يصرفنا عن قول اللغو وقول الباطل.

في مواقف كثيرة من مجالسنا يسترسل بنا الحديث، وقد نقع في غيبة فلان أو فلان، أو قد يكون هناك لهوٌ يُخْرِجنا عن دائرة المباح، وخير وسيلة تقينا من ذلك أن نعمر هذه المجالس بالإيمان وتقوى الله -عز وجل-.



إني أحبك

عن عقبة بن مسلم التُّجَيْبِيّ قال: حدثني أبو عبد الرحمن الحبلي، عن الصنابحي، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أخذ بيده يومًا، ثم قال: «يا معاذ إني لأحبك». فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا أحبك. قال: «أوصيك يا معاذ؛ لا تدعنَّ في دُبُر كُلّ صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذِكْرك وشكرك وحسن عبادتك». قال: وأوصى بذلك معاذٌ: الصنابحيَّ، وأوصى الصنابحيُّ: أبا عبد الرحمن، وأوصى أبو عبد الرحمن: عقبةَ بن مسلم (رواه أحمد ٢٢١١٩ والنسائي ١٣٠٣، وأبو داود ١٥٢٢).

إن مهمة المربي ليست مجرد تعليم أو تلقين، وليس مجرد أوامر وتوجيهات بل هي صلة تجمع بين بشرين يحملان خصائص البشر وسماتهم، ومهما سما البشر وارتقوا؛ فإنهم لن يصلوا إلى مرحلة يتجاوزون فيها بشريتهم، ولن يصلوا إلى مرحلة يستغنون فيها عن احتياجاتهم البشرية.

يحتاج الناس إلى أن يشعروا بالحب والحنان، وأن يشعروا بأن لهم قيمتهم عند الآخرين، وتختلف هذه الحاجة من مرحلة لأخرى، ومن جنس لآخر، وتختلف وسائل التعبير عنها ووسائل التعبير عن احتياجها، لكن هذا الاختلاف إنما هو في تفاصيل الحاجة لا في أصلها فهي مطلوبة لدى الجميع.

ومن هنا يأتي دور المربي في إشباع هذه الحاجات وتلبيتها من خلال تعامله مع المتربين.

بالإضافة لهذه النتيجة والأثر المهم؛ فإن إبداء مشاعر المحبة تجاه المتربين يسهم

في تهيئة بيئة الموقف التربوي للتلقي والقبول، وتهيئة هذه البيئة لا يقل أهمية عن العطاء الموجَّه لشخص المتربي.

إن فارق السنّ، وفارق العلم، وفارق الخبرة، وفارق التميز، كل ذلك لا يكفي لأن يتحوّل المتربي إلى مُتَلَقٍّ ينتظر ما يقوله المربون.

ومهما بلغ المربي من تميز، ومهما علا شأنه، ومهما اتَّسع الفارق بينه وبين المتربين فسيبقى العامل الإنساني فاعلاً وحاضرًا، بل شرطًا أساسًا في التلقّي والسماع.

أوليس الله -تعالى- قد قال عن نبيه ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

فإذا كان هذا في حق النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وإذا كان غياب التواصل الإنساني الفاعل لو صار ذلك منه - وحاشاه ﷺ - سيصرف خير خلق وجيل؛ صحابةَ رسول الله ﷺ عن الاستماع لمن يعلمون أنه يقول الحق، ويحكم بالحق، بل لا حقَّ إلا من طريقه وسبيله ﷺ، فكيف بغيرهم من الناس؟

ومن هنا كان ﷺ يعبِّر لأصحابه عن محبته إياهم، يُعبّر لهم عن ذلك وهو يحدّثهم؛ فيسمعون ذاك الحب والثناء، فتطير قلوبهم فرحًا به، وتشرق أنفسهم أن أدركوا محبة سيد ولد آدم ﷺ.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بعث النبي ﷺ بعثًا، وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإنّ هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده» **(رواه البخاري ٣٧٣٠)**.

يخطئ أولئك الذين لا يسمع منهم أولادهم وطلابهم سوى عبارات اللوم والتأنيب، أولئك الذين لا يتحدثون إلا بلغة النقد لهذا الجيل؛ فطلاب اليوم ليسوا كطلاب الأمس، طلاب اليوم لا يعرفون الأدب مع الأكابر، لا يُقدّرون معلّمهم، وأبناء اليوم عاقُّون مع آبائهم وأمهاتهم، مقصِّرُون في حقوقهم، جاهلون بما يجب عليهم نحوهم.

نعم ثمة مظاهر من الخلل لا تُنْكَر نراها لدى أولادنا وطلابنا، وليس التساؤل في إثباتها أو نفيها، إنما التساؤل المُلِحّ: كيف يمكن التعامل معها؟ بأيّ لغة يتحدث عنها المربون والمعلمون والآباء؟

إنّ التعبير عن حبّ المربي لمن يربّيهم ويعلّمهم ليس قاصرًا على مجرد التصريح بعبارات المحبة والتقدير رغم أهمية ذلك.

إنّ رسالة المحبة من المربي يمكن أن تصل من خلال أدوات ووسائل عدة ليس التصريح بالمحبة إلا أحد هذه الوسائل.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ مع أصحابه وجد مظاهر هذا التعبير تتنوع، وليست قاصرة على مجرد التعبير اللفظي؛ فعن جرير ﷺ قال: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسّم في وجهي، ولقد شكوتُ إليه إني لا أثبتُ على الخيل، فضرب بيده في صدري، وقال: «اللهم ثبِّتْه واجعله هاديًا مهديًا». (رواه البخاري ٣٠٣٦، ومسلم ٢٤٧٥).

وعن عبد الله بن الحارث بن جزء ﷺ قال: ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله ﷺ. (رواه أحمد ١٧٢٥١، والترمذي ٣٦٤١).

وحين يجالسهم ﷺ فإنه يتبسّط معهم، ويشاركهم حديثهم المباح، فعن سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قال: قلت لجابر بن سَمُرَةَ ﷺ: أكنتَ تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيرًا؛ كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلّي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسّم. (رواه مسلم ٦٧٠).

وفي رواية: فيتحدث أصحابه يذكرون حديث الجاهلية، وينشدون الشعر، ويضحكون، ويتبسّم ﷺ. (رواه النسائي ١٣٥٨).

إن استيعاب النماذج المعبِّرة عن هذا التعامل التربوي منه ﷺ يتطلب أن نستوعب مواقف السيرة، وأن نورد كل ما نحفظه من مواقف التعامل النبوي؛ إذ مواقفه وحياته ﷺ كلها تنطق بذلك وتشهد به.

ومع ذلك ومهما أدرك المربي من أهمية هذا التواصل وضرورته فسيبقى المربي بشرًا، يتعامل مع أولاده وطلابه في مواقف الحياة المختلفة، وفي هذه المواقف ما يفقده توازنه أحيانًا، أو يرفع كفَّة مشاعر الغضب واللوم على مشاعر الحب والشفقة.

وهو مع ذلك أيضًا: محكوم بطبيعته البشرية من جفاء أو غلظة، أو خشونة في التعبير والتعامل، وليس مطلوبًا منه أن يتجاوز بشريته، لكنَّ المطلوب ألا يقود ذلك إلى تأصيل مواقف القصور وتبريرها، بل عليه أن يجاهد نفسه؛ فالعلم بالتعلُّم، والحلم بالتحلُّم.

إنّ التواصل العاطفي وإظهار المحبة لأولادنا والتبسط معهم يقرِّب الفجوة ويسهم في تهيئة نفوسهم للتلقِّي والسماع، وأمّا غياب ذلك فيقود إلى النفور والإعراض، ولو كان المربي على قدرٍ من العلم والتميُّز.

وهو مع ذلك يحقّق هدفًا تربويًا آخر له أهميته.

إنّه يُلبِّي الحاجات العاطفية للمتربين، وهي حاجات لها أهميتها؛ فهي تحقِّق جزءًا في بناء شخصية المتربي، كما أن غيابها يقود إلى خلل في شخصيته، أو إلى البحث عن هذه الحاجة من مصادر أخرى.

والمتأمل في الواقع اليوم -وبالأخص في واقع المراهقين والمراهقات- يلحظ أثر غياب هذا الإشباع العاطفي؛ إذ يلجأ فئة من الشباب والفتيات إلى إقامة علاقات مع الجنس الآخر، وحين يكون الدافع لها هو البحث عن الإشباع العاطفي؛ فسيؤدي إلى أن تتَّسم العلاقة بهذه السمة، ويسعى كل طرف إلى تحقيق التواصل العاطفي.

إنّ هذا المنحى من العلاقات لم يعد حالات نادرة أو شاذة، بل بدأت تتسع دائرته يومًا بعد آخر، مما يتطلَّب من المربين الوعي بنتائجه ومخاطره، والسعي الجاد في علاجه.

ورغم ما تحمله هذه العلاقات الشاذة من انحراف وخلل؛ فإن علاجها لن يكفي فيه مجردُ التحذير واللوم لمن يقعون فيها، ولا مجردُ بيان تحريمها وخطورتها، وإن كان ذلك لا غِنَى عنه.

لا بد أن يعي الآباء والأمهات دوافع أولادهم للجوء إلى هذه العلاقات، ولا بد أن يفرّقوا بين كون الشيء خطأ في ذاته، وبين البحث عن أسبابه ودوافعه والتعرف عليها لعلاجها.

إن مِن الناس مَن ينشغل بالنظر إلى الخطأ عن تعرُّف أسبابه ودوافعه، ويرى أن في البحث عنها تبريرًا لها وإعطاءً للمشروعية.

ومنهم من يتطرّف فيُغرِق في النظر إلى الدوافع والحديث عنها بما يعطي تبريرًا لمن يقعون في الخطأ، وأحسب أن كلا الموقفين لا يَسُوغ شرعًا، ولا يمثلان موقفًا تربويًا صحيحًا.

ومع أهمية وعي المربين بهذا الأمر، وبأثر فقدان أولادهم للحاجات العاطفية على حياتهم الخاصة؛ فلا بد من الاعتدال في التعامل مع هذه المشكلة.

إن بعضنا مُولَع بالمبالغة، ومُولَع بالتطرُّف واختزال المشكلات المعقَّدة في عامل واحد، ومن هنا يضخِّم البعض مطلب الإشباع العاطفي، ويجعله هو وحده المسؤول عن العلاقات غير المشروعة، ويجعله وحده هو مفتاح الحل.

نعم إنّ هذا الأمر له أثر لا يخفى، ولكن لا ينبغي تفسير الموقف من خلاله وحده، إنّه عامل مؤثر، ومع ذلك يُضاف له السيل الجارف من أثر الغزو الإعلامي الذي يُسوِّق للرذيلة، ويعطي المشروعية لمثل هذه العلاقات، ويبرز صورة وردية للسوء والفساد فيسميه بغير اسمه.

يضاف لذلك الخلل في بناء الشخصية؛ هذا الخلل الذي يقود صاحبه إلى أن يفرط في التجاوب مع عاطفته، وإلى أن يبالغ في مواقف القبول والرفض، وأن يفقد التوازن بين ما يدعو إليه الشرع والعقل، وما تدعوه إليه عاطفته.

ومن هنا فإن على المربين في علاج هذه المظاهر والتجاوزات ما يلي:

أولاً: لا بد من السعي والمطالبة بإصلاح الأوضاع السيئة للبثّ الإعلامي غير المحتشم، ولا بد من أن يتنادى المصلحون في الأمة إلى وقفة جادة تجاه هذا السيل الجارف من إثارة الشهوات والغرائز، وأن يسعى المصلحون لتقديم بدائل كافية

من الترفيه المباح، والتناول الاجتماعي للمشكلات بما يغني بالحلال -ولو كان مشتبهًا- عن الحرام المحض الذي لا يُقِرّه شرع ولا عقل.

ثانيًا: لا بدّ من اعتناء المربين آباء ومعلمين ببناء الشخصية السوية، الشخصية التي يملك صاحبها زمام نفسه فيدير نفسه، ويتحكم بإرادته، ويستعلي على رغباته ونزوات نفسه، ويستطيع أن يضع رغباته الشخصية وطموحاته العاطفية في إطار مُحْكَم، فلا يعتاد الانسياق وراءها، وأن يعي جيدًا أنّ مجرد الرغبة في عمل ما لا يعطيه المشروعية في الانسياق وراءها، وأن يعي جيدًا أنّ فقدانها لحاجة من الحاجات لا يسوّغ له أن يبحث عن تلبيتها من خلال مصادر أخرى.

ثالثًا: أن يعتني المربون ببناء عقول الناشئة، وتحقيق التوازن لديهم في مواقفهم بين ما يدعو إليه الشرع والعقل، وما تدعو إليه العاطفة.

ومما يحقّق ذلك توظيف العقل والإقناع في إيصال القِيَم وغرسها، والتقليل من الاعتماد على العاطفة وحدها -ولو كانت إيجابية- فإنَّ من يُدفع بعاطفة إيجابية نحو موقف ما قد يندفع نحو موقف مضادّ له بعاطفة سلبية.

إن السيل الجارف الذي يتعرَّض له أبناؤنا وبناتنا من الغزو الإعلامي والمادة الإعلامية التي تُقدّم للناشئة، سواء أكانت في ميدان التمثيل والمسرح، أو كانت في ميدان الغناء والشعر ونحو ذلك، أو في ميدان القصة والرواية، إن معظم هذه المواد التي يستهلكها أبناء المسلمين اليوم وبناتهم، معظمها تخاطب العواطف -إن سلبًا أو إيجابًا-، ولا شك أن كثرة الضرب على هذا المحور والحديث حوله يُفْقِد الناشئة توازنهم، فلا يستطيعون التعامل بالتوازن مع مواقف الحياة، فتزداد مساحة العاطفة في مواقفهم، وتزداد في قراراتهم.

ومن هنا يأتي دور المربين في بناء شخصية مَن يربونهم، سواء فيما يتّصل ببناء الإرادة واتخاذ القرار، أو ما يتصل ببناء عقولهم وزيادة مساحة العقل والمنطق في تفكيرهم.

إن هذه المطالب لا يمكن أن يحقّقها المربي من خلال جلسة أو جلستين أو موقف حواري، ولا يمكن أن يحقّقها من خلال مطالب يبلغها لمن يرعاهم، إنها تأثير تراكمي للجهد التربوي الذي يمارسه المربي في حديثه، في حواره، في مناقشاته، في نصيحته... إلخ ذلك.



فتعرّضت له

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة؛ عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تُمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته فتعرّضت له امرأة وكلّمته، فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبُّوه، فتوضأ وصلَّى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب! قال: لا، إلا من طين... الحديث». (رواه البخاري ٣٤٣٦، ومسلم ٢٥٥٠).

في هذا الموقف التربوي تتجلى لنا صفة من صفات المربي الأول ﷺ، ألا وهي الحياء ورعاية جانبه.

لقد كان النبي ﷺ موصوفًا بالحياء، وقد وصفه بذلك ربه -تبارك وتعالى- بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٣).

وعن أنس ﷺ قال: «لما تزوّج النبي ﷺ زينب أهدت إليه أم سليم حيسًا في تور من حجارة، قال أنس: فقال النبي ﷺ: فاذهب فادْعُ مَن لقيتَ. فجعلوا يدخلون

يأكلون ويخرجون. ووضع النبي ﷺ يده على الطعام ودعا فيه. وقال ما شاء الله أن يقول. ولم أدع أحدًا لقيته إلا دعوته، فأكلوا حتى شبعوا، وخرجوا، فبقيتْ طائفة منهم، فأطالوا عليه الحديث، فجعل النبي ﷺ يستحي منهم؛ أن يقول لهم شيئًا، فخرج وتركهم في البيت، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ ﴾، حتى بلغ: ﴿لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾» (رواه أحمد ١٢٢٥٨).

لم يكن الحياء مجرد سمة شخصية له ﷺ، بل كان قد بلغ فيه الغاية حتى شُبِّه بالعذراء ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه» (رواه البخاري ٣٥٦٢، ومسلم ٢٣٢٠).

فالأمر لم يقف على مجرد اتصافه ﷺ بذلك، فقد كان يربي الناس على الحياء ويعلّمهم إيّاه؛ فعن سالم بن عبد الله عن أبيه: أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإنّ الحياء من الإيمان» (رواه البخاري ٢٤، ومسلم ٢٦).

ومما يبدو فيه الحياء ويتجلى: اللفظ والتعبير، وبالأخص حين الحديث مما يُستحى منه، لذا شُرِع الاكتفاء بسكوت البِكْر حين تُخْطَب؛ لأنها قد تستحي من التصريح.

لكنَّ الإنسان لا غنى له عن الحديث عمّا يستحى منه، وليس بالإمكان أن يلزم السكوت دومًا، ومن هنا علَّم المربي الأول ﷺ أمّته كيف يعبّرون عن ما يريدون بما لا يخدش الحياء.

لقد علمهم ﷺ ذلك من خلال تعبيره وحديثه عما يستحيا منه في هذا الموقف -أعني حديث جريج- أشار النبي ﷺ إلى ما صدر من المرأة بعبارة يُفْهَم منها

المراد دون التصريح بما لا ينبغي التصريح به؛ فقال ﷺ: «فتعرَّضَت له امرأة فكلمته فأبى».

ومعلوم أنه ليس المقصود من ذلك مجرد التعرض ومجرد الكلام، بل إن النبي ﷺ كان يُعَرِّض في تعبيره وهو يُبيِّن الأحكام الشريعة؛ فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله، ثم أراد أن يعود فليتوضأ» (رواه مسلم ٣٠٨).

وعن عائشة ﵂: أنّ امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فعلمها كيف تغتسل. قال: «خُذِي فِرْصَةً مِن مَسْكٍ، فَتَطَهَّرِي بها». قالت: كيف أتطهّر؟ قال: «تَطَهَّرِي بها» قالت: كيف؟ قال: «سبحان الله، تَطَهَّرِي» فاجتبذتها إليَّ، فقلت: تَتَبَّعِي بها أثر الدم. (رواه البخاري ٣١٤).

والتكنية والتعريض في هذه الأمور هو منهج للقرآن الكريم، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء:٤٣)؛ ففي هذه الآية كنَّى الله -تبارك وتعالى- عمّا يخرج من الناس بالغائط، والغائط كما قال في لسان العرب: «والغائط المطمئن من الأرض الواسع» (لسان العرب ٧/ ٣٦٥).

ومع ذلك لا يكاد الناس يعرفون من هذا اللفظ إلا ما كُنِّيَ به عنه.

ولقد أصبح أمر الحياء في التعبير أمرًا مستقرًّا، فحين يحتاج الإنسان للحديث عن ما يُستحى منه يقدّم بين يدي حديثه ما يكون عذرًا له في ذلك؛ فعن أم سلمة ﵂ أن أم سليم ﵂ قالت: يا رسول الله ؛ إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة

غسلٌ إذا احتلمت؟ قال: «نعم، إذا رأت الماء»، فضحكت أم سلمة، فقالت: أتحتلمُ المرأة؟ فقال: النبي ﷺ: «فَبِمَ شَبَهُ الوَلَدِ؟» (رواه البخاري ٦٠٩١ ومسلم ٣١٣).

لقد كانت أم سُليم ﵂ بحاجة إلى أن تعرف حكمًا شرعيًّا يترتب عليه صحة الطهارة والصلاة، ومن ثَمَّ قدَّمت بين يدي سؤالها ما يبرّر لها التصريح بمثل هذا السؤال، مما يدلّ على استقرار مبدأ الحياء في التعبير.

وحين أراد النبي ﷺ بيان حكم شرعيّ لأصحابه، وتحذيرهم من الوقوع في أمر محرم قدَّم بين يدي ذلك بيانًا: أن الحياء لا ينبغي أن يَعُوق عن معرفة الحق؛ فعن خزيمة بن ثابت ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يستحي من الحق؛ لا تأتوا النساء في أدبارهن». (رواه أحمد ٢١٣٥٨).

إن هذه النصوص هي تأكيدٌ للحياء في التعبير؛ فالحياء لم يُذَمّ ولم يُنْهَ عنه، إنما نُهِيَ أن يَترك الإنسان الحقّ حياءً، لكن حين يكون له مندوحة في ذلك، فيعبّر بما يليق من الألفاظ فهو مندوب لذلك، فهذا منهج الكتاب والسنة.

هذا هو الحياء ومنزلته، ويبقى سؤال مهم: كيف يمكن أن نحقّق هذا السلوك التربوي لدى الناشئة اليوم؟ وكيف يمكن أن نرتقي بتعبيرهم وحديثهم؟

إنّ هذا الأمر كغيره من الأهداف التربوية لا يكفي في تحقيقه وصايا أو أحاديث مباشرة عن أهميته؛ إنه نتاج عوامل متضافرة تسهم في تحقيقه.

لا يمكن أن نأخذ حسن التعبير عمّا يفحش التصريح به معزولاً عن المهارة الأصل التي ينتمي إليها، وهي الطلاقة في الألفاظ، والقدرة على توظيف المفردات بصورة سليمة.

ومن هنا فإن مما يحقّق هذا الهدف الذي نسعى إليه ما يلي:

أولاً: تنمية الثروة اللغوية، والاطلاع على آداب لغة العرب وأشعارها، وهو مطلب يتأكد يومًا بعد آخر، وبخاصة مع الجيل المعاصر، الذي يعيش شبه قطيعة عن تراثه ولغته، إنّ مَن يُطلَب منه أن يُعبّر بألفاظ لائقة، وأن يراعي الأدب فيما يتحدث عنه، لا يستطيع أن يحقّق ذلك ما لم يملك ثروة لغوية مناسبة.

يعيش أولادنا وبناتنا مع الشاشات، ويتواصلون فيما بينهم باللهجات الدارجة والألفاظ العامية، وحين يتّجه مَن يندر منهم للاهتمام بالأدب؛ فهو يتفاعل في الأغلب مع نماذج من الأدب المعاصر الذي يعاني هو الآخر من قطيعة مع اللغة؛ فالقصة والرواية والشعر الحديث والأدب الشعبي كل ذلك بعيد عن اللغة العربية الرصينة.

إننا بحاجة إلى جهد يُعْنَى بتقريب اللغة وتبسيطها للناشئة، وإلى جهد يُعْنَى باختيار المادة الأدبية الأصيلة من لغة العرب، والتي تناسب الناشئة وتستثير اهتمامهم.

وتنمية المهارة اللغوية لن يكفي فيه تزويدهم بمادة لغوية رغم أهمية ذلك، فلا بد مع ذلك من تهيئة البيئة التربوية التي تعين على إكساب الناشئة مهارة التعبير اللغوي.

إنّ هذا يتطلّب من الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات أن يتحدثوا مع أولادهم بلغة تسهم في الارتقاء بالتعبير واللغة لديهم.

ربما يصعب أن نتحدث مع أولادنا باللغة الفصيحة الصارمة، لكن ليس البديل اللهجة العامية المبتذلة، إننا نستطيع أن نتحدث باللهجة المبسَّطة التي يفهمها الأطفال والناشئة، فنستخدم المفردات الفصيحة -ولو تبسطنا في النطق بها- وهو أمر يمكن أن نعتاد عليه في حديثنا وحوارنا.

ثانيًا: مما يعين على ذلك أن يرى الناشئة القدوة أمامهم؛ فهي تترك أثرًا لا يتركه التوجيه المباشر، فحين يرى الأولاد والديهم، وحين يرى الطلاب معلميهم يحسنون الحديث، ويبتعدون عما يُبتذَل من المنطق، ويُعبّرون بما لا يفحش؛ فإن هذا يترك أثره عليهم.

ألسنا نرى أن الأطفال الذي يقضون في الأزقة والشوارع جزءًا كبيرًا من أوقاتهم يتَّسمون باللسان المبتذل، ويسود لديهم منطق رخيص اكتسب اسمه من البيئة التي صنعتهم؟ فاصطلح الناس على تسميته لغة الشارع وألفاظ الشارع.

إن ما تعلمه هؤلاء لم يكن ليتم في جوّ تعليم رسميّ، ولم يكن نتيجة تعليم مقصود مخطَّط له؛ إنما هو اكتساب تلقّوه من تلك البيئة؛ فهكذا البيئة الحسنة الراقية تترك أثرها.

واللغة ليست مجرد أداة للتعبير، بل هي وعاء ثقافي، ومنطق الإنسان إفراز لأسلوب تفكيره وشخصيته، ومن هنا فأنت ترى في سلوك مَن يتحدثون لغة مبتذلة ما يتَّسق مع لغتهم، وترى في المقابل في سلوك وحياة من يرتقون في حديثهم وتعبيرهم ما يشهد بما هم عليه.

ثالثًا: تأصيل معاني الحياء وتنميتها في النفوس؛ فالحياء هو الذي يدفع المرء للبعد عمّا لا يليق من التعبير، ويؤدي للحديث باللغة التي تليق بأهل الحياء.

وقد ارتبط الحياء لدى فئة من ناشئتنا بالضعف؛ فأصبح مجالاً للذم والعيب، وساد شعور بأنه مدعاة لتفريط الإنسان في حقوقه وإضاعتها.

يحتاج جيل اليوم إلى تنمية الجرأة المنضبطة، وتعويد الناشئة أن يطالبوا بحقوقهم المشروعة، ويحفظوا في الوقت نفسه للآخرين قدرهم ومنزلتهم؛ فللكبار منطق يختلف عن منطق الصغار أو الأقران، ولأهل الشأن والهيئات ما ليس لغيرهم من الناس.

رابعًا: حسن التعامل مع مواقف الخطأ والخلل، فيجب أن نتوقع الخطأ والقصور في التعبير من ناشئتنا، وبخاصة مع ما نعانيه من ضعف في اللغة، ومن تواصل مع فئات لا تنضبط في منطقها.

والتعامل مع الخطأ في حالات كثيرة يمكن أن يسهم في علاج جوانب من القصور التربوي.

حين نسمع ما لا يليق من أحد أولادنا فليس الخيار الوحيد هو التأنيب ووصف المنطق بأنه معيب، وبأن صاحبه معدوم الحياء؛ فلا يليق أن نكسر حاجز الأدب حين نريد تعليم الأدب، ولا يليق أن نعلّم الحياء بما لا يرتضيه أهل الحياء.

إنّ من الوسائل غير المباشرة في التصحيح حين نجيب عن سؤال جاوز فيه السائل حدّ الحياء في اللفظ، أو نعلّق على مطلب، أو كلمة بدرت، من وسائل ذلك أن نستبدل ما لا يليق من اللفظ بلفظ لائق، فنقول له: نعم، بإمكانك أن تفعل كذا وكذا، أو: لا، يصعب تحقيق هذا الأمر في هذا الوقت.

وربما مضى المربي درجة أخرى في الصراحة فقال: أتقصد كذا وكذا؟ ثم يجيب دون أن ينتظر منه ردًّا، أو تغذية راجعة.

وربما مضى درجة أخرى فانتقد التعبير صراحة بقوله: كان الأوْلَى أن تُعبِّر بكذا وكذا، ومع التذكير ببعض الأدلة من القرآن والسنة في التكنية عما يفحش ذِكْره يزداد الأمر رسوخًا.

ويبقى اختيار الدرجة الملائمة في التصحيح مرتبطًا بطبيعة الموقف، وتقييم المربي له وما يتطلبه.

وبصفة عامة حين نحتاج للتصريح فلا بدَّ من حِفْظ كرامة من أخطأ، ولا بد من مراعاة مشاعره.

فرفع إليه رأسه

عن أبي موسى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حمية!، فرفع إليه رأسه. قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا. فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله -عز وجل-» (رواه البخاري ١٢٣).

في دووابن السنة مواقف عدة كان النبي ﷺ يرفع فيها رأسه الشريف للسائل أو المتحدث معه، أو يُقبِل عليه بوجهه الشريف؛ فعن البراء ﷺ قال: خرج النبي ﷺ يوم أضحى إلى البقيع فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه، وقال: «إن أول نُسكنا في يومنا هذا أن نبدأ بالصلاة، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد وافق سُنتنا، ومَن ذبح قبل ذلك فإنما هو شيء عجَّله لأهله، ليس من النُّسُك في شيء»، فقام رجلٌ، فقال: يا رسول الله، إني ذبحت، وعندي جذعة خير من مسنة؟ قال: «اذبحها ولا تفي عن أحد بعدك» (رواه البخاري ٩٧٦).

في مثل هذه المواقف نرى كيف أنّ النبي ﷺ يُعنَى بالتواصل الفاعل مع أصحابه، يُقبِل عليهم، يُنْصِت لهم، يَهتَمّ بهم، يستمع إليهم، وتبدو آثار هذا الإقبال في جوارحه ﷺ، وفي إنصاته ﷺ، وفي تركه ما يشغله ويصرفه عنهم.

لقد اعتذر النبي ﷺ حينما رأى في قِبْلته ما يشغله ويصرفه عن الناس، فرماه ﷺ، وكلّ هذا لأجل أن يعيش ﷺ مع أصحابه ويتواصل معهم.

بعيدًا عن اللغة المعاصرة، وبعيدًا عن ما يتحدث الناس فيه اليوم حول أهمية الاتصال والتواصل بين المربي والمتربي، بعيدًا عن ذلك، لا رغبة عنه ولا زهدًا فيه؛

فالحق ضالة المؤمن والمؤمن يستفيد من كل ما يلقى، لكن حينما نعود إلى سنة النبي ﷺ، وإلى مواقفه العملية نرى ذلك الأُمّي الذي اصطفاه الله -عز وجل- واختاره، ذلك الذي لم يقرأ كتابًا قط، ﷺ، ذلك الذي لم يتلقَّ هذه المهارات والأدوات، كيف كان ﷺ يعتني بتواصله مع أصحابه؟

قلبه الصادق ﷺ كان ينبض بالود الذي يُكِنّه لمن حوله، والإخلاص لمن يستمعون إليه، ناهيك عن توفيق الله -عز وجل- وتأييده له، كل ذلك كان له أثره البالغ في مثل هذه النماذج والمواقف التي تَزخر بها سُنَّة النبي ﷺ.

لم يكن التواصل النبوي الرفيع حكرًا على الخاصة، ولا المقربين منه ﷺ، بل كان يحظى به الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والعالم وغيره، فكُلّ مَن صحبه ﷺ وعاش معه، وكل مَن لقيه أو أدركه ولو لأول مرة، كل أولئك يلقون هذا الاهتمام والرعاية منه ﷺ.

إن التواصل الإيجابي يرفع قيمة من يمارسه؛ فالإنسان لا يستمدّ قيمته من أَنَفته وعزّته وتكبُّره.

يخطئ أولئك الذين يعتقدون أنهم حين يصنعون لأنفسهم هالةً من التعظيم سيعلي ذلك من شأنهم ومنزلتهم.

إنّ الناس يعظّمون مَن يتواضع، ويُجِلُّون مَن يترك الترفُّع عنهم، وفي المقابل فهم يحتقرون أولئك الذين يتكبرون.

إنّ هذا اللون من التواصل الإيجابي يعطي المستمع قيمته؛ فيشعر أنه أمام إنسان يقدّره، ويحترمه، وأن له وزنًا وقيمة، فكيف إذا كان من سيد ولد آدم ﷺ؟

والتواصل الإيجابي يحقّق الاطمئنان لدى المتربي؛ فينطلق متحدِّثًا بسجيته، يشكو همومه ومشكلاته، دون تردُّد، أو خوف ومهابة.

بعض مَن كان يسمع عن شخصية النبي ﷺ ولمَّا يلتق بها كان يرسم حولها هالةً -وحُقّ لهم ذلك-، لكنهم حين يلتقون معه يرون صورة أخرى.

لقد قال كعب بن زهير ﷺ:

لقد أَقُومُ مقامًا لو يقوم به ... يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل

لظلّ ترعد من وجد بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل

كان كعب بن زهير ﷺ يحسب أنّ الفيل بما أُعطِيَ من قوة غير قادر على أن يتوازن وهو يقف بين يدي النبي ﷺ، لكنه حين لقي النبي ﷺ رأى نموذجًا آخر، رأى ذلك الإنسان الذي يُقبِل على مَن يتحدث إليه، ويُنْصِت لمن سأله، بل يرفع رأسه، ويُقبل عليه بوجهه الشريف ﷺ.

كان ﷺ يُعْنَى بكل ألوان التواصل مع أصحابه؛ مستمعًا منصتًا، محاورًا لهم، يتيح لهم الفرصة للحديث عما يريدون، سواء أكانوا سائلين أو متحدثين مخبرين.

أليست عائشة ﷺ قد جلست تُحَدِّث النبيَّ ﷺ عن شأن أهل الجاهلية، فذكرت ذلك الحديث الطويل، فقالت: «جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألَّا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا...» (رواه البخاري ٥١٨٩، ومسلم ٢٤٤٨)، وهو ﷺ يستمع بإنصات، ثم يعلّق على هذا الموقف.

هذا اللون من التواصل يجعل الرسالة تصل للمتربي بوضوح.

في أحوال كثيرة نأمر أولادنا أو ننهاهم، أو نوجّههم توجيهًا ما، لكن غياب آليات التواصل المادية البشرية قد يعوق وصول الرسالة بشكل واضح، وكثيرًا ما

يأمر الأب أو الأم أولادهم أو ينهونهم، ثم يعاتبونهم عتابًا شديدًا وقاسيًا؛ لأنهم لم يستجيبوا لهم، أو لأنهم لم يسمعوا، ويعلقون على هذا الموقف بوصفهم بأوصاف لا تليق؛ كوصفهم بالصمم، والإعراض، أو بأنهم لا يسمعون، ولا يفهمون، ولا يفقهون.

ولو فكَّر هؤلاء الآباء جيدًا فلربما حكموا على أنفسهم بافتقاد التواصل الإيجابي.

إن الذي يطلب منك إعادة كلمة ما، أو يعتذر بأنه لم يسمع ما قلته، أو لم يعِ ما سمعه منك، فهو يعبّر عن واقعه حقيقةً، وهو يُشعرك بأنك لم تُوصّل له الرسالة، ومسؤولية الفهم لا تقع على المستمع وحده، إنها مسؤولية يشترك فيها الجميع: المتحدث والآمر والناهي.

وتخلُّف الفهم الصحيح ليس مصدره دومًا خطأ المستمع، بل منشأه في حالات عدة قصور المتحدّث في تواصله.

وقصور المستمع في الإنصات لا يُعْفِي المتحدث، بل عليه معالجة الموقف، باستثارة انتباهه، أو إعادة ما قاله، أو توظيف أدوات التواصل غير اللفظية، وربما طلب الإعادة منه.



لم يكن يسرد كسرد أحدكم

اللغة المنطوقة عامل مهم من عوامل التواصل بين المربي والمتربي، وأداة من أهم أدوات إيصال المعرفة والقيم والاتجاهات المطلوبة؛ رغم أهمية العناصر الأخرى.

ومن هنا فإن حُسْن توظيف اللغة في التربية أمرٌ ضروريّ، سواء في امتلاك المربي لها، أو في ممارسته لمهارات الاتِّصال اللغوي الفاعل.

ولقد جمع الله -عز وجل- للمربي الأول ﷺ الفصاحة والبلاغة، جمع له حُسْن المنطق الفطري؛ فليس في منطقه ﷺ وحديثه خلل عضويّ، ولا عيبٌ خَلقي.

كما أُوتِيَ ﷺ الفصاحة والبلاغة، فهو أفصح الناس ﷺ وأبلغهم، يدرك ذلك كل من ألقى نظرة عاجلة على سُنَّة النبي ﷺ القولية، فضلاً عن المختصّ الذي يتفحّص فيها ويبحث في أسرارها.

وظهر أثر هذا التميُّز في الخطاب النبوي في اتساع دائرة مَن يخاطبهم ويستمعون إليه؛ فهو ﷺ ليس متحدثًا للنُّخْبة والمتعلّمين وحدهم، ولا للعامة دون غيرهم، ولا لخاصة أصحابه دون سواهم، بل يرتقي بخطابه ليشمل الجميع.

وتقارن أم المؤمنين عائشة ﵂ رسول الله ﷺ بغيره من الناس في منطقه وحديثه، وتجعل من منطقه ولغته معيارًا يقيس به الآخرون منطقهم؛ فعن عروة بن الزبير، عن عائشة ﵂ أنها قالت : ألا يعجبك أبو فلان، جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدِّث عن رسول الله ﷺ، يُسْمِعُني ذلك، وكنت أُسبِّح، فقام قبل أن أقضي سُبْحَتِي، ولو أدركته لرددتُ عليه؛ إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم. (رواه البخاري ٣٣٧٥، ومسلم ٢٤٣٩).

وفي رواية: أن النبي ﷺ كان يحدّث حديثًا لو عده العادُّ لأحصاه.

(رواه البخاري ٣٥٦٨، ومسلم ٢٤٩٣).

وفي رواية: قالت: كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلاً؛ يفهمه كل من سمعه.

(أبو داود ٤٨٣٩).

تختزل فئة من الناس الموقف النبوي حين تحصره في دائرة محدودة من الاستنتاج، وتضيق الاستدلال والاستنباط. وإن المعايير التي تحكم استنباط المعاني والممارسات التربوية والاجتماعية تختلف عن تلك التي تضبط استنتاج الأحكام؛ فالأحكام تتضمن تشريعًا في الدين، وقولاً في الحلال والحرام، وفيما يجب وما لا يجب، وينشأ عنها اعتبار عمل ما مشروعًا، وآخر ليس كذلك، وعمل ما إثمًا وآخر مَنْقَبةً وحَسَنة.

أما ميدان التعامل الرحب مع النص والغوص في ظلاله فهو أوسع، كما وسَّع أهل العلم في باب المغازي، وباب فضائل الأعمال، لكنَّ هذه السعة والمرونة لا تعني إلغاء معايير الاستدلال والتفلّت في التعامل مع النصوص.

إن الاستشهاد بالنصوص على كرم النبي ﷺ وحِلْمه وحُسْن خلقه -على سبيل المثال- وهو مما تواتر فيه النقل يختلف عن الاستدلال بها على إنشاء حكم جديد.

وصفت عائشة ﵂ في هذا الحديث كلام النبي ﷺ بأنه: مفهومٌ، يفهمه كل من سمعه، وهو معيار له أهميته، ورغم بداهة هذا المعيار الذي يدركه من يملك أدنى منطق إلا أن كثيرًا من الناس يتجاهلونه، ويغفلون عنه.

إن قيمة حديثنا مع الآخرين أن يُعبّر لهم عما نريد، وأن يكون وسيطًا بين ما في خواطرنا ودواخلنا، وما نسعى لإيصاله لهم.

في مواقف عديدة يحول سوء التعبير بين الإنسان وبين ما يريد؛ فيعبّر بصورة قاصرة عن المعنى، أو بصورة توصل جزءًا من المعنى، بل ربما وصل بصورة غير صحيحة.

نلوم الناس على سوء الفهم، ونطالبهم بأن يحسنوا فهم ما يقال، ومن حقنا أن يفهمنا الآخرون، لكن من حق الآخرين كذلك أن نجتهد في إفهامهم.

حين يتفق عدد من الطلاب على فهم غير صحيح لتكليفٍ طلَبَه منهم أستاذُهم؛ فلا ينبغي أن يُوجَّه اللوم لهم، بل الأحق باللوم -إن كان ثمة لوم- هو مَن لم يَستطع إفهامهم.

كثيرًا ما يسمع الطلاب والأولاد: أنت لا تفهم، أنت لا تعي، ألا تفهم؟ ألا تسمع؟

إن هذا المُلَام لو أُتيح له أن يتحدَّث عما في خاطره لقال: ألا تُفْهِم؟ ألا تُسْمِع؟

وهَبْ أنَّ مَن حولنا يعاني أزمة في الفهم، وأزمة في السماع ألا يتطلب هذا الأمر منا أن نعتني بالإفهام والإسماع.

إن مما يتطلبه الإفهام وضوح اللغة والاعتناء بالمفردات الواضحة التي تعطي معنًى محددًا، فالإيغال في التفاصح والتشدق أمرٌ مذموم، وهو في الوقت نفسه من معوّقات الفهم.

لقد ثبت عن أفصح الخلق ﷺ أنه قال: «إنّ الله -عز وجل- يبغض البليغ من الرجال؛ الذي يتخلّل بلسانه تخلُّل الباقرة بلسانها» (رواه أحمد ٦٥٠٧، وأبو داود ٥٠٠٥، والترمذي ٢٨٥٣).

قال ابن الأثير: «هو الذي يتشدّق في الكلام ويُفخّم به لسانه، ويلفّه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفًّا» (لسان العرب ١١/ ٢٢٠).

وقال المناوي: «ووجه الشبه: إدارةُ لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلّم، كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل، وخصّ البقرة من بين البهائم؛ لأن سائرها تأخذ النبات بأسنانها، والبقرة لا تحتش إلا بلسانها» (فيض القدير ٢/ ٢٨٣).

وقال ﷺ: «إن أحبّكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقًا؛ المتشدّقون المتفيهقون الثرثارون» (رواه ابن حبان ٤٨٢، والبيهقي في سننه الكبرى ٢٠٥٨٨).

قال في لسان العرب: «وتفسير الحديث هم الذين يتوسّعون في الكلام ويفتحون به أفواههم؛ مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء والاتساع» (لسان العرب ١٠/ ٣١٤).

حين يقول أحد الخطباء للناس هذه العبارة: «لقد فاحت رائحة الشمس، فعطرت وجنات القلوب، وتركت قطرات الندى الإيماني الأبيض على شفاه الخفقات الدافئة في الصدور!». فهو نموذج من الإغراق في الإغراب، ربما يُقبَل في نصّ أدبيّ، أو في مجتمع له خصوصيته في المتلقّين، أما أن يكون في حديث عامّ يسمعه الصغير والكبير والعالم ومن هو دونه؛ فهذا مما لا يليق.

ومن صور الإفهام: التأني في الحديث والإلقاء؛ فلا سرعة تقود إلى عدم الفهم، ولا بطء يقود إلى مَلَل.

ومنه مراعاة القدر المناسب في مستوى الصوت؛ فالصوت الخافت في الحديث قد لا يُسمَع بصورة واضحة، وقد يفوت جزء منه، فلا يصل إلى السامع، كما أن زيادة الصوت تقود إلى الإزعاج والقلق لدى المستمع.

ومن صور الإفهام أيضًا: أن يراعي المتكلم مستوى المخاطب ومرحلته العمرية، فالطفل له قدرته التي تختلف عن البالغ في الإدراك والفهم؛ فهو لا يدرك المعاني المجردة، ومن ثَمَّ لا يدرك الأساليب البلاغية التي تنطلق من التجريد؛ فهو لا يدرك المجاز والكناية وضروب البلاغة.

سمع أحدهم أباه يقول: إن فلانًا له وجهان، فحملق فيه حين أتى، ثم حدّث والده مستغربًا: لقد قلت: إن له وجهين، فلم أرَ له إلا وجهًا واحدًا!

إنّ كثيرًا مما يُقدَّم للأطفال في الصفّ، بل في بعض الكتب المدرسية لا يتلاءم مع مستوى إدراكهم، إنه يعتمد الكلمة وحدها، والتركيب اللفظي وحده أداة للتعبير وإيصال المعنى، وحين يراد إفهامهم معنىً غامضًا يُشرح في حالات كثيرة بما يحتاج إلى شرح.

إن المعلمين والآباء والأمهات بحاجة ماسة إلى أن يدركوا جيدًا خصائص النمو المتعلقة بأولادهم وطلابهم، وأن يراعوا ذلك وهم يتحدثون، وهم يكتبون، وهم يتناقشون معهم حتى يكونوا أقرب تأسيًا بالمربي الأول ﷺ الذي كان يُعنَى بإفهام من يستمعون إليه.



إن عبدًا خيّره الله

عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «إنّ عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده»؛ فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ: يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. (رواه البخاري ٤٦٦، ومسلم ٢٣٨٢).

وقال رسول الله ﷺ: «إن من أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متَّخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خُلَّة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر». (رواه البخاري٣٦٩١).

كان النبي ﷺ واضحًا في حديثه؛ يفهمه كلّ من سمعه، فلا يحتاج السامع إلى تكرار أو استفهام أو سؤال، فقد أُوتِيَ ﷺ جوامع الكلم، وبلغ الغاية في البلاغة والفصاحة فلا يجاريه بليغ أو فصيح.

وكيف يجاريه أحدٌ وهو الذي اختاره ربه -تبارك وتعالى- ليبلِّغ دينه للناس؟

ورغم تلك البلاغة والفصاحة، والمنطق الذي لا يجاريه فيه بشَر، إلا أن الجميع يفهم كلامه ﷺ ويدركه.

لكننا الآن أمام موقف مختلف، يتحدث ﷺ أمام الناس أجمع، الجميع سمعوا كلام النبي ﷺ، لكن لم يفهمه سوى رجل واحد؛ إنه أبو بكر ﷺ.

لماذا اختلف الأمر في هذا الموقف؟

لماذا قال ﷺ كلامًا لم يَفهمه إلا أبو بكر ﷺ؟

هل كان ﷺ يريد إفهام الناس؟ ثم لم يَفهم منهم أحد؟

كلا، لا يمكن لأحد أن يقول بذلك، وحاشاه ﷺ.

ولو كان هذا ما يريده لتحدَّث بالأمر صراحةً، ولو كان يريد نَعْي نفسه للناس أجمع لتحدَّث بمنطق آخر.

وأصحابه ها هنا لم يتساءلوا، لم يتحاوروا بينهم: ماذا يَقصد النبي ﷺ، لم يسألوه عما أشكل عليهم من كلامه ﷺ، ذلك أنهم لم يروا أمرًا غامضًا يستوجب السؤال.

بل الأمر الوحيد الذي أثار استغرابهم وسؤالهم هو اكتشاف العلاقة بين خبر يرويه ﷺ عن رجلٍ خيَّره الله بين زهرة الدنيا وما عنده، وبين بكاء أبي بكر ﷺ.

فما الذي يقوده للبكاء وهو يسمع هذا الخبر؟

ويبدو من سياق الحديث أنهم لم يدركوا مغزى النصّ إلا حين تُوُفِّي رسول الله ﷺ.

ثمة سؤال يفرض نفسه ها هنا: لماذا أخفى النبي ﷺ الأمر؟ لماذا عبَّر بهذه اللغة دون تصريح؟

تَتَّسع دائرة الفهم والاختلاف في إدراك المغزى والحكمة من وراء ذلك، ولا سبيل إلى الجزم والقطع بتفسيرٍ واحدٍ؛ ما لم يدل النص عليه صراحةً.

لكن مما لا يتأثر بطبيعة تفسيرنا للموقف: أن نقول إنَّ النبي ﷺ أراد ألا يفهم الجميع، وأراد أن يخص ﷺ بهذا الأمر من يخص، إذ لو أراد أن يفهم الجميع لقال ﷺ صراحة: «إن الله خيَّرني بين زهرة الدنيا وما عنده، فاخترتُ ما عنده».

لكن هل أراد ﷺ أن يفهم أبو بكر وحده؟ أم أراد أن يفهم هو وغيره؟

هذا أمر يصعب الجزم به، ولا سبيل للوصول فيه إلى رأي حاسم.

إنّ هذا الموقف نستنتج منه أمورًا:

أولاً: هذا الموقف استثنائي وليس القاعدة في حديثه ﷺ؛ إذ كان ﷺ يُفهِم الناس ما يقول، لكنه هنا أراد أن يخصَّ بعضهم بالفهم.

الأصل أن نخاطب الناس بما يفهمون ويدركون سواء ما يتصل باللغة وغريبها وتركيبها، أو ما يتصل بما يبنى عليه الحديث من مقدِّمَات لا يُفهم بدونها.

إن مِن الناس مَن يعمّم الحالات الشاذة، ومن يحوّل النموذج الاستثنائي إلى قاعدة، ومن هنا يستشهد على مواقفه بنصوص وأدلة يضعها في غير سياقها، أو يعمّم موقفًا عمليًا على غير مورده.

يمارس هذا المنهج في التعامل مع النص الشرعي، ويمارسه في التعامل مع الآخرين والحكم عليهم سلبًا وإيجابًا، فيلغي محاسن الشخص لهفوة أو زلة، ويختزل شخصية فلان من الناس من خلال موقف أو موقفين، وفي الوقت نفسه ينتزع مواقف شاذة ممن شأنهم السوء والفساد فيجعلها أمارة صلاحهم وتقواهم، ويشهرها دومًا في وجه منتقديهم.

الأصل والقاعدة أن نُقدّم حديثنا بلغة واضحة يفهمها السامع ويعيها، ويدركها الجميع دون الحاجة لاستفهام واستيضاح.

لكنَّ الموقف التربوي قد يتطلَّب في بعض الحالات خلاف ذلك.

قد يتطلَّب أن نقصد إفهام بعض السامعين دون بعض.

حين يتحدث المرء في مجتمع عام يجمع الصغير والكبير، أو يتحدث في وسيلة إعلامية، يتحدث حديثًا للكبار قد لا يليق أن يفهمه الصغار، أو حديثًا للمختصين قد لا يلائم العامة، فهو في هذه الحال لن يستطيع أن يمنع مَن لا يرغب في إفهامه من أن يسمع، وهنا يبدو توظيف اللغة مدخلاً مهمًا لتلافي الخلل، من توظيف المصطلحات التي قد لا يعيها غير المخاطب، ومن الإجمال بدل التفصيل، ومن الكناية بدل التصريح.

وحين نريد إقناع طلابنا بأهمية اللغة والفهم فقد يكون هذا المسلك ملائمًا ومناسبًا، فالذي يفهم كل ما يسمع وما يقرأ قد لا يستشعر الحاجة إلى النمو اللغوي وإلى تطوير ثروته ومفرداته.

وفي بعض المواقف يرغب المربي في إثبات تَميُّز أحد طلابه، وفي إظهار قدراته؛ إما ليقتدي به الآخرون، أو ليسلموا بتميزه، أو ليدركوا أن ثمة فوارق في الإدراك والفهم والاستنباط، في مثل هذه المواقف ليس الملائم أن يتحدّث بذلك صراحة، وقد لا يلقى الأمر قبولاً، بل ربما فُسِّرَ بأنه نوع من التحيُّز.

ومن هنا فهذا الأسلوب من أولى ما يمكن توظيفه لإيصال هذه الرسائل.

كثيرًا ما يستشهد الطلاب على تميز أحدهم بسرعة إجابته، أو صحَّة معظم ما يُجيب، وما أن يُثار سؤالٌ حتى تتَّجه الأنظار له تنتظر ما يقول.

ولهذا استدل طائفة من أهل العلم بهذا الحديث على فضل أبي بكر ﷺ ودقَّة فهمه واستنباطه.

لكنَّ السائد والغالب في تعليمنا أن هذه المواقف إنما تُبرز مَن يحفظون سريعًا،

ومَن يستطيعون استرجاع المعرفة، أما مَن يحللون ويستنبطون ويقارنون ويطوِّرون فلا يزال تعليمنا قاصرًا عن اكتشافهم، فضلاً عن تطوير قدراتهم.

وكما كان هذا الموقف النبوي من المربي الأول ﷺ موقفًا استثنائيًا خلاف القاعدة؛ فهكذا هذه التطبيقات التربوية ينبغي أن تكون كذلك خلاف القاعدة، أما أولئك الذين لا يُفهمون إلا القليل، ولا يستفيد منهم عامة مَن يتلقَّى ويتعلَّم فليسوا أسعد الناس بمنهج النبي ﷺ.



إنما أنا بشر

مَن الذي حاز أعلى المراتب البشرية؟

مَن سيِّد الناس في الدنيا والآخرة؟

مَن الذي اصطفاه الرحمن خليلاً؟

مَن الذي يتردّد اسمه في كل بقعة في العالم كل يوم خمس مرات؟

إنّه محمد ﷺ؛ اصطفاه الله لأعظم مهمّة يُصطَفى لها بشر، واختاره -تبارك وتعالى- ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين.

ومع علوّ منزلته ﷺ ورفعة مكانته إلا أنه لم يترفّع على الناس؛ فقد بقي ﷺ بشرًا يصيبه مما يصيب البشر، وها هو ﷺ يصرّح أمام أصحابه في أكثر من موقف أنه بشر يعرِضُ له ما يعرضُ لهم؛ فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر خمسًا، فلما سلّم قلنا: يا رسول الله؛ أَزيدَ في الصلاة؟ فقال: «وما ذاك؟» قالوا: صليتَ خمسًا، فقال: فثنى رجله، واستقبل، وسجد سجدتين، ثم سلَّم، وقال: «إنّما أنا بشر مثلكم، أتذكّر كما تذكرون، وأنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني، وإذا شكّ أحدكم في صلاته، فليتحرّ الصواب، فليبن عليه ثم يسجد سجدتين» (رواه البخاري ٣٨٦، ومسلم ٨٨٩).

ولم يكن نسيانه ﷺ قاصرًا على عدد ركعات الصلاة، بل تجاوز ذلك إلى نسيان الطهارة. فعن أبي بكرة ﷺ: «أن النبي ﷺ استفتح الصلاة فكبّر، ثم أومأ إليهم أن مكانكم، ثم دخل فخرج ورأسه يقطر ماءً، فلما قضى صلاته قال: إنما أنا بشر، وإني كنت جنبًا» (رواه أحمد ١٩٥٢٤).

في هذا الموقف التربوي من المربي الأول ﷺ عِبَرٌ ودروس عظيمة:

أولها: تربية أصحابه على التواضع وترك الترفع؛ فالقدوة والمواقف العملية تترك أثرًا لا يتركه الحديث والوصية.

حين يعيش أصحاب النبي ﷺ معه، ويرونه وهو يعترف ببشريته، ويعتذر عن النسيان بأنه بشر مثلهم، وحين تعيش الأمة من بعده هذه المواقف، وحين يعيها المربون، يدركون أنهم أولى بالتواضع، فالقصور في حقهم أعظم، والخطأ منهم لا يَنْدُر.

ثانيًا: في هذه المواقف التربوية العظيمة عبرة لطائفة من المربين يولعون بوضع هالة حول أنفسهم، لا عن سوء نية، إنما عن فهم جانبهم فيه الصواب.

يتحدث أولئك دومًا بلُغَة المربي والموجّه، ويرسمون صورة لما ينبغي أن يكون عليه المربي، وربما شعر بعضهم أنّ مهمة التربية تخوِّل له استثناءات لا تخوّل لغيره، فمن حقّه أن يعرف ما لا يُعرف، ومن حقّه أن يُعامل بإجلال وتكريم لا يُعامل به أمثاله، ومن حقّه، ومن حقه... لأنه مُرَبٍّ.

كما أن الاعتراف من النبي ﷺ ببشريته فيه عبرة للمعلمين والمربين ألا يترفعوا عن قول: لا، وعن قول: لا أدري، وعن قول: لا أُحْسِنُ، وعن قول: اسأل عن هذا غيري.

يشعر بعضهم أن هذا يُنقِص من قدره، ويُقلّل من قيمته لدى المتربين، مما يعوق عن استماعهم وسماعهم منه، وهو شعور خادع.

يُكْبِرُ الناسُ من يتحدث في كل شيء، ويعرف كل شيء، ويحسن في كل شيء، لكنها فترة، ثم ما يلبث منحنى الإعجاب والثقة أن يتراجع، فلا يبقى عليه إلا فئة من البسطاء، ممن لا يحسنون اكتشاف الآخرين ومعرفتهم.

ربما يسهل على المربي والمعلم أن يقول حين يُسأل عما لا يعرف: لا أعرف. ففي حالات كثيرة ربما لا يجد خيارًا غير هذا، ولو أراد الادعاء والتعالم فلن يستطيع، ولكن: ثمَّة مواقف عدة تتطلب من المربي أن يقول: لا أحسن هذا المجال، لا أجيد هذه المهمة، غيري يفيدك أكثر، غيري أقدر منّي على مساعدتك في هذا الأمر، وأكثر ما تتجلّى هذه المواقف في الاستشارة.

بل نحن أحوج إلى الموقف الذي وقفه الراهب الذي قصّ النبي ﷺ علينا خبره في أهل نجران، فقد أسلم الغلام على يده، وتعلّم منه، ومع ذلك حين حصل للغلام من الكرامة ما حصل قال له: «أي بني! أنت اليوم أفضل منّي؛ قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتَلى، فإن ابتُلِيتَ فلا تَدُلّ عليّ». (أخرجه مسلم ٣٠٠٥، من حديث طويل في قصة أصحاب الأخدود).

وجعل الحسن البصري -رحمه الله- هذه العبارة علامة على الزهد، فعن معاوية بن عبد الكريم، قال: «ذُكِرَ عند الحسن الزهدُ، فقال بعضهم: اللباس، وقال بعضهم: المطعم، وقال بعضهم: كذا. فقال الحسن: لستم في شيء، الزاهدُ الذي إذا رأى أحدًا قال: هذا أفضل مني» (البيهقي في شعب الإيمان ٨٠٢٦، وفي الزهد الكبير ٨٤).

مواقف عدة يدفع فيها المتربي ثمرة عدم إحسان من يربيه لهذا الأدب، يستشير فلا يحتقر المربي نفسه، ولا يتّهم رأيه، فيشير عليه وهو ليس واعيًا بما يشير، ويوجّهه، وهو ليس مُدْرِكًا لما وراء ذلك، فيدفع هذا المتربي الثمن من مستقبله، حين يشعر بأن نصح هذا المربي وحرصه يعني كذلك قدرته وسداد رأيه.

ولقد بَيَّن المربي الأول ﷺ أن مِن بشريته أنه حين يقضي بين المتخالِفَيْن فقد يتأثر بما يسمعه ممن هو أبلغ وألحن بالحجة؛ فعن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرتها: عن رسول الله ﷺ: أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج

إليهم فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها» (رواه البخاري ٢٦٨٠، ومسلم ١٧١٣).

كما أنه ﷺ حين يقول برأيه مما ليس فيه وحي ولا تشريع من الله -عز وجل-، لا يتردد في أن يعترف لهم ببشريته ﷺ، فعن رافع بن خديج ﷺ قال: قدم نبي الله ﷺ المدينة وهم يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يقولونَ يُلَقِّحُونَ النخل. فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نصنعه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا» فتركوه، فنفضت، أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أن بشر». (رواه مسلم ٢٣٦٢).

ليس عيبًا على المربي أن يقول رأيه في مسألة ما، ومن حقه أن يبرر رأيه ويدافع عنه، لكن ما نراه من سلوك بعض المربين الذين يجعلون آراءهم الشخصية في تحليل الأحداث، أو الموقف منها، أو التعامل مع موقف يسع فيه الاجتهاد؛ أن يجعلوا آراءهم في ذلك صارمة، وأن اتباعهم عليها هو معيار صدق تدين أصحابهم وغيرتهم وولائهم للحق.

ما أحوج المتربين أن يسمعوا دومًا: أرى، أتوقع، الموقف يحتمل تفسيرات عدة، ويبدو لي أن هذا التفسير أقرب، ربما كان الأمر هكذا. بديلاً من: أجزم، وأقطع، والصواب.

عن ثابت البناني عن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم بتقواكم، ولا يستهوينّكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبدُ الله ورسولُه، والله ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله -عز وجل-» (رواه أحمد ١٢١٤١، ١٣١٨٤).

إنك لابنة نبي

لم يكن فضل شخصية المربي الأول ﷺ قاصرًا على نفسه فحسب، بل امتدت آثار هذا الفضل وبركته ليكون أسعد الناس بها هم أهل بيته -رضوان الله عليهم-.

قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٢- ٣٤).

ومن هنا فالبيت النبوي امتدادٌ طبيعيّ لشخصية صاحب هذا البيت ﷺ، ولا غِنَى لمن يدرس تربيته ﷺ عن الاطلاع على ما يجري في بيته.

في بيت النبي ﷺ نرى الصُّوَر الواقعية للبيت المسلم.

في بيت النبي ﷺ نرى التطبيق العملي للتربية الأسرية.

في بيت النبي ﷺ نرى النموذج البشريّ بسُمُوّه ورُقيّه، وببشريّته التي لا يتجاوزها.

ومع موقف تربوي في بيت النبوة نستلهم منه العبر والدروس؛ عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي. فقال النبي

ﷺ: «إنك لابنة نبي، وإن عمّك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففِيمَ تفخر عليك؟»، ثم قال: «اتقي الله يا حفصة» (رواه أحمد ١١٩٨٤، والترمذي ٣٨٩٤ واللفظ له).

يرتقي البشر ويسمون، وتحقّق التربية آثارها في نفوس المتربين رجالاً ونساءً، وخير النساء هن من اصطفاهن الله ليكن أمهات المؤمنين؛ قال -تعالى-: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾. (الأحزاب: ٦).

ويكفيهن سموًّا ورقيًا أن الله -عز وجل- اصطفاهن ليكنَّ أزواجًا لنبيه ﷺ، وأنه عدّلهنَّ -تبارك وتعالى-، وأثنى عليهن في كتابه.

وهن مع ذلك خيرٌ مَن تلقَّى التربية، فهنَّ نتاج تربية أفضل مُرَبٍّ عرفته البشرية؛ ﷺ.

ومع هذا كله يبقين بشرًا، تأخذهن طبيعة البشر، وقصور البشر، وخصائص البشر.

فها هي حفصة ﵂ زوج رسول الله ﷺ، وابنة خير الأمة بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر، التي يكفيها فضلاً أن روح القدس يشفع لها عند زوجها، عن أنس ﵁ أن النبي ﷺ طلّق حفصة، فأتاه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فقال: «يا محمد، طلقتَ حفصة، وهي صوّامة قوّامة، وهي زوجتك في الجنة، فراجعها» (رواه الحاكم في المستدرك ٦٧٥٤).

ها هي ﵂ تغلبها غيرة المرأة، والطبيعة البشرية، فتصف ضَرّتها صفية ﵂ بهذا الوصف.

مهما بلغت التربية من النجاح والتميُّز، ومهما سمَت بالمتربين فلن تصل إلى مرحلة يستعصون فيها على الخطأ، وتنتفي منهم الهفوات.

ومن هنا فالمربون الذي يحاسبون على الهفوة، المربون الذين يرسمون الصورة المثالية للمنتج التربوي يسعون إليها، ويطالبون بها، ويحاسبون على ضوئها، هؤلاء المربون بحاجة لإعادة النظر في اقتناعهم، بحاجة لمعرفة الطبيعة البشرية التي لا يمكن أن يصلها السمو والرقي -مهما بلغ- إلى درجة لا تأتي فيها بعض ما تُعاب عليه.

وهاهو أفضل جيل، تلقَّى أفضل تربية، وعاش أفضل تنشئة، ها هو رغم سموه وكماله البشري ها هو لا يجاوز البشرية فيبقى فيه قصور البشر وضعف البشر.

كما نرى الطبيعة البشرية تتجلى في موقف صفية ﵂؛ فانتسابها لليهود لا يُنْقِص منزلتها عند الله، والناس لا يَستمدُّون منزلتهم من أنسابهم؛ إنما هو الإيمان والتقوى، ومع ذلك، ومع أنها في الأغلب ليست ممن يجهل ذلك؛ إلا أن هذه المقولة تركت أثرها عليها فبكت ﵂.

حين يستوعب المربي ذلك سيترك أثره عليه في كافة عناصر الموقف التربوي:

- في أهداف التربية وغاياتها؛ فتكون واقعية لا تحلّق في الخيال.
- في المحتوى التربوي فيراعي الإمكانات البشرية، ويملك مرونة تراعي الضعف والقصور البشري.
- في طرق التعليم والتدريس.
- في التقويم؛ فلا يفترض المعيار الصارم الذي يخرج عن قدرة البشر، ولا يراعي طبيعتهم.

• في التعامل مع الأخطاء؛ فلا يقف عند الزلّة، ولا يعظّم الهفوة.

ومن الجوانب المهمة في هذا الموقف النبوي أن اعتبار الضعف والقصور البشري لا يعني تجاوز الخطأ، ولا يعني إقراره، بل لا بد من التعامل معه بما يناسب؛ تارة بالتجاهل حين يستوعبه المتربي، وأخرى بالتنبيه، وثالثة بالحزم والتأنيب، وربما بالعقوبة حين تكون هي الأجدى.

لذا نرى النبي ﷺ قد وجّه حفصة رضي الله عنها بما صدر منها قائلاً لها: «اتقي الله».

ومن إضاءات هذا الموقف النبوي ما فعله ﷺ مع صفية رضي الله عنها، وقد تضمن ذلك أمورًا عدة، منها:

تعاطفه ﷺ مع زوجته، واهتمامه بشأنها، فحين رآها تبكي سألها ﷺ: ما يبكيها؟

إن المربي وهو يؤدي رسالة سامية في بناء النفس لا ينبغي أن يتجاهل التعاطف مع من يربيه، والإحساس بمشاعره، وتفقّد أحواله، وفي معرفته لما يقلق ولده مدعاة لإعانته على مواجهة المشكلة ولو بالتخفيف والتسلية.

لم يقل لها النبي ﷺ ها هنا: إن الناس لا يتفاضلون بأنسابهم، وإن الفضل إنما هو بالتقوى -رغم أن هذا حقيقة-، لكنّه ﷺ راعَى الموقف وخاطَبها بما يُقنعها.

لقد أخبرها ﷺ أنها ابنة نبي قائلاً: «وإنك لابنة نبي»؛ أي: هارون بن عمران -عليه السلام-، «وإنَّ عمك لنبيٌّ»؛ أي: موسى بن عمران -عليه السلام-.

حين نتعامل مع موقف معرفي مجرد؛ فإن تقديم الحقيقة مقرونة بما يؤيدها هو الوسيلة الأنسب، أما حين يتعلق الموقف بمشاعر وأحاسيس شخصية فليس

المنطق المجرد هو الأنسب، فلا بد من مراعاة مشاعره وعواطفه، لا بد من الخطاب الذي يجمع الأمرين معًا، فلا يفترض في الإنسان أنه آلة صماء تنتظر مقدمات لتبني عليها نتائج، ولا ينساق مع العاطفة دون منطق مقنع، وهكذا كان الخطاب التربوي النبوي يجمع ذلك كله.

في مواقف عدة يحتاج المتربي إلى أن نكشف له عن حقائق تتَّصل بذاته وشخصه، ربما يكون جاهلاً لهذه الحقائق فهو يتلقَّى حكمه على نفسه مِن قِبَل الآخرين، وربما كان عارفًا بها لكنها تغيب عنه في مثل هذه المواقف، أو يغلب أثر الموقف السلبي عليها فيعطيها أقل من حجمها.

وسواءً كانت صفية ﵂ تعلم أنها ابنة نبي وعمّها نبي، أو كانت لا تعلم ذلك؛ فقد ترك هذا التعاطف النبوي أثرًا على نفسها، بل بقي مَنْقَبَةً لها ﵂.

رضي الله عن أمهات المؤمنين، وحشرنا في زمرة نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه؛ إنه سميع مجيب.



الخاتمة

هذا ما تيسر جمعه وتناوله، وهو لا يعدو قطرة في بحر، ومحاولة خجولة سعى فيها الكاتب إلى التأمل في بعض مواقف النبي ﷺ، اجتهد في جمعها وتحليلها، وهو مأسور بقصوره البشري، وخلفيته ومرجعياته التي لا يتسطيع الانفكاك عنها، والهدي النبوي أعلى وأسمى من أن يقرأ من خلفيات ومرجعيات قاصرة، لكن هذا هو الجهد والطاقة.

لم ولن يتمكن كاتب هذه السطور من وضع النقاط على الحروف، وأنى لمن هو مثله أن يحيط بسير الكبار والعلية، فضلا عن مقام خير الناس وسيد ولد آدم ﷺ.

إنها لبنة اجتهد أن يضيفها، وخطوة ربما أفادت بعض من يقرأ؛ فانطلق منها لما هو أرحب وأعمق وأوسع.

الهدي النبوي أعظم من أن يحيط به كاتب عميق متمرس، فكيف بعبد ضعيف البضاعة، قليل الاطلاع، محدود الخبرة.

ناهيك عن أن هذه المادة أعدت في فترات متفرقة، وقدمت في أحاديث إذاعية على مدى عام ونصف العام، صحب ذلك تعديل طفيف، ودمج للموضوع الواحد الذي قُدِّم مفرقًا.

أستغفر الله عز وجل من كل هفوة وتقصير، أو عبارة جاوزت فيها مقام الأدب والإجلال اللائق بالهادي البشير ﷺ.

اللهم اجعل هذا العمل في ميزان حسنات كاتبه، وانفع به من كتبه وقرأه، وارزقنا محبة نبيك ﷺ، واتباع هديه، والتأسي بسنته، واحشرنا في زمرة أتباعه ، وأوردنا حوضه، وأسعدنا بشفاعته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه،،،

